

مجموعه کرد علی

المذكرات

الجزء الثالث

تصفو الحياة لجاهل أو غافل
ولمن يغالط في الحقائق نفسه
عما مضى منها وما يتوقع
وبسومها طلب المحال فتطمع
« المتنبی »

.....
مطبعتہ الترقی بمشق ۱۳۶۸ هـ
م ۱۹۴۹



مجموعه درو علی



المذكرات

الجزء الثالث

لُصِفُوا الحِياةَ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ
وَلَمَنْ يَغَالِطُ فِي الحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُومُهَا طَلِبَ الحِمَالِ فَتَطْمَعُ
« المُنْتَهَى »

م ١٩٤٩

مطبعة الترتي بدمشق

٥ ١٣٦٨

Al-Mudhakirah



OLIN
+

تذکرہ

Pj

7741

K96

A3

1948

جز 3

Title — Al-Mudhakirah

الملكية أم الجمهورية

منذ تقلص ظل الدولة العثمانية عن ولاياتها العربية بعد الحرب العامة الأولى ، كان بعض من يهتمون بالمسائل السياسية يسألونني رأيي في الجمهورية والملكية ، وأيتها أولى ان ينادى بها في أمة تحاول ان تختارها من نظم الحكم الأنسب ، وتسياً للاندماج في زمرة الدول الممدنة ذات السيادة ، فكنت أحرار في الجواب ، وكثيراً ما استعفي من الجهر بما لا يكون منه إلا الوقوع في خطأ يُتناقل ، وإذا أُلزمت بالاجابة فيكون جوابي بشيء من التردد لا القطع ، وربما عدت على نفسي باللائمة لأنني لم ارض عما اضطرتت الى التصريح به على البديهة ، وقد يتخلل ما قلت امور يناقضها المشاهد ، والمسألة جدّ خطيرة ، وهي ذات شقين متناقضين ، ووجهين غير متشاكين .

للجمهورية حسنات ولها سيئات ، والملكية حسنات ولها سيئات ، أما البشر فسائر نحو الأنظمة الحرة ، متى خير لا يختار غيرها ، كما هو سائر نحو الاشتراكية والشيوعية ، متبرم من الرأسمالية . الجمهورية نسخت قانوناً عتيقاً وأتت بقانون كان نتيجة ارتقاء العلم وكثرة التجارب ، ويقوم الحكم الجمهوري على دعائم من الحرية ضرورية لقيام امر الجماعة . والملكية نظام لا بد فيه من إنغماض الطرف عن بعض الحريات .

الجمهورية نظام شعبي طريف ، والملكية نظام تغلب تليد ، الجمهورية بالانتخاب وفيها تجدد ، والملكية بالوراثة متسلسلة من الأب الى الابن او من الملك الى اقرب الولد للجد ، الاولى يطمح اليها كل من يحسن استمالة قلوب الشعب ، والثانية تم بالاقرار للمليك وآله بالصدارة والحق المكتسب ، والملك رمز أمته وعظمتها وتاريخها اكثر من رئيس الجمهورية . ارتقى البشر في ضروب الحرية حتى ليظهر اليوم كراهته للنظام الملكي ، لأن هذا يتطلب من الشعوب ان يعطوا الطاعة فقط ، والنظام

الجمهوري يتمتع القائلين بما يشتهون . الملك يمثل شعبه ابداً بسلطة لانهاية لها ، ورئيس الجمهورية يمثلها بسلطة موقته محدودة . الملك يختار رجاله على الأغلب من ارباب البيوتات القديمة ، اكثر مما يعنى الرئيس بذلك . ولا يكون حزب هذا على الأكثر إلا سواد الشعب ، وقد يكون اعتماده على السقاط والأراذل .

تقوم الجمهورية على الأمل والتجدد ، والملكية على الرضا بما جرى الاصطلاح عليه ، الأولى تمثل جديداً متباعداً عن روح الماضي ، والثانية صورة من صور القديم قد تنصبغ بصبغة الحديث . والملك في ملكه كالأب في بيته وبخاصة إذا كان ممن اتقنوا صناعته ، وعرف ما ينفع أمته ويضرها ، والرئيس أشبه بوصي اخذ على نفسه ان يكفل يتامى حتى يشبوا ويقووا . والملكية المقيدة نافعة إذا حسن انتخاب مجلسها أكثر من الملكية المطلقة التي لا يخلو القائم بها من لوثة استبداد ، والملك الدستوري اقرب الى قلوب امته من الملك المستبد ، فهذا لا يجب إلا رياء ، وشتان بين من تخضع له مختاراً ، ومن خضوعك له عن رهبة او رغبة . والطاغوت من الملوك يختار لخدمته من يجيد الملق له ، وقد يقضي من رجاله من يصدقه وينصح له . ولو اعتبرت الكفاءة في انتخاب الملوك كما هو مذهب المعتزلة لرجحت الملكية على الجمهورية .

الملكية تورث المملكة شيئاً من الاستقرار ، وهو من أهم العوامل في نهضة الممالك ، وربما رجحت كفة الملكية على الجمهورية إذا كانت من يتولى الملك ملكاً استوفى صفات الملك الحازم ، وهذا لا يتأتى كل حين ، والغالب أن يخلف الملك العظيم من ليس من عياره . وإذا زعم بعضهم أن الملكية تبذر الأموال ، فالجمهورية لا تقصر عنها في هذا الباب ولكن على طريقة أخرى ، أي بفتح الاعتمادات والايغال في تضخم الموازنات ، والمآل الى الاسراف واحد ، وإنما الاختلاف في الأسماء . وفي الملكية تسرق أموال الأمة بلا قانون ، وفي الجمهورية يلبسون السرقات صيغة قانونية كمن يحتمل على الزنا بصيغة من الحيل الشرعية . وفي الملكية

تكثر الشهوات ، ويستكثر الملك وآله من الاستمتاع بالنساء بما يخرج
عن القصد ، فيتناسل الأبناء وأبناء الأبناء ويكثرون كثرة يدخل الخلل
على إدارة الملك . وفي الجمهورية يكثر الفحش في أنصارها لسهولة الوصول
الى المال وعدم المبالاة في الاسراف فيه ، ولا يقيدهم شرع ولا تستشعر
قلوبهم الخوف . وفي الجمهوريين من يحاولون أن يغتنوا في أسرع وجه ،
يغتمون فرصة مقامهم القليل في الحكم . اما الملك فيرى ، وآماله في الملك
أطول ، أن المملكة مزرعته ، ومن شأن مالك المزرعة أن يجمي جهده
إنسانها وحيوانها ، ويدفع عنها ما يجعل خرابها ، ولسان حال الملكي :
كان أبي وبهذا ظهوري ، ولسان حال الجمهوري : أنا واضع أساس
مجدي . في الحكم الملكي يكثر الزهو والبذخ ، والحكم الجمهوري أقرب
الى الطبيعة الساذجة وقد لا تقل الجمهورية عن بذخ الملكية في بعض البلاد .
إذا ابتليت مملكة بملك يحسن الهدم ولا يحب التعمير ، ويستبد ولا يعرف
العدل ، يشتد بلاء أهلها ولا يتقدم من طغيانه إلا الثورة غالباً ، والثورة
لا تحمد مغبتها ، الثورة تنتهي بقتل الملك وإهلاك آله ومن يمت إليه
بصلة الحكم ، كما حصل في اليمن مؤخراً وما أغنى عن الامام ما جمع
من مال وما سدّ من منافذ النور على شعبه . أما رئيس الجمهورية
فمهما استبدّ كان من ورائه قانونه لا يتمتع بمنصبه أكثر من بضع سنين ،
وبمثل هذه البواعث نرى اليوم عدد الجمهوريات في العالم يزيد وعدد الملكيات
ينقص . والفرد مظنة الاستبداد أبداً ، والحكومة النيابية مهما دخلها
الفساد أقرب الى العدل والعقل .



جاسنا النيابية

لما عهد الى السيد سالازار بوزارة مالية البرتقال اشترط شرطين أحدهما ألا تعتمد الحكومة في موازنتها مالا لتصرفه في الانتخابات ، والثاني ألا تنفق وزارة من الوزارات شيئاً دون اشرافه على صرفه ، وبذلك استقامت موازنة البرتقال ، وكانت منذ مئة سنة من الموازنات التي لم يتعادل دخلها وخرجها . وشرع الوزير ورفصاؤه بمشاريع شغلوا بها اليد العاملة ، فغمرت بملكتهم وصلحت حال أهلها .

أما حكومات الشرق العربي السارية على النظام النيابي فتعتمد مبالغ عظيمة للانتخابات لتضمن لها الأكتوية في المجلس ، ويدوم حكمها ويحقق منافسوها ، ولا يفوز بالنيابة فيها على الغالب إلا الجاهل الذي يستجدي الأصوات أو يبتاعها وعند نفسه انه يفادي بالمنة ليحصل على الألوف ، وغايته أن يقعد على مقاعد المجلس ويرفع يده بالموافقة على آراء جماعته . وقد رأيت اصنافاً من النواب كان من اعظم الجرائم توسيد هذه المهمة الشريفة لهم ، فمنهم الامي الذي لا يقرأ ولا يكتب ومنهم من دأب طول حياته على التجسس لكل صاحب سلطة ، ومنهم من سعى بشباب قومه وشهد فيهم الشهادات التي ساقتهم الى حتفهم ، عين نائباً مراعاة لحاظ احد ذوي قرباه من ساسة لبنان ، فجلس بضع سنين في كرسي النيابة ولم يؤثر عنه ان قال كلمة في المجلس ، وقصاراه ان يقبض الراتب ، واذا عهد اليه امر افسده ، واذا وصلت الى يده اموال ابتلعها وكان سمساراً لطلاب الوظائف يعين لكل وظيفة ثمناً ، ورأيت نائباً آخر غرق في الجاسوسية للغريب وكان آلة شر في اجدى الثورات وقتل كثيراً من الأبرياء بأيدي سادته الذين تطوع في خدمتهم ، ولا شأن له اليوم الا امداد بعض المقامات العالمة بالأخبار التي يرتاحون الي سماعها كأنه

بعض رجال الأمن والمباحث . ومن خلا ذهنه من معاني الحرية كيف
تطالبه باقامة صرحها والعمل لما يصلحها ، ويكفي ان يقال ان هذا النائب
لا يعرف الغرض الذي جاء لأجله ، وليس له مزية من مزايا الرجال .
ولو قد كتب لك ان تطارحه الحديث في ابسط المسائل لتبينت مبلغه
من العقل والمعرفة ولأيقنت انه بمن تملكته العامية وليدة الأمية البغيضة .
حقيقة ان الحكم النيابي الذي أتانا به الغرب ينطوي على سخف
كبير ، وحكم يقوم على مثل هؤلاء النواب لا ينشأ عنه غير الخلل في
ادارة الدولة وسياستها ، وفي الغالب اذا اجتمع جماعة لامر عام ان يضلوا طريق
الصواب ويتبع قويمهم ضعيفهم وعالمهم جاهلهم وان كان الحق مع هذا
القوي وهذا العالم ، ويكون القول الفصل للثوار لا لصاحب الأناة والتعقل
ومجالس مؤلفة من مثل هذه الاعضاء المؤوفة يمل فيها الشياطين ارادتهم
والباقون يؤمنون على كلامهم بلا فهم من أضعف المجالس .

حاول أحد النواب وضع اقتراح في المجلس يفيد العدالة ، وذلك
بامتاع القضاة بالحصانة القضائية ، وواقفه على رأيه خطأ أكثر من أربعين
نائباً فلما نظر وزير العدل الى المتآمرين ساعة المناقشة في الموضوع نظرة فهبوا
منها التهديد امتنعوا عن اعطاء الرأي ونسوا تعهدهم لزميلهم ، ذلك لان لهم
قضايا في المحاكم اذا أغضبوا الوزير يخسرونها ، وهم بمن لاتهمم غير مصالحهم
الخاصة ، ولو كان ما يقررونه قميناً بان يعيد العدل العمري الى الارض .

فאי نفع يأتي على مثل هذه الايدي ؟ وهل يطيب لحكومة تحترم نفسها
ان تصل الى الحكم بواسطة امثال هؤلاء الجهلاء ومن اختاروهم من العامة في
المدن والقرى ؟ واقسم بالله أن جزءاً من النواب لا يدركون مغزى المناقشات
التي تدور في المجلس ، ومنهم من ينام او يتناوم ويرفع يده متى طلب منه
اعطاء الرأي - وأحب التلطف الى رئيس حزبه أو زعيم جماعته ، ومنهم من
لا ينتبه عند التصويت ويغلط فيعطي رأيه للحزب المخالف له . ومن الغريب
أيضاً ان مثل هذه الطائفة من النواب لا تحضر الجلسات النيابية بصورة
مطردة تفر من واجبها كما يفر الاطفال الكسالى من المدرسة .

ولكم رأينا الأخرق يفوز بالنيابة بتعجيز الناخبين او ابتياع اصواتهم او بسلطان الحزب الذي ينتمي اليه والزعيم الذي ادخله في جملته وتبناه وآخاه وهناك الرجل التام الادوات لا ينال سوى أصوات ضئيلة تلعن قومياً ضاع الحق فيهم ، وما دام معدل من يقرأون ويكتبون في مجموع الشعوب العربية لا يزيد على عشرين في المئة لا يجيء النواب الا من هذا الطراز .

والنواب يخرجهم الحزب بمختلف الطرق بالتزلف والمدحاجة والتهديد والوعود والرشوة وكسر صناديق الانتخاب والاستعاضة عنها بصناديق فيها كل من يحاول اشباعهم امتاعهم بالنيابة ، وبالقاء أوراق مزورة في الصناديق التي تصل الايدي الى العرش بها ، وشأن المجالس النيابية في مصر والشام والعراق ، شأن كل مجلس على الاغلب ، يتولى اقليته الحركة فيه والغالب ان يكونوا اقل من عشر اعضائه ، يدير الممتازون المناقشات وقصارى الباقيين تكثير سواد المجلسين .

وشيء آخر لاحظته في بعض المجالس النيابية وهو انه قد يكون من اعضائها الاكفاء حقيقة في السياسة والقانون والاقتصاديات وتمضي الشهور ولا يفتحون افواههم بأمر يعود على الامة بالخير ولا يتقدمون اليه باقتراح مفيد . ومثل هذه الحال اذا تجلت في الاميين لا يرضي صدورها من رجال مثقفين مدركين ، وكان الكفو الذي يختار السكوت في مجلس هو مصنع الكلام ، ليس الا صاحب عرض وصل اليه او يحاول الوصول اليه فلا يريد ان يعدل ولا يجرح لئلا يتأذى به احد بيده نفعه وضرره .

اجمع عقلاء الغرب على ان الحكم النيابي افلس وما جنيت منه الثمرات التي كانت تنتظر ، والفوا في ذلك الكتب ونشروا الرسائل والمقالات ، ونحن ماذا نقول في هذا النوع من الحكم الذي نقلناه عن الافرنج مقلدين ، ولا ننظر الى ما يوافقنا منه وما لا يوافقنا نظر تدبر وبصيرة ، قال احد سفراء فرنسا ان جميع شعوب البحر المتوسط وفي مقدمتهم نحن الفرنسيين

ليسوا من اللاتئين للحكم النيابي ، ونحن نقول ان العيب لم يتشأ من النظام النيابي فهو صالح للامم الراقية التي خفت فيها الامية ولكن العيب في منفذيه فاذا كانت لهم القوة اساؤا استعمالها واعادوا الاستبداد تحت طلاء الحرية يخدمون مصالحهم ويدوسون مصالح وطنهم وابناء وطنهم .

النصح الخالص

كان صديقي الاستاذ جرجي زيدان صاحب الهلال كثيراً ما ينصح لي منذ انشأت مجلة المقتبس في القاهرة سنة ١٩٠٦ ان انقطع إلى اصدار المجلة واترك الجرائد السياسية لأن استعدادي للعلم اقوى والتمحض له أولى ، فكنت اعتذر بأن المجلات لا يعيش بها اصحابها لقلّة ارباحها فلا بد من المؤازرة في الصحف اليومية ليتوازي الدخل والخرج .

ولما ازمنت العودة من القاهرة إلى دمشق سنة ١٩٠٨ لانشيء جريدة المقتبس السياسية كان اول ماتفضل ونصح لي به العلامة الدكتور يعقوب صروف منشيء المقتطف - وكان يعطف علي عطف استاذ على تلميذه وأب علي ابنه - الا ادخل في السياسة واقتصر على انشاء مجلة المقتبس العلمية قال اني كنت امس أفكر في أمرك وأنت على أهبة السفر لتعود إلى بلادنا فرأيت خدمة العلم أجدر بك وأهناً لك ، فيا أخي تأمل كيف تضيع غداً اوقاتك في الجريدة السياسية ، تنام على فكر وتنتبه على فكر ، وعليك كل يوم ان تنشيء مقالة افتتاحية تلذ القارئین مطالعتها فتضيع بذلك مواهبك وتضل في تيه لا تعرف متى وكيف تخرج منه .

فقلت له اني كنت أخذت على نفسي عهداً إذا تمتعت الصحافة في الشام بجريتها ان اخدمها واخدم الأقطار العربية بانشاء جريدة يومية فأنا اقوم الآن بما تعهدت به . وفارقتهم ولم البث اشهرأ قليلة ان عدت إلى القاهرة اعتمضم بها ، وقد اغلقت الحكومة التركية جريدتي ، واقامت علي دعوى تضعف بها قوتي ، فالتقيت بالدكتور صروف وشريكه الدكتور فارس

نمر في بعض شوارع القاهرة فأخذني استاذي صروف على عدم استماعي
لنصيحته . فقال الدكتور نمر : لا تحمل عليه فهذه السياسة يأخذ تيارها
من يعانها إلى حيث لا يريد ، والمقتبس اليومي لازم لنهضة سورية لزوم
المقتبس العلمي لتنوير الأفكار ، والخير غير مضمون في الأعمال كلها .
لم انتبه للنصيحتين الصادرتين عن عالين كبيرين من علمائنا زيدان
وصروف ، ولم أدرك انها رحمها الله ، نظرا الى استعدادي فعز عليها
ان ألقى بنفسي في مخاطر السياسة ومتاعبها ، اما انا فجربت طالعي
ودخلت المعمان بنية سليمة واجتهاد كلي ، فخرست وربحت في آن
واحد : خسرت وقتي وراحتي ، وربحت تجارب ما كنت احصل عليها
لو اقتصرت على النشرات العلمية ، وليس في الأرض شر محض ولا خير
محض ، والحياة تتقاضى المرء ان يذوق شاء ام ابى من خيرها وشرها .
وبعد سنين رجعت إلى العمل برأي الصاحبين الحبيبين في ترجيح الاشتغال
بالعلم على السياسة ، وما كنت اشك شهد الله الا ان نصيحتها ثمينة املاها
الاخلاص في الصداقة وحب العلم ، وهما لا يبغيان منها إلا راحتي ومصلحتي
اولاً وتكثير سواد خدام المعارف ، وكان عددهم قليلاً يومئذ . رمتني
السياسة بكل عظيمة وتلقيت ضرباتها بالصبر ، ولو كتب لي ان اتابع
السير فيها لمتعت بأرقى المناصب واوفر المكاسب وارادة المولى فوق
كل ارادة .

سنة ١٣٤٠

اللغات القريبة في الشرق

دام الناس في الشام على العهد العثماني يتكلمون التركية لتولي الوظائف فلما جلا الترك عن القطر جلت معهم لغتهم ، وبطل التكلم بها لعدم الحاجة اليها ، وبقيت بقاياها تتردد في السن من تزوجوا من تركيات ، ومن يستخدمونها احياناً من طبقة الموظفين ، حينئذ لأربابها وتذكراً لسلطانها ، ولما رحل الفرنسيين عن سورية ولبنان كانت الفرنسية قد رسخت قليلاً في الأولى وكثيراً في الثاني ، ومع هذا رميت في كلا البلدين بالكساد ، وكانت من ادوات الزينة والسياسة والعلم ، فأصبحت كما كانت قبل الاحتلال لغة علم وتجارة ، وعز على من كانوا يعيشون بها ان يروها تنحط عن مرتبتها ، وتفقد تلك السوق الراجحة التي اقامها لها المتغلب ، على عادة كل فاتح يتطال الى نشر لغته بمختلف الطرق ، وللفرنسيين شغف كبير في هذا الباب .

اللغة الفرنسية وان رحل اربابها عن ديارنا قد بقيت لها المسكنة التي كانت لها قبل نزول جيش المنتدبين على الساحل والداخل . وستظل الرغبة في تعلمها كما كانت لا تنازعها إلا اللغة الانكليزية ، وهذه تتفوق على الفرنسية في اصقاع الغرب والشرق ، وانتشار اللغة تابع للسياسة ، وسياسة الانكليز السكسونيين مقدمة على سياسة غيرهم من الأمم اللاتينية . يتكلم الفرنسية في الأرض نحو خمسين مليوناً والمتكلمون بالانكليزية لا يقلون عن مائتين وخمسين مليوناً اي خمسة اضعاف الناطقين بالفرنسية . ثم ان العلم البريطاني كان إلى عهد قريب يخفق على خمس سكان العالم وهذا مما اعان على انتشار الانكليزية . هزمت الانكليزية الفرنسية في الميدان السياسي والتجاري ، وكانت المعاهدات السياسية تكتب في القرون الماضية بالاطالية ثم نازعتها الفرنسية وبقيت قروناً لغة السياسة المرجحة ولغة التجارة ، ولما انتشرت الانكليزية قبلت في كتابة العهود واستعملت كالفرنسية

في المؤتمرات الدولية واخذت الفرنسية تفقد من قوة انتشارها اليوم بعد اليوم .
ونقول لمن اغتموا لتراجع الفرنسية في الشام انكم على ما اتم عليه
من الانتفاع بهذه اللغة اذا عاجلتم امركم باتقان العربية فان منكم من يكتب
الفرنسية كاهلها ولا يعرف من العربية إلا لهجة بلده العامية ، وعليكم إذا
صحت نيتكم أن تبقوا في الطليعة من حيث الظهور أن تعاوروا لغتكم
الأصلية بالدرس ، وما تعلمتموه من الفرنسية في السنين الطويلة تتعلمون
ما يوازيه من العربية في اشهر قليلة ، والمهم في الأمر أن تشعروا بحاجتكم الجديدة
إلى هذه اللغة وتحلوها من انفسكم ، وانتم جد عارفين بمصلحتكم الآن ،
كما احلتم اللغة الأجنبية وانتم صغار لا تعقلون ، وبذلك أيضاً تقومون
بما توجهه وطنيتكم عليكم .

سيكون مصير اللغة الفرنسية في عهد الاستقلال عندنا كما كان مصيرها
في مصر بالاحتلال الانكليزي ، احتفظت بمنزلتها وجاءت الانكليزية بعد
حين تطلب مكاناً يليق بها في وادي النيل ، وساوت الانكليزية الفرنسية
في ستين سنة وكانت الفرنسية مستأثرة بهذا التفوق نحو مئة سنة ، ولانكليزية
اليوم شأن لا تنازعها فيه الفرنسية ولا الالمانية ولا الروسية ولا الاسبانية
ولا البرتغالية . وإذا كنت تسمع في بعض مواني البحر المتوسط اللغة
الفرنسية فانك في البحر الهندي وما وراء المحيطات لا تتقاهم بغير الانكليزية
وإذا كانت الفرنسية منتشرة قبل ثلاثين سنة في جمهوريات جنوبي اميركا
اللاتينية بعض الانتشار فالانكليزية اليوم أصبحت هناك تنازعها تفوقها .
تحتاج الامم ضعيفة كانت أو قوية إلى استعمال لغتين على الأقل من اللغات
المساعدة ، ونحن لن يضيرنا الجمع بين الفرنسية والانكليزية أو الاكتفاء
باحدهما ، والمهم الا نقصر في لغتنا ونسد نقصاً يجب ملاقاته . فاللغة اول
مظهر من مظاهر القومية ومن ضعفت ملكتها فيه وفي وسعه احكامها
كان والهجم الهامج سواء .

ضباع الفرض

عرفني في إحدى رحلاتي إلى باريز الأستاذ برون استاذ الجغرافيا الانسانية في (كوليچ دو فرانس) الى صديقة له اسمها السيدة ريفير صاحبة مجلة أزياء تصدر بالانكليزية في الولايات المتحدة دعاية لفرنسا . وقد تلطفت ورافقتني في باريز الى عدة اماكن ماكنت اعرفها من قبل ومنها غابة فونتنبلو الشهيرة . ولما أزمعت الرحيل الى الاندلس اقترحت علي ان تبرق لأهلها في بوردو لأنزل عليهم ضيفاً اصرف اياماً في دارهم فأشهد فيها كيف تعيش الاسرة الفرنسية ، وهيات لي انواع التسهيلات للقيام بهذه الرحلة فاعتذرت بضيق الوقت ، وارجأت هذه السياحة الى فرصة اخرى . وفي طريقي من باريز إلى مدريد تعرفت الى مهندس برتغالي عائد الى بلاده فسر بلقاء رجل عربي واقترح علي ان اعرج على لشبونة لأزور ما فيها من آثار العرب فاعتذرت أيضاً بكثرة الأشغال وضيق الوقت ، ومن الناس من إذا كان قاصداً مكاناً بعينه يعتقد انه يجب عليه الا يقصد مكاناً آخر قبل اتمام مقصده الأول وأنا من أهل هذا الخلق على ما يظهر . وكان السيد بيير لوتي ابن اخي المارشال ليوتي مصلح مراکش العظيم اقترح علي في باريز ان يبرق الى عمه ليوسل لي سيارة الى جبل طارق تحملني الى رباط الفتح فأزور الغرب الأقصى ، وكان يتوقع ان يكرم عمه وفادتي لأنه يعرفني ، وكان اهدى الجمع العلمي العربي بواسطتي جميع ما صدر عن مراکش من المؤلفات بالفرنسية والعربية ، وتفضل واثني علي كثيراً واعتبط ان كنت السبب في ربط الصلات العلمية بين قطرين اسلاميين سورية ومراكش ، فاعتذرت ايضاً عن القيام بهذه الزيارة (٢٤ تشرين الأول ١٩٢١) .

ولكم اضع الفرض في امتناعي عن مثل هذه الرحلات المفيدة التي كان يقترحها علي من كنت ألقاهم في اوربا من اصدقاء السفر ثم أندم

على تخلفي عن اجابة طلبهم بما فيه متعة للنفس وفائدة ظاهرة استيفيدها
واقيد بها من اكتب لهم من ابناء الشرق .

اطالة التفكير في أمر قد يضيع الفرص السانحة ، وما كل يوم يتاح مثلها
اذا ذهبت لا تعود أو يعود القارطان . ومن اعظم الفرص التي اضعتها
ما وقع لي في زيارة العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي مع والدي رحمهما الله
في المدرسة البطريركية في بيروت وكنت في السادسة عشرة . ذلك
اني كنت اسمع بشهرة الشيخ في العلم والأدب ويروفي ما يكتبه من
الانتقادات ، فجملت والدي على زيارته فلبى طلبي مسروراً فلما مثلت
بين يدي الاستاذ العظيم وتكلمت كلمات قليلة مال الشيخ الى والدي وقال
له اترك لي ابنك أخرجك لك في الأدب فاني ألفتة نبيها فأجابه أبي : اني
أحب ذلك من صميم قلبي لاني اود تعليمه لولا اني لا اقدر على مفارقتة .
ولو كنت الحجت قليلا على والدي وبينت له ما اتوقعه من تخريج الاستاذ
لرضي باقتراح الشيخ وكان في ذلك كل الفائدة لي .

هذه فرصة معنوية ثمينة ضاعت وضاعت علي فرصة مادية أيضاً . ذلك
اني عرضت علي بضعة افدنة في قريتي وكان ثمنها جاهزاً عندي فأبيت
ابتياعها ولو اضفتها الى مزرعتي وشجرتها لتضاعف ما أملك . ولكنني كنت
يومئذ كارهاً سكني الشام وغاييتي ان أهاجر الى مصر وانجو من استبداد
العثمانيين وما عاد يطيب لي المقام في وطني بعد ان انذرتني الوالي بمغادرة
الأرض العثمانية او التزام جانب السكوت والامتناع حتى عن الكتابة العلمية .

تعدادی الأسر

من قصيدة في لبنان لصديقي شاعر العراق معروف الرصافي عليه الرحمة وهي تصدق على أهل كل قطر ومصر من أقطارنا وأمصارنا قال :

تلك الربى أما الجمال فواحد فيها ، وأما أهلها فاثنان
رجل يسير الى النجاح وآخر يسعى وغايته إلى الحسنان
متخاذلين بها وهم أعوانها ومن البلاء تحاذل الأعوان
ضعفت مباني كل أمر عندهم ما بين هادما وبين الباني
وتفرقوا دنيا كأن لم يكفهم في النائبات تفرق الأديان
وسعوا فرادى للنجاح وفاتهم أن التضامن رائد العمران

الحصام في الأديان أقل شدة من الحصام بين أبناء البيوت ، فقد يؤدي التعادي بينهم الى اختلاف يدوم بدوام عمر المتخاصمين . رأيت قضايا حدثت بين ورثة أبناء أب واحد وأم واحدة طالت العشرين والثلاثين سنة . وشهدت أقارب يتباغضون ، فكنت أسألهم عن سبب هذه العداوة ، فكانوا لا يستطيعون أن يوردوا سبباً معقولاً لعداوتهم . قل أن رأيت أبناء أب واحد يتحابان ، وقل أن شهدت أبناء عم وبنات عم يريد الخير بعضهم لبعض ، الحسد يأكل الأكباد وتظهر آثاره على الوجود ، وليس أشد من كيد أخ وقريب أو نسيب رأى تفوق أخيه عليه في الغنى والسؤدد ، ولو كشف الستار عما تكن القلوب من ضروب العداوة والبغضاء ما سلم بضعة في المئة من الناس ، ويندر من يرجو الخير لأهله ولقومه وللبشر ، وندر من صفت نفسه من الكيد لكل من افلح ، وهذه العداوات مشاهدة على أتمها في الأقارب ثم في أبناء الحرفة الواحدة وأبناء الحي الواحد المتجاورين والمتشاكلين ولا تزال تضعف حتى لا يكاد يرى لها اثر فيمن نأت ديارهم وقلت روابطهم .

وأقول لمن تنقبض صدورهم من هذا التعادي الذي لا سبب له أكثر

الاحايين : على كل من شاء ان يعيش بعيداً عما يكدره في الحياة ان يعمل على الدوام بالحكمة التي قالها هانوتو لرصيفه موروا وأشار اليه ان يكررها كلما اراد ان يفرج عن نفسه ، وقال إنه استعملها ونفعتة وهي : كل عارض يزول ، وكل حديث ينسى ، وكل خلل ينظم ، وما من انسان يفهم شيئاً بلا شيء ، ولو كان كل العالم يعرفون ما يقوله كل العالم عن كل العالم ما كان إنسان يكلم انساناً . قال وإياك يا اخي ان تجعل للخوف سبيلاً الى قلبك فإن العدو الذي انت خائفه يخافك في الوقت الذي انت تفرع فيه منه .

صراحة العلماء

من دواعي التوفيق ان من اخذت عنهم العلم العربي كانوا من طبقة ما عرفت الغش والخديعة ، وكانوا من الأحرار المجددين وإن كان ظاهرهم لا ينيء عن ذلك . ومنهم استاذي السيد محمد المبارك ، وكان متصوفاً ، ومزيدوه اخلاط الزمر ، وتعرفت بالضرورة الى بعضهم ، فاعتنم احدهم فرصة هذا التعارف وتقدم الى الأستاذ وقال له : ولماذا يا مولاي لا توعز الى تلميذك ان ينضم الى جماعتنا ويدخل في طريقتنا ، وتكرر هذا الطلب منه ، وفي آخر مرة كثر الاخاح فعبس الشيخ وقال بوجه منقبض : هذا طالب علم ويكفيه ما هو فيه مشغلة . ولو لم يقطع الأستاذ على هذا الفضولي سلسلة هذيانه لانتقطعت عن درسه ، ولكان من ذلك الضرر العظيم على مستقبلي . ومن الغريب ان هذا الملمح لادخالي في الطريق على قلة استعدادي له ظهر بعد مدة خلل في عقله وقتل امرأته .

وحدثني ابن شيعي هذا ، الأستاذ عبد القادر المبارك ان بعض جماعة والده اسروا اليه ان ابنك يعاشر (كرد علي) فيخشى ان تسري افكاره اليه وتفسد عقيدته ، فالأولى منعه عن مخالطته . فما كان من الشيخ

إلا ان قال لنجمله : رجائي ألا يؤثر فيك ما يشيعه بعضهم من اني غير راض عن صحبتك (كرد علي) أنا راض عن هذه العشرة ، وانت حر يا بني ان تصحب من تحب . وكناندرس مع ابن شيخنا بعض كتب الأدب التي ما اعتاد المشايخ قراءتها . رأى استاذي عدم ميلي للنصوف وما احب إدخالي فيما لا يعنيني ، ذلك لأنه لا يغش ولا يدلس . ولو كتب لي ان « اتصوف » لاختلت الحطة التي خططتها لنفسي في الدرس والبحث . وكان مما زهدني في تصوفهم أني طالعت بعض كتبهم فمنها ما فهمته واكبرته ، ومنها ما لم احل رموزه كالفتوحات المكية ، فإن في هذا الكتاب الذي لم يفتح الله صدري لفهمه قطعاً تعد من الأدب العالي ونبذاً جميلة في الأخلاق ، والى جانبها قطع لا يمكن حلها إلا بإلهام إلهي وبعض ما جاء فيها من المعاني مناف لما ورد في الشرع ووافق عليه العقل وربما كان منها ما هو مدسوس على ابن عربي او كتبها في حال غيبوته او تعمد إبهام عبارتها كما يتعمد بعض الفقهاء إدخال الغموض على كتاباتهم حتى لا يتلقف الطالب علم الفقه بطريقة هينة لينة .

مستحق

الحنبلية

سأل سائل عما اقصد من قولي فلان حكمت عليه حنبلية ألا يفعل كذا وكذا ، وفلان مأخوذ بحنبلية . فأجبت اني اقصد بحنبلية تشدده وتعصبه وتكلفه التزم والرزانة . والأرجح ان هذه اللفظة كانت تطلق في بعض الأدوار الاسلامية على الحنابلة الذين كانوا ينكرون المنكرات بعنف وكثيراً ما كان انكارهم يؤدي إلى اهراق الدماء وخراب المدن والقرى وتعادي الناس ، حتى أن صاحبهم قال للخليفة العباسي (مه يا صبي) فعوقب على هذا الكلام الفج الذي لا يقابل بمثله خليفة المسلمين ، وربما كان للحنابلة يد في تجسيم مسألة خلق القرآن وكان منها اشتعال نار حرب أشبه بحرب دينية في بعض أرجاء المملكة العباسية أوائل القرن الثالث .

مثال من الحنبلية البغيضة : شيخ من كبار شيوخ عصره كانت تحرم في نظره رؤية الصور المعالقة على الحيطان وكان اذا زار بعض المسيحيين أرسل أحد تلاميذه الى صاحب الدار يقول إن الشيخ لا يدخل غرفة فيها صور فيضطر المزور أن يأمر برفعها في الحال ، أو أن يغطيها بستار يحجب ما وراءها لئلا ينقص ايمان الشيخ بالنظر اليها ؛ وهذا الشيخ كان يختص غير المسلمين بزياراته ولا يزور المسلمين وان كانوا من رحمه . ومن الحنبلية التي يصعب تحليلها انه أراد مستأجر حانوته وكان رومياً ظريفاً ، على أن يرفع الصور من الجدران فقال له المستأجر ولماذا تطلب مني يا سيدي أن يكون ايجار محلك ليرات انكليزية وهذه الليرات نقش عليها صور ملوك انكلترا ، فلم تحمل الصور في النقود وتحرم اذا كانت على الحائط .

ومن الحنبلية أن يحظر أحد المشايخ على فلاحيه زرع الاينسون لانه يدخل في العرق والعرق محرم ، فاذا اطلق الشيخ زراعة الاينسون فكأنه أباح نشر المسكرات ، وفاته نفعنا الله بعلمه وتقواه أن الاينسون

يدخل في كثير من العقاقير والادوية ولو استمع الفلاحون لفتواه لفاتهم موسم من المواسم الزراعية الراجحة . وربما تدرج الشيخ بشاقب رأيه الى تحريم العنب والتمر ومنها تستخرج الخمر ايضاً .

ومن أعجب ما تصرفت به الاقدار ان نسل هذين الشيخين التقيين النقيين طلقوا كل حنبلية وخرجوا عن تروم جديهم العظيمين ، وراحوا يتعاطون كل الخمر والمخدرات ، ويستحلون انواع الأموال يا كلون الاوقاف سرّاً وعلناً ويقولون ما وقفها الواقفون الا لنا ويستبيحون اختلاس أموال الدولة بمقادير واسعة .

ومن الحنبليات ما روي لي من أن أحد النظار على وقف أهلي كان اذا جاء مزرعة الوقف لا يبيح أن تشرب دابته من بئر أو تقضم شيئاً من القصيل أو التبن لان ذلك ينافي الذمة وهو مال موقوف ، أما أن يقطع هو من مغل* الوقف كل ما طالت يده اليه وخصوصاً اذا أيقن أن سرقته لا تنكشف للمستحقين فهذا من الحلال الذلال ، ومن أصعب ما يثقل على الطبع أن يصدر هذا الرأي السخيف من عامي وأجهل من عامي ولا نخلو من سخفاء يستجيبيون اليه في هذا العصر .

وحنبلية مزوجة بنفاق عمل من يبذل راتبه من الصراف اليهودي كلما قبضه على رأس كل شهر بدعوى أن مال الدولة تدخل فيه مكس لا يجاها الشرع فهي نجسة أما مال اليهودي فظاهر لا شبهة في طهارته ، ومنها امتناع ذلك النائب الاخرق عن اقرار موازنة الدولة بدعوى ان فيها أموالاً لا يحل فرضها على المكلفين . وكان من جهة اخرى يأخذ راتبه من هذه الأموال المحرمة .

ويطول شرح الحنبليات التي تصدع سمعي بها منذ القديم . اما زهد بعضهم باموال الحكومات والدول فهذا مزاج خاص نشأ من تدين واخلاق حسنة فهو دين واصحاب الحنبليات لا يرجون من حنبلياتهم الا الدنيا .



اختلاف الشرفيين

من حكم السيد جمال الدين الافغاني : شر أدواء الشرفيين اختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف قد اتفقوا على الا يتفقوا . وقال : الاحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها تنقلب غالباً الى شر داء . يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الامة مطالب وغايات شريفة فيناصرونه ويكون له اصدقاء في البداية ثم تظهر الأثرة وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل اعداء في النهاية اه .

وبالسير على نظام الغرب تجلي فشلنا في تأليف احزابنا السياسية لاعتقادنا ان الغاية من تأليف الحزب السياسي الوصول الى الحكم وخدمة المصلحة الخاصة . ولما كان افراد الحزب مختلفة تربيتهم تتسرب الاغراض اليه وتتلوث بما قد يخفى على قاداته او يعرف هؤلاء اشياء ويكتتمونها ويكون للوسط بعقله من رجال الحزب الشأن الاول ويحمل رأي العبقري منهم ويضطر الى ان يسير مع ضعاف النظر الحاليين من كل تجربة . ولا يستعربن ان تنحل كلمة الجماعة بظهور حقيقة تركيب الحزب للملأ ويعين على هذا اخفاق بعضهم في الوصول الى ما أملوا من حزبهم وحسدهم من اقتسموا الغنائم وحدهم مع انهم كانوا بزعمهم اشد بلاء في الخدمة واخلاقاً في القصد . فيتخلل الخلل ذلك العمل وتنداعى أركان الوحدة وتذهب الغاية المرجوة منه لخير الجماعة .

رأى بعض الأبالسة ان الدين من أشد العوامل في استتباع العامة ، فازمعو ان يبدأوا بعمل ينفعهم فساروا نازعين الصبغة التي طالما فاخروا بالاصطباغ بها فلما شاهد أرباب الشأن ان باطل ادعاء الدين لا يقاوم إلا بسلاح مثله أخذوا يميلون كرهاً كفة جماعة آخرين فظهروا مستظهرين بارباب القوة وان كانت النفوس كارهة للصورة التي اوصلتهم الى مقاعدهم ، وقد تقاوت السياسة الباطل بالباطل لتحقيق أمنية يخيل انها نافعة . نقول نافعة

ولو ظفر اولئك الذين نفخوا في نفوس العامة ما نفخوا باسم الدين لتبدلت
الأوضاع غير الأوضاع ولرجعت الأمة القهقري لا محالة .
ان من تطالت نفوسهم إلى هذه الثورة لا يعرفون الاضطلاع بما اليه
يدعون وهم اذا كانوا لم يفلحوا فيما تمحضوا له فلن يفلحوا في أمر ادعوه
وهم منه عارون ، بيتوا ثورة للقبض على زمام الحكم وكان لصديقي السيد
سعد الله الجابري رحمه الله شرف الفضاء عليهم . صادفته بعد سنة من
وقوع هذا الحادث الخطر في فندق فقلت له : دعني أقبل عارضيك فانت
والله ابن حلال حقاً ، ولولا اقدامك على ما اقدمت عليه فقضيت على من
جعلوا من الدين ستارة يلعبون خلفها لوقعنا في شر اعمالنا .



الدعاية للفضائل

سبقنا الغرب إلى كل نوع من انواع الدعايات فنجح كثيراً ،
وما انتشرت النصرانية في أوروبا إلا بفضل ماتم لها من الدعاية المنظمة . وعندهم
دعاة للخير ودعاة للشر ، ودعاة لجلب المال ودعاة لانفاق المال ، ولكن
ما يخطر وما لا يخطر في البال من الأعمال .

لما أرادت بعض الولايات المتحدة الاميركية منذ سنين ان تبطل
الأشربة الروحية وشدت على شاربها وأنشأت دعاية واسعة النطاق تنفر
بها الفريق الآخر القائل باطلاق الحرية في تعاطي المشروبات ، قام فريق عدم
الخطر او الاباحة بدعايات عجيبة حتى بطل المشروع وعاد الاميركيون
لما كانوا عليه واعتبط المبيحون للخمور وانحق خصومهم .

ولكن دولة صغرى في شمالي اوربا وهي السويد قام بها دعاة منع
الأشربة فنجحوا وبعد ان كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ - ٤٠ لپتراً

من المسكرات اصبح لا يصيبه اكثر من ٦ ليترات سنة ١٩٠٥ ونزلت
مقطوعة كل فرد إلى سدس ما كانت عليه والمعقول انها نزلت بعد ذلك
كثيراً حتى لم تعد تذكر وذلك بالدعاية المحمودة للتنفير منها .
هذا ما كان في بلاد قد يحتاج ساكنها الى شيء من الأشربة يدفعه
ويقويه على اتقاء زمهريرها وبردها . اما في مصر والعراق ثم في الشام فان
انتشار الغول اي الالكحول سائر بخطى سريعة ولا سيما (الويسكي) تعلم
الشاربون الادمان عليه من الانكليز وجيوشهم في الحرب . وأخذنا غيره
من اصناف المشروبات حتى اصبحت رسومها في الجمارك تؤلف رقماً عظيماً .
تركت اكثر حكوماتنا العربية الحبل على الغارب في مسائل المشروبات
ولسنا علم الله في حاجة اليها للدفع ولا لغيره وشريعتنا تحرم قليلها وكثيرها
وما رأينا جمعية رائدها الحد منها قامت بنية حسنة تبعد الناس عن هذا
العدو اللدود الذي طالما شكك من غوائله اوربا واميركا على اختلاف
اقطارها ومذاهبها اللهم الا جمعية واحدة في مصر ينظر اليها القوم نظراً
السخرية وهي دائبة على عملها .

وما قلناه في الأشربة الروحية يقال في الخدرات التي خصت بالبلاء
بها ارض العرب كالثقات في اليمن والحشيش في مصر والأفيون وغيره
من المهلكات يستعمل في غفلة ضابطة الأخلاق وحكوماتهم ساكنة لانها
تنقاضي الرسوم عنها وتدخل خزانتها بلا زككير وتقول عن نفسها انها
حكومات اسلامية .

مكتبة جامعة القاهرة

المعلمة العربية

طلب بعض ارباب الشأن في الحكومة المصرية ان توضع تقارير بشأن مشروع انشاء معلمة أو موسوعات او دائرة معارف (انسيكلوبيديا) وطلب اليّ مثل ذلك فكتبت الي السيد عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة المصرية تقريراً ذهب فيه الي ان هذه المعلمة يجب ان تكون ترجمة وتأليفاً وذهب آخرون الي انه يجب ان يقتصر فيها على الترجمة فقط وهالك التقرير :

نشر معلمة عربية تضم شتات ما انتجه العقل البشري في كتاب واحد اعظم عمل علمي قام حتى الآن لخدمة الجامعة العربية ، واكبر مفخرة لمصر ولرجال مصر في هذا العصر . ولذا كان من الواجب بذل اقصى الجهود لاجراخ هذا السفر للناس تام الأدوات ، جميل النظام والرواء ، يتم عن بحث ودرس وتمحيص ، يجمع ما تفرق من علم الاسلاف الي جملة علوم الأخلاف ، ويكون ينبوعاً صافياً يستقى من موارده العذبة القرية التناول كل عالم ومتعلم ، ويغدو به العلم من يد الطالب على طرف الثمام ، فتدخل الامة العربية في طور الامم المتمدنة العالمة .

يعهد باديه بدء إلى بضعة علماء مدرّبين يؤلفون لجنة تدعى اللجنة العليا ، وهذه تندب جماعة لوضع اساس مالية هذا العمل وادارته ثم تشرع اللجنة بالنظر في الموضوعات التي يتحم البحث فيها فتقسم العلوم الي خمس سلاسل على مثال المجامع العلمية الخمسة في باريز ، فيضم كل فرع الي مائة او ثلثة في الجملة ويضع رئيس كل قسم وهو احد اعضاء اللجنة العليا المواد التي يجب ان يكتب فيها من اول المعلمة الي آخرها كما فعل رئيس انشاء معلمة الاسلام Encyclopédie de l'Islam في هولاندة (ومع هذا نسخة من المقالة التي كتبتها فيها في الجزء السادس من مجلة المجمع في سنتها السادسة الصادر في يونيو ١٩٢٦ فان بين عملنا هذا وعمل علماء المشرقيات تشابهاً كثيراً في بعض الاقسام) .

أو تكتفي اللجنة لأول مرة بالشروع ببحر في الألف والباء وتوزع المقالات على زمرة الاخصائيين وهؤلاء يتوزعونها بينهم ويختارون لها من ساوا من المؤازرين . والاولى ان يختار الاخصائيون ما يريدون ان يختصوا به من أبحاث المعلمة على ان تعتقد اللجنة العليا انهم يجيدون فيما تخيروه لأنفسهم من الموضوعات . ويحدد ميعاد معين لانجاز المقالات لا يتعداه المؤلفون بحال . وكلما انتهى العمل بحرفين أو ثلاثة يشرع بالحروف التي تليها . وأهم ما توجه اليه العناية عند الشروع بالمعاملة الموضوعات التي تعالج فيها ومقدار الصفحات أو الأسطر التي تخص بها كل مقالة من مقالاتها فان ما يكتفي فيه بأسطر لا تكتب فيه صفحة وما يجتزأ منه بصفحة لا يسمح له بصفحات .

لا جرم ان من يوسد اليهم البحث في العلوم المادية سيلقون عنتاً في اعداد الأسماء التي تجب الكتابة فيها ، لقلة المصطلحات العلمية التي وضعت حتى اليوم . ولان ما وضع منها لم يجمع العارفون على استحسانه في مختلف الاقطار ، ولكن اللجنة العليا ومؤازريها يتغلبون على هذه المصاعب باطالة البحث واجادة النظر . ثم يقرون ما لا مناص من ذكره من الاسماء العلمية والاوزاع الفنية بما لا يخرجون فيه عن روح اللغة . ويختار للمؤازرة في هذه العلوم خاصة من درسوها زمناً وعرفوا شيئاً من مصطلحاتها وعانوها بالعمل والنظر . ويرجع من سبق لهم ان ألفوا فيها . وأثبتوا كفاءتهم بخوضهم غمارها طائفة من اعمارهم . واذا عمد بعضهم الى الترجمة عن اللغات الحية فيجب ان يجولوا موضوعاتهم في حلة عربية وبأسلوب لا تظهر عليه آثار النقل والاحتذاء فتكتب كأنها مؤلفة مباشرة بسلاسة تجب مطالعتها حتى الى من لم يحظه الحظ بتعلمها .

اما ما يتعلق بالبلاد والرجال والتاريخ والشعوب فهذا يقسم الى قسمين . قسم يتوخى فيه الايجاز ما أمكن ، وهو ما كان خاصاً بأمة بعيدة . وقسم خاص ببلاد العرب والاسلام ورجاله ، وهذا يتوسع فيه وان كان بعضه لم يدون ولم يجرر . وتجزأ البلاد العربية والاسلامية الى مناطق يتولى رئيس كل منطقة النظر في عامة ماله علاقة بمنطقته ويعاونه اناس يختارهم . فمصر والسودان والشام والعراق والهند وتونس والجزائر يعهد بالكلام على

بلدانها ورجالها الى رجالات معروفين من ابناءها . والخطب سهل في الأقطار التي كثر التدوين والتأليف فيها اكثر من غيرها لا يحتاج الا الى نظر سديد ومعرفة ما هو احق بالتدوين لانتفاع القاريء به .

أما سائر الأقطار كالحجاز واليمن ونجد والجزيرة وامارات سواحل شبه جزيرة العرب كعمان ومستقط ولحج وحضرموت والبحرين والكويت بل ومراكش وطرابلس وبرقة واواسط افريقية وزنجبار والحبشة والصومال وجاوى وصومطرا والاندلس وصقلية الخ فهذه يندب للبحث في كل قطر او اقطار منها عالم يبحث فيما تشتد الحاجة الى معرفته من احوالها ، كتاريخها وتقويمها وزراعتها وصنائعها وتجاريتها وآثارها وسكانها وحيوانها ونباتها وجيولوجيتها ومعادنها واقتصادياتها واخلاقها واديانها وغير ذلك . فان ما كتبه الافرنج والعرب الاقدمون فيها قد لا ينقع غلة ، ولكن يستأنس به بعض الشيء ولا يؤخذ من كل ما دون الا ما وافق ما ترمي اليه المعلمة .

وللكلام على تركيا وفارس ينتخب اناس لهم نوع وقوف عليهما : يستعينون بالباحثين من اهل العلم فيها ، اما سائر البلاد كأفغانستان وبنجالي والقوقاز وبلوجستان والصين والتبت فيعتمد على ترجمة ما كتب فيها باللغات المختلفة مع الاستعانة بنبهاء مفكرها ، وكذلك يقال عن جميع الشرق فإن الأخذ عن معلمات الغربيين قد يكفينا المؤونة بقليل من التعديل حسب حاجتنا . وحاجتنا ماسة الى التفصيل عن العرب وبلاد الاسلام والاختصار ما امكن في وصف بلدان الغرب ورجاله على ما تجري عليه كل امة في معلماتها . تعنى بالتأبين والحاملين من بنينا تترجم لهم وتفيض وتستقصي اكثر من عنايتها بالتوسع في الكلام على اعظم عظماء الشرق ممن اثروا اثرأ مذكوراً في العلم والاجتماع . فنحن نطيل اذاً فيما له صلة بالامة العربية ونوجز فيما هو قصي عنها .

لا يباشر بالطبع الامت الف وتفتح كل ما له مساس بالحرفين الأولين من حروف المعجم ، وذلك بعد ان تعرض عامة المقالات والابحاث على اللجنة العليا . تقر ما تقره منها وتنتقد ما فيه وجوه للنقد . ولها الحق ان تحذف

ما شاءت . واذا رأيت نقصاً في البحث ترجع في تقويمه الى رئيس ذلك الفرع . وتنشر المقالات بتواقيع كتابها ليمسوا مسؤولين عما حوت . وبديهي انها لا تحوي الا ما يشرف اسماءهم ، ويخلد في الناس ذكركم . ولا بأس بإصدار مجلة شهرية تدعى (مجلة المعلمة العربية) تنشر نموذجات من مقالات المعلمة قبل صدورها . وبذلك تعرض البحوث هذا الكتاب على انظار العارفين والناقدين . وتكون تلك النشرة بمثابة اعلان عن المعلمة وما يلزمها ويرد عليها من النقد والأخذ والرد . وتعدو اداة صالحة لنشر المعارف والآداب الصادرة من اقلام باحثين ناضجين . وتزين بصور من صور المعلمة على غاية من الاتقان تجلب النظر وتسم اشكلاً قد لا يتأتى للبيان ان يوفيهما حقها . حتى اذا انتهت المعلمة بجول الله يطرد اصدار هذه المعلمة كما كانت . ولكن تنقلب اجرائها الى موضوعات حديثة تسير العلم في ترقيه شهراً فشهراً اي تنشر ما حدث في فروع العلم والآداب على مثال مجلة لاروس المصورة الشهرية Larousse Mensuel illustré التي تصدر في باريس وتستدرك ما عساه فات المعلمة في طبعها الأولى من الابحاث ويتألف من اعداد كل سنتين او ثلاث سنين مجلد ملحق بالمعلمة .

ارجح أن تكون المعلمة في بناية خاصة خالية ، تستوعب ادارتها ومستودعاتها ومكاتبها وخزانة كتبها وهذه تجهز بأهم كتب المراجعة وأحدث أسفار العلم بالعربية والانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والاسبانية والبرتغالية واليونانية واللاتينية والفارسية والتركية وغيرها والأولى ان يشاد معهد المعلمة بالقرب من دار الكتب المصرية لتكون على مقربة من مخطوطاتها النادرة وامهات أسفارها ومصادرنا . ويمكن طبع المجلة والمعلمة في مطبعة دار الكتب المذكورة على أن تخصصها ببقعة معينة بحروفها وأدواتها .

أرى ان يكون الموظفون في المعلمة من أمناء السر والكتاب والمصححين والمحاسبين قليلاً عددهم ما أمكن ، أما المؤازرون ورؤساء الاقسام ومنهم اعضاء اللجنة العليا فتدفع لهم مكافآت تعينها اللجنة او

يوظف بعضهم على مثال موظفي الدولة ، والأولى ان يربط رؤساء الفروع
اعضاء اللجنة العليا بعقود رسمية لمدة ثلاث او اربع سنين .

ينظر في الابحاث الى جلالة موضوعها فالتأليف البسيط الذي يكتفى
فيه بالرجوع الى المدونات لا يكافأ صاحبه كالتأليف الصعب الذي قد
يضطر الباحث فيه الى الرحلة للبحث بنفسه . والترجمة والتعريب اقل
اجراً من الوضع والتأليف ولا يعتبر في اختيار المؤازرين الا الأثر الذي
اثروه في خدمة الادب وانتجته قرائحهم من الثمرات ، وكانوا بمن عانوا
التأليف والوضع زمنياً . لا جرم ان المشتغلين بالعلم على اختلاف ضروبه
يعرف بعضهم بعضاً حق المعرفة فليس من مصلحة الكفاة الممتازين الا ان
يحشروا في زميرهم اقراهم خدمة هذا العمل الشريف .

وما اخال انه يقل حجم هذه المعلة عن خمسين مجلداً يكسر كل واحد
منها على الف صفحة بالقطع الكامل لان تاريخ هذه الامة طويل واعمالها
كثيرة وبلادها او الاقطار التي خنق عليها علمها تحسب مساحتها بمئات الالوف
من الاميال ويعد رجالها بالالوف ، وما يخيل الي ايضاً ان عدد المؤازرين
فيها ينقص عن مائتي عالم واديب .

هذا ما يراه خادمكم العاجزيا مولاي وهناك تفصيلات لا تعرف أو لا يتأتى
البت فيها الا بعد الدخول في الموضوع والصعوبة تبدو اولاً في ترتيب العمل
ومتى جرى توزيعه على الاصول يسير سيراً متساوياً لا يدخله الخلل ،
واذا فرض تعذر نشر المجلد الاول من المعلة قبل سنة او سنتين فان
مجلداتها بعد ذلك تتابع بحيث ينشر كل سنة مجلدان على الاقل ، واني
على مثل اليقين ان مصر لا تتحمل سوى ثلاثة ارباع هذا العبء في نشر
هذه المعلة والربع الباقي تعاون في تأليفه ومادياته سائر الاقطار العربية
وربما جاز ان يطبع منها عشرون الف نسخة . هذا والمسؤول تعالى ان يوفقكم
الى ما فيه خير مصر والامة العربية سيدي المعظم .

دمشق في ١٤ نوفمبر ١٩٢٧

وقد كتب الاستاذ احمد فريد الرفاعي يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٢٧ امين

سر الوزير عبد الخالق ثروت باشا يشكرني باسم الوزير ويبلغني ان وزارة حكومته تستقبل مع عظيم التقدير اشتراكي في هذا العمل المتطلب جهوداً الخ . وعاد الوزير رحمه الله فكتب اليّ مباشرة يوم ١٩٢٨/٢/٤ وقال في جملة ما تفضل به ولا اشك في ان تلك المقترحات القيمة سيكون لها شأن كبير فيما سيتقرر في هذا المشروع . ومضت على ذلك سنين وذهبت وزارة عبد الخالق ثروت باشا وجاء غيرها وغيرها ولم ينفذ شيء في هذا الموضوع المهم . الا ان فريقاً من رجال العلم والأدب والقانون في مصر عادوا سنة ١٩٤٣ (١٣٦٢) والفوا عدة لجان لهذا الغرض وقالوا انهم يؤلفون دائرة معارف مصرية فقط ولم نفهم سر قولهم مصرية ولفظ العربية اولى واعم . فيرأس لجنة نظم الحكم والاقتصاد عبد الحميد بدوي باشا ولجنة الدين الاسلامي الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا ولجنة الدين المسيحي الدكتور جورج بك صبحي ولجنة الدين اليهودي الحاخام الاكبر حاجم ناحوم افندي ولجنة الهندسة عبد العزيز احمد بك ولجنة الآداب والفنون اعضاؤها هيكل باشا وطه حسين بك والاستاذ العقاد والعلوم ويرأسها الدكتور مصطفى مشرفة والقانون الدكتور عبد الرزاق السنهوري والزراعة الدكتور توفيق الحفناوي والتاريخ شفيق بك غربال واللجنة الاستشارية العليا لطفي السيد باشا . وقد مضى على البداية بهذا المشروع خمس سنين ولم يأتنا عنه خبر واطن تمر خمس وخمس ولا ينتج شيئاً لأن المقصد من هذا الاعلان الظهور ومن هؤلاء الاعضاء اكفأ علماء العصر ومنهم من لم يعرفوا الا من طريق وظائفهم ليس لهم كتاب ولا رسالة ولا اثر علمي يدل على اضطلاعهم بهذا الأمر ، وإذا كان مجمع فؤاد الأول للغة العربية لم ينشر إلى اليوم كراسة واحدة من معجم بسيط (الوسيط) ولا المعجم التاريخي واكثر اعضائه من العلماء الكفاة حقيقة فكيف يرجى ان يقوم اصحاب المعلة بهذا العمل الخطير . لا يؤخذ على المصري قلة علمه بل يؤخذ عليه فتور همته وقلة عمله .

٧٢٦١ - ١٩٢٨

٧٢٦١ - ٢٢ - ١٩٢٨

الارمن وارضهم

سألنا السيد ايبا من ادباء الارمن في دمشق ومن العارفين بتاريخ هذا الشعب لماذا لم يتعرب الأرمن على عهد الحكم العربي وتتركوا على عهد الحكم التركي فأجابنا : إن فتح العرب إرمينية لم يشبه فتحهم الشام والعراق فقد كان مقامهم فيها أشبه باحتلال عسكري احترموا فيه دين المغلوبين من الأرمن ومنحوا امراءهم امتيازات تمتعوا بها وما نزل بين الأرمن جمهور كبير من العرب ، وربما كان ذلك فراراً من برودة جو ارمينية ولاختلافهم عن اهلها في عقليتهم . ذلك لأن الأرمن من عنصر آري ولغتهم من فروع اللغات الهندية الاوربية ، والعرب ساميون . وربما كان هذا السبب الذي اهاب بالفرس والأكراد أن يدينوا بالاسلام دون أن يصبحوا عرباً بلسانهم . ثم إن الأرمن في الفتح الاسلامي كانوا في دور ارتقاءهم في التهذيب والوطنية وكان في رجال دينهم علماء متشبعون بروح القومية فقاوموا الفاتحين وما اراد هؤلاء أن يُسلموهم بالقوة وكثيراً ما كان الأرمن حلفاء خلفاء بغداد ولطالما عاونوا العباسيين معاونة عسكرية فاستطاع الأرمن بذلك أن يؤسسوا مملكة زاهرة بأدائها ولم يخرج أحد عن شخصاته خلا من هاجروا من إرمينية الى العراق والشام ومصر ، وتعلموا التركية ايام الحكم العثماني وكان قاسياً عليهم . ومع هذا لم يصل الاتراك الى روح الأرمن لانحطاطهم عنهم من حيث العنصر والرقى الادبي وما امتزج الارمن بالترك كما امتزج الروم إلا بقوة السيف ولكن السواد الأعظم منهم لم تسر التركية إليه . وما نسي الأرمن من لسانهم جملة واحدة فان في ثلاثة ملايين من مجموعهم في العالم ثلاثمائة الف فقط يتكلمون التركية في بيوتهم وهم سكان سهول قيلقية واواسط آسيا الصغرى أما سكان نجد إرمينية فلم يتتركوا كما تترك الروم في تلك السهول ونسوا لغتهم . واذا كان جميع الارمن في تركيا يتكلمون التركية فليس معنى

ذلك انهم لا يتكلمون لغتهم بينهم . وليس هذا شأن الأرمن فقط بل شأن غيرهم من العناصر فان الاتراك والاكراد والآشوريين النازلين في جبال ارمينية يتكلمون بالارمنية ، واولاد الأرمن الذين يتكلمون بالتركية يمارسون اليوم لسانهم الأصلي ممارسة حسنة بحيث لا يجري الحديث بغير الأرمنية في الاجتماعات العامة اما قول من يقول ان الأرمن اختاروا اللاتينية على عهد الصليبيين فهو من الأغلاط التاريخية ذلك لأن الصليبيين لما وصلوا الى الشرق كان للأرمن حكومة مستقلة في قيليقية اسمها ارمينية الصغرى عاونت الصليبيين على مقاصدهم حتى إذا رأى الأرمن ان نفوذ اللاتين اخذ ينبسط عليهم قاوموهم فما استطاع الصليبيون ان يدخلوا الارمن الكنيسة الكاثوليكية على نحو ما فعلوا مع الموارنة فمن ثم كان الارمن حلفاء الصليبيين لارعاياهم . وعلى كل فاللغة الارمنية لم يحتفظ بها اهلهم إلا في ارضهم اه . ويزاد عليه ان السلجوقيين الاتراك قضوا في النصف من القرن الخامس على ارمينية ونشروا فيها لغتهم قبل الاتراك العثمانيين ، والعهد التركي والحالة هذه في ارمينية اطول من العهد العربي .

اشرت الى هذا بمناسبة رحيل بعض الأرمن الذين كانوا اعتصموا بالشام بعد الحرب العالمية الاولى ولقوا من حكومتها ومن اهلها كل عطف ورعاية وبمناسبة معاملتهم لنا يوم رحيلهم ينادون من قلوبهم مناداة المقر بالجميل آسفين على مغادرة ديارنا وان كانوا ذاهبين الى مملكتهم الجديدة « وعاصمتها تفليس » نعم لقي الأرمن من الكثرة الغامرة ما عرف به العربي من كرم النفس ورعاية الغريب فعدوا الشام وطنهم الثاني ومنهم من اغتنى في ارضنا بكده وجدده فما حسدناهم ولا مننا عليهم ، وشعب ذكي من مثل الشعب الارمني لا يسعه ان ينكر الجميل والأرمني مهما كان من التباين بين حضارتنا وحضارته هو شرقي ويفاخر مثلنا بشرقيته .

مسامحة صديقيين

كُتبت في مجلة الرسالة نقداً خفيفاً لكتاب قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لصديقنا الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي عليه الرحمة فشق على بعض تلاميذه ومريديه كلامي واكبروا الأمر حتى استكتبوا صديقي العلامة الامير شكيب ارسلان نبذة في الرد على نقدي . وأراد بعض الشبان ان يحمي وطيس المناقشة بين الصديقين المتناظرين ليشهدا صراع شيخين طاعنين في السن ، ولكن الامير كان رحمه الله من اعرف الناس بحقوق الاخاء فكتب جملة على جوابي وانا اكتب جملة على جوابه اوردهما بنصهما هنا نموذجاً من مساجلات كنت ابدأ ابتعد عنها لئلا اضيع وقتي ووقت الناس في مناقشات قد تؤدي الى مهاترات تسمج ولا تستمخ .

وهاك كلامي الذي بنى عليه الأمير عفا الله عنه نقده :

يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهي : إما شيء لم يسبق اليه فيخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، أو شيء مغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره ، دون ان يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء اخطأ فيه مصنفه فيصلحه . قال : وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق اليه الا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شيء كان معضلاً ، او جمعه إن كان مفرقاً ، او شرحه إن كان غامضاً ، او حسن نظم وتأليف ، او اسقاط حشو وتطويل اه .

وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه في التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط ، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات في علوم الحديث ونسقه وجود النقل ، ولا يسكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولاً . فقد نقل في اول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب في اربعمائة صفحة) من اقوال القدماء ، ثم اثبت له رأياً واحداً سبق اليه (ص ١٠١) رجع فيه رأي

الجلال الدواني على رأي الشهاب الحفاجي في عدم التسامح بالاحاديث الضعيفة ولو كانت في شيء من التوغيب والفضائل .

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات ، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف ، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ، قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب الى آخره ، ينقل عن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم ، كما اخذ عن بعض المتصوفة ومجدهم ، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ، ونقل عن مجالات غاضاً النظر عن ذكر اسمائها ترفعاً على ما يظهر . وكان هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً في هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات في صورة مؤلف .

وكانت طريقة التأليف في عهد الارتقاء العلمي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهد ، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السيوطي أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وقل أن تجد فيا جديداً للمؤلف ، وربما كان الشيخ القاسمي رحمه الله ، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى في اكثر تأليفه ببسط آراء غيره .

أما طريقة التأليف اليوم فالإيجاز من دون إخلال بالمعاني ، وادماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل ، وإذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار إليها جملة واحدة ، حتى لا يضيع على القارئ وقته وتملاً صفحات بلا داع ، وعلى هذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا في موضوعات اسلامية او عربية ، تمثلوا ما وضعوه من المباحث اولا ثم كتبوه في صحف لتنشر ، مقتصرين على لباب ما قرأوا في موضوعهم ، عازين ما لا بد من عزوه لاصحابه تدعيماً لأقوالهم من كتب القدماء او المحدثين بأسلوب سهل سائق خال من الخطايات والسجع ، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية ، لاخلل في تضاعفها ولا شقوق ، وهم اذا اقتبسوا اقتصروا على

لحل الشاهد ، واعرضوا عن باقي ما قال المقتبس منه ، لأن الكتاب ليس بكثرة اوراقه ، بل بما حوى بين دفتيه ، وكم من كتب للسلف وفت ورفاتها المعدودة بأكثر مما تفي المجلدات . وقد رأينا الكتب المنقحة عاشت اكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته . فكتب الأمير شكيب ارسلان الجواب التالي :

اطلعت في مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الاستاذ العلامة محمد بك كرد علي ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الاستاذ الشيخ جمال القاسمي بأنه كتاب قد جمع جمعاً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأي واحد وهو ترجيح قول الجلال الدواني على قول الشهاب الحفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت في مقام الترغيب في الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف في عهد الارتقاء العلمي هي أن يأتي كلام المؤلف اكثر من شواهد ، وانه لما ضعفت ملكة التأليف اصبحت الكتب عبارة عن نسخ اقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمي آخر من جرى على هذه الطريقة وهي بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت في التأليف طريقة جديدة اليوم وهي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ويدعم اقواله بشواهد من كتب القدماء او المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطايات والسجع . فالاستاذ كرد علي ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة انه ليس على طريقة التأليف العصرية التي هي بزعمه الاكتفاء بالإشارة الى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء في سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكان الأستاذ كرد علي يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلمي والتي أذكر فيها ما اعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله .

وبعبارة أخرى قد ثقل على اخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد علي جعل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن ان أكون أسأت فهم كلامه . فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، ومن سار ذكر فضائلهم في الآفاق ، وليس محمد بك كرد علي بالذي يجهل ذلك أو يقدر ان يماري فيه ، وإني لجد مستغرب منه ضيق صدره بتناي على رجل لا يتأري اثنان في دهشق الشام في كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دهشق في كل مقام مباهاة .

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمي إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان اخونا كرد علي يسمي ذلك « تمجيداً » فان التمجيد في محله لا يكون موضع نقد ، فان لم يمجّد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمي في علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذي يستحق النقد . ما كنت أحب أن يغمز الأخ كرد علي بي في مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فان الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار اليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال انه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية ، ونظن ان السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إنني أنا والأخ كرد علي لا نقدر أن نتكلم في علم الحديث اذا كان السيد رشيد رضا قد تلفف فيه كرة البحث .

وبعد هذا فلست أرى ما يرواه الأخ من أن القاسمي جمع جمعاً ، وان الجمع في التأليف هو خطوة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع في كل من عهدي التقدم والتأخر . وفي أوروبا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتروكون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح

والتجريح لاختلاف ادواق من مخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قاريء قادراً ان يستقي من هذا الجمع ما يستعذبه . فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدي النبوي ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً الى كلام الشعراي والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين في هذا الكتاب طلبتهم . وقد نسي أخونا الأستاذ كرد علي محنة الشيخ جمال القاسمي عام ١٣١٣ عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقها واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنباها يتجنب الحوض فيما يؤدي به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهي الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل في كونها على حق إلى يوم القيامة . ففي بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عندما يكون العالم الحبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هي في جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدي النبوي لايتأتى بالتجريح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا في المسائل التي لاختلاف فيها بين العلماء والتي إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان يؤتى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الاطراء كله وهو في علم الحديث الجبل الذي لايطاول والبحر الذي لايساجل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة كرد علي . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخر كرد علي وحده الذي بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الاصحاب اطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لبحث فيه كلاماً يشبه أن يكون استغفاراً للسجع او استكباراً لأنبائه ، وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا

الآن أن ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفي بالقول إن السجع وُجد في الجاهلية وجاءت منه امثلة لأفصح فصحاءها ، ثم جاء في القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو ابلغ الكلام العربي وغير العربي ، وجاء في كلام الصحابة والمخضرمين ثم في الطبقة التي تليهم ، ثم في التي تليهم ثم في التي تليهم الى يومنا هذا .

ولم نعلم احداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة الى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب ، أي إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييداً بقوافٍ فلم يكن السجع مستحسناً في المواطن التي يجب ان ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعاني على وجهها ، وأما في المواطن التي هي اقرب الى الشعر منها الى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذي يُعدسبته على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة ، وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من اجل كونه طريقة قديمة ومن اجل انه عبارة عن زينة كلامية فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر ايضاً ، فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هي ايضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج اليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية ، والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد ايضاً بقيود لها مواقع في النفوس ، وهي في محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر احد ان يقول إنني انا مفرط في هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل اكثر مما لي ، ولكني لا ازال ارى السجع حليلة الكلام العربي عندما يكون في محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير ، وإن العرب قد اصطالحوا على السجع في اسماء الكتب ولم يخطئوا في ذلك لأن الكلام المسجع اعلق في الذهن من غيره . وعسى كلامي هذا يكون مقبولاً عند اخي الأستاذ كرد علي ،

ولا تتأثر به آصرة الاخاء القديم الذي بيننا والذي لا يمكن ان يطرأ عليه ما يوهنه مهما كان السبب ثقیلاً . فكيف اذا كان خفيفاً ، وإن ادري فقد يكون اراد ان يداعبني ، ولا تكون هذه اول مداعبة بيننا .

جنيف : شكيب ارسلان

فكتبت جواباً عليه ما نصه :

إلى صديقي العلامة الأمير شكيب ارسلان
نعم شق عليّ يا أخي أن تلقي دلوک في الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذي ماعده فيك من تأدبوا بأدبک ، وأكبروا عظمة بيانک . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبوت ، وإن كنت اطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير ، وجئت تعالي بكتاب ليس فيه من جديد ولا اسلوبه اسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده .

أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق ، لأنك في غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجاً إلى مصانعة الناس ، ولا نضبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ، وما إخالک إلا كتبت ما طلب منك في غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجري إلا فيما يصلح أن ينسب إلى احسانه ، وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاورواهم بالنقد الصحيح ، والافراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب ، والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج في زماننا ومن الأمانة للعلم والأدب أن يدل كل كاتب على مواضع الخطل من

كلامه ، لا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه في العيان ،
ولا يشول مهما نفضناه في الميزان .

واكتفي الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى
على أهل الأدب ، أن الجمال والقسام في العربي (؟) واحد ، وأن معنى
القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا
« الجمال القاسمي » الذي جاء اسماً على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقي
هو الجمال المعنوي ، لا الجمال الصوري ، الذي هو جمال زائل ، فالجمال
المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف : « ان الله جميل ويجب الجمال »
وعلى هذا يمكنني أن أقول إنه لم يعط أحد شرط الجمال المعنوي الذي يجب
الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال
الدين القاسمي الدمشقي ، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق ،
وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشغوف
حسه ، وذكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل
البلهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ،
ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهيد الكامل ، كانت يرى أنه لم
يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم
العبقرية ، لكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات
أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد ... الخ) .

بأبي أنت وامي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك
قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا احتكم إلا اليك . أهذا كلام
ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما
اغتفر صدور مثل هذا الكلام من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من
شيخ كتاب العرب لا ثم لا ! وحديث السجع أنت عرفت رأي فيه ،
ولعلك تذكر أنني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى
الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أسمي مطاف »

وقلت لك يؤمئذ إن القاريء مهما بلغ من ثقب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من اجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقرّظ من ترى تقرّظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده .

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تنقزز منه كصاحبك أبي إسحاق الصابي الذي افسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورضع واظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن استاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعد عمله هذا اكبر حسنة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ، ونرجو ان تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة واحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما اظنك تنكر عليّ ان رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، ارفع وامتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وابي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذلك المذهب المتكلف . واظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة ، ومن أجل انه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » - إن في قولك هذا مغالطة اظيفة ، وفي علمك أكرمك الله ان النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزويد والتكلف . لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي

نشرته بأخره ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « ... الذي لا اجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية اجمل من نشره في الأقطار ، وخير وصف الحسنة جلاؤها ، والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وانواع البديع ، وشققت في تحليته اصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ، كما اني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألاً عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه درأً نظيماً ، وأمراً عظيماً ، وديواناً تتأرجح ارجاؤه ندناً ولطياً ، لما خفى امره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه احد ممن له عينان .. » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « ... الذي لا اجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلاً ، ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه درأً نظيماً ، لما خفى امره .. » أليس هذا الايجاز أوقع في النفس ، واجمل في اداء المعنى ، وادعى إلى الأفهام من اسجاع تنقل على الطباع ونحن إنما نكتب لفهم ، لا لنعجم ونبهم . وبعد فمالنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في اقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا التوسيع والتسجيع ، ولا ذلك الضرب المستكره من انواع البديع .

فلم يجب الأمير شقيب بأكثر من الصفحة التالية وخاف لفرط أدبه أن يدون في هذا الحوار ما يفرح به احباب المطاعن اعداء السلام والوثام
جوابي لأخي محمد سيكون قصيراً كما تراه

إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث غوض من يعامه ، بل بقيت واقفاً على الشاطيء ، علي حين أت أخي

محمد كرد علي دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه ، وهو مع ذلك يقول إنني انا وياه لسنا من هذا العلم في ورد ولا صدر . فاذا كان الأمر كذلك فما كان احراه بأثر يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف ، وقد اطنب في وصفه مثل الأستاذ الاكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال : القول ما قالت حدام .

انا كان اكثر كلامي في محاسن الاستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي نغمده الله برحمته ، فان كنت لست من علماء الحديث فاني لست جاهلاً معرفة الرجال ، ولا مسلوباً مزية التمييز بينهم ، ولولا حسن فراستي ما كان الاستاذ كرد علي عظيماً في عيني ، وقد اخترته لأخائي منذ اثنتين وأربعين سنة .

اما السجع وما أدراك ما السجع ، فالكلام العربي ينقسم الى مرسل ومسجع ، وموزون مقفى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه اكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به اكثر تفاهم الناطقين بالضاد . والموزون المقفى هو الشعر الذي لا رونق للغات بدونه . والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف ان كتاب الله قد نزل بهذه الطريقة . وان نهج البلاغة وكثيراً من كلام افصح العرب هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والحوارزمي والصاحب والصائي والقاضي الفاضل وامثالهم انهم لم يحسنوا القول . فان كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب .

شكيب ارسلان

جنيف ١٠ جمادى الآخرة

الزواج بالاجنبيات

ما قلت بزواج العربي من امرأة غربية الجنس قط ، ولطالما نصحت لمن يرحلون إلى اوربا واميركا في طلب العلم أو المال الا يعتقدوا على الغربيات ، وأن يختاروا أمهات أولادهم من بنات جنسهم أو من الأجناس الشرقية الأخرى . وفي زواج الغربيات من الشعوب اللاتينية أو الانكلوسكسونية اخطار كثيرة لأن الزوجة الغربية تعد ذاتها أرقى من زوجها ، وتضمر في قرارة نفسها أن تحمله أبداً على ان يتبعها فيما تأمر به وينزل لها عن اكثر مشخصاته وقد ينشأ الخلاف ويزيد التجاني عندما تنفسيء سورة الحب التي تكون على أشدها في العروسين اول اقترانها ، وتظهر المباينات في الأخلاق والعادات كلما عتق الزواج ، فيعود كل من الزوجين إلى أخلاقه الموروثة ، ولا سيما عندما يرتفع التكلف بين الزوجين ، ويتجلى قانون الرجعة وعامل الوراثة ، فيصبح الزواج مريراً ويتعذر استمراره . والمرأة الغربية لا تطلب من زوجها الا ان يخضع لها خضوعاً أعمى ويتجرد من خصائصه ، فاذا ما رزق الزوجان ولداً كانت النوبة نوبة الأم ، لا تطمع الا في ان تطبعه بطابعها ، والولد يأخذ بالطبع من أمه أكثر من أبيه ، لأن مقامه معها أطول من مكثه مع أبيه ، فتنشئه على حبها وحب قومها ، وتزهد من طرف خفي بقومية أبيه ، وتضحك من دينه وعاداته ، فالتفاوت بين الشرقي والغربية كبير ، وبين الجنسين عندنا وعندهم من التباين ما بين الشرق والغرب .

قد تكبرُ العربي اذا نظرت اليه من بعيد حتى اذا اقتربت منه يتجلى لك على الأكثر أقل شأناً مما توهمته ، ويشدد هذا التفاوت إذا كان الزوج او الزوجة من اصل وضيع ، واختلاف الطبقة عامل كبير يؤدي الى التشاكس والتباين ، واغلب من يرضين من الغربيات بالزواج من الشرقيين يكن من طبقات متواضعة . ولقد شوهد من النساء الغربيات

من ظلمين أزواجين ، وشوهد العكس ، والفريق الأول أكثر عدداً .
ويقل التوفيق على كل حال في هذا النوع من الزواج كما يقل في الزواج
التجاري والسياسي .

وناقصة التربية من الغربيات يندر ان تروقها حالة اهل زوجها ، تضحك
من كل مصطلح لهم ، وتحتقرهم وما اعتادوه من عادات ، وتربأ بنفسها
عن مساكنتهم ومعاشرتهم ، وان رضوا ان يكونوا لها شبه خادمات
حرصاً منهم على خاطر ابنهم . وقد يكونون في مجتمعهم أرقى طبقة
منها في مجتمعها ، ويكونون ممن نعموا بالرفاهة وسعة العيش ، وعلى
جانب من التهذيب والرفقة . قد يتظاهر من يتزوج هذا الزواج بانهم
سعداء في زواجهم ويكتمون أمرهم ويعتصمون بالصبر على ما جنوه على
انفسهم وعلى بيتهم حتى لا يشمت بهم اهلهم وجيرانهم .

اما مشكلة الأولاد وهي اعظم مشكلة في هذا الباب فالغالب أن
هذا الزواج ينقلهم الى اهل امهم فيزيد عددهم ويكثر سوادهم ، ويفقد
اهل الزوج ذريتهم او يفسدونها ، ويكون الشأن في ذلك شأن من يتقن
لغة اجنبية وينسى لغته ، فيزيد اهل اللغة التي التحق بهم متكلماً آخر
بلغتهم . وقد تحن المرأة بعد سنين إلى بلادها فتكره زوجها على اللحاق
بها او تطلب اليه ان يطلقها ويأخذ اولاده ، واذا كان تاجراً ممولاً تصبح
امواله من حظ اهل زوجه . وهناك خسارتان عظيمتان خسارة الأولاد
بنقلهم الى أمة أخرى ، وخسارة المال الذي يكون قد جناه الزوج من
ارض أمته . هذه مسائل من البدييات لم آت بها بجديد ، وأريد من
اثباتها هنا ان يدرك شباننا فقط أنهم يجنون على أمتهم اذا هم ادخلوا
البنات الغربيات الى بيوتهم وخلطوهن بأسرتهم .

قد يستغرب تنفييري من الزواج بالاجنبيات في زمن خف فيه التعصب
وتحلل الناس او كادوا من العصبية ، والشرع قد اباح الزواج بغير المسلمات
وتساهل في هذه السبيل بما لم يعهد مثله قبل الاسلام في ملة من الملل .

روي عن رسول الله قوله اغتربوا لا تزوجوا اي تزوجوا في الأبعد لئلا يأتي اولادكم ضعافاً اذا تزوجتم بالاقارب .
قد يأتي النسل من أبوين مختلفين في الجنس اقوى من نسل من عنصر واحد ، ومع هذا كانت امير المؤمنين عمر بن الخطاب يستنكر الزواج بغير العربيات ودعا الله الا يريه ابناء الفارسيات . وكان يرى ابعاد العرب عن الزواج من الروميات لأن في بنات الروم خلافة . وفي كل هذا اشارة الى مبلغ حرص العرب على قوميتهم وتوجسهم خيفة من تبلبل بيوتهم بدخول غير العربيات فيها .

كانت العرب في القرون الأولى تجاهر بانها تفضل من كانت أمه عربية ، حتى ان بني العباس لما اخذوا الملك من بني أمية لم يبايعوا المنصور على جلالة قدره في السياسة والعلم وتقدمه في الميلاد وبايعوا لأخيه السفاح لأنه من أم عربية وأخوه ابن أمة ، هذا والعباسيون في صدد تأسيس ملكهم وهم في اشد الحاجة الى ان يتولى امرهم اعظم رجالهم . وما منع مسلمة بن عبد الملك الأموي من الوصول الى الخلافة الا كونه ابن أمة ، وكان فيه من الصفات الغر ما عز نظيره في الأمويين ، على كثرة النبغاء في رجالهم ، وكان من الجمع عليه انه يمتاز عن اولاد أبيه كثيراً وهم ما هم بسياستهم وادارتهم وعلمهم .

ان دعونا اليوم الى التزهيد بزواج ابنائنا من الغريبات فذلك لأننا نعيش في عصر القوميات الذي بدا في القرن الماضي وقوي في هذا القرن قوة هان معها على الغريبيين ان يقتلوا ابناء دينهم في سبيل قوميتهم . والغريبيون اليوم ينظرون بعين الريبة الى كل مواطن لهم اختار امرأته من غير جنسهم ، ويحظر ذلك على عمال الحكومة وخصوصاً رجال السلك السياسي فمن تزوج من غير جنسه تنبذه الدولة . وقد كان بسهارك السياسي المشهور سن قانوناً يحظر فيه على ضباط الألمان الزواج من النساء البولونيات لان البولونية تصنع اولادها بصبغتها وفي ذلك الحيف على دولة جديدة تنشأ القوة من كل وجه .

استنصح بعض نبيه اليابان في القرن الماضي الفيلسوف الانكليزي سبنسر وسأله ان يضع لهم قواعد يجرون عليها في نهضتهم فمن جملة ما نصح لهم به نصيحة اشترط عليهم الا ينشروها إلا بعد موته . أندرون ماذا كانت نصيحته ؟ كانت ان يمتنع أبناء اليابان عن الزواج من الاجنبيات لانهم بتساحهم بادخال دم الغربيات في دمهم يفسدون جنسهم ، وهذه النصيحة يقل في اليابان عدد المتزوجين بالغربيات وعلى طريقتهم يجب ان تسيروا كل أمة تريد لابنائها المجد والعظمة .

المرأة العربية

في مصر والشام يكثر المتعلمات كل سنة بفضل المدارس الابتدائية والثانوية والعالية حتى كاد ما يصل اليه البنات من ضروب التعليم يوازي ما يعطى منه للبنين ، ولم يبق فرع من فروع العلم لم يشارك فيه النساء الا الفرع الديني لأن الديانين يتشددون في قبول المرأة الى مجالسهم ومدارسهم وجوامعهم ، ولأن تعلم الدين لا يعود على منتحلته من النساء بفائدة دنيوية . ذلك لأن جميع من يدرسون شباناً كانوا ام شابات لا يتعبون انفسهم بالدرس إلا توقعاً للمغانم والأرباح التي تنتظرهم بعد اتمام الدراسة ، وليس فيهم من يخرج الآن عن فنون ثلاثة الطب والحقوق والأدب على الغالب . وندر في النساء من يُعنين بالفروع التي خلقت لها وبرزن فيها كأمراض النساء والكيمياء والصناعات الزراعية والطبخ والحياطة وتدبير المنزل وتعليم الأطفال وتمريض المرضى ، فعلى وزارات المعارف أن تنظر في توجيه البنات نظراً جديداً ، فالحالة العقلية تتطور في كل عقد من عقود السنين .

من كان يظن ان النساء يُقبلن على العلم بهذا الشوق وهذه العناية ، بعد ان غفلن عن تلقفه قروناً ، ومنهن من يُسرّزن أكثر من الشبان

لأنهن ينصرفن كل الانصراف في بيوتهن الى الدرس والشبان يلعبون ويلهون ويضربون في الأحايين ، ويتظاهرون في الشوارع ، ويستغلون بالسياسة ، ويندججون في الأحزاب ، الى أشياء يأتونها في سن مبكرة فيضيعون جانباً من اوقاتهم مدة الدراسة .

ولقد شاهدت البيوت التي تعلم بناتها غير البيوت التي حرمت نعمة العلم والتهديب . وهذا ما حدا بعض الشبان على اختيار رفيقات حياتهم من هذا الطراز المصقول بالعلم الحديث والتربية العصرية . حتى ظهرت بصنعين امارات الحضارة على البيوت ، وشتان بين الجاهلة والعالمة . ومضى حَقَّت مراجعات طالبات التوظف في مدارس المعارف ، وتمت صفوف الموظفات منهن في مدارسها ودواوينها ، ينقلب القسم الزائد الى الاخضاء في فنون اخرى كاللجارة العالية والصناعات الدقيقة فيدرك القسم الآخر ان مستقبلهن مناط تجويد الفروع التي لا يستغنين عنها لادخال الكمال والجمال الى بيوتهن ، وتربية اولادهن تربية راقية لا يدخل فيها الكذب ولا الغش ولا السرقة ولا غير ذلك من مفسدات العقول وهادمات الممالك .

وكيف لا نعتبط أن رأينا منهن الى هذا جمهوراً من بنات الثلاثين والأربعين ممن لم يسعدهن الطالع بأخذ العلم الأولي ان يتوفرن على تلافي نقصهن فيتعلمن على الكبر القراءة والكتابة ، حتى يجارين العصر ولا يخجلهن جهلن أمام بنات جنسهن من المتعلمات . وكل هذا لم يكن له أثر في القرن الماضي ، فالمعارف اليوم تسير على أمرع ما يكون بالقياس الى ما عهدناه سابقاً من جهل البنات والبنين وان كان معدل المتعلمات اقل من معدل المتعلمين بكثير والأيام كفيلة بتعديل هذا المقياس .

أما ما يلفظ به بعضهم من منح المرأة حقوقها السياسية فهو من لغو القول ، لا يجدي عليها خيراً ، ويعد سابقاً لأوانه ما دام عدد المتعلمات منهن قليلاً ، اذا قيس بما يجب ان يكون ، ثم أي حقوق للمرأة في الشرق العربي والمرأة الغربية ، على تفوقها المشهور في كل فروع الحياة ، لم تحصل على الثمرة التي كانت تتوقعها من الاستمتاع بحقوقها السياسية .

ومن يتذرعون بمنح المرأة الحقوق التي يجيل اليها انها تنفعها وتخرجها من سلطان الرجل الجائر هم من يصانعونها ويعبثون بمصلحتها الحقيقية ، ذلك لأنهم يذهبون مذاهب لا يدركون مغبتها على البيوت ، فالمرأة لم تخلق لهذا ، وقد جرب الغربيون قبلنا ، وهم في ابواب العلم أرقى منا بقرن واحد على الأقل ، فما اسفرت تجاربهم الا عن اضطراب وفوضى ، وكان من أثر هذا العمل الطائش اخراج المرأة عندهم عما خصتها الفطرة به ويتعذر تعدي حدوده مها طالبت المرأة وشاغت .

وبعد ان ثبت ان في فطرة النساء نقصاً طبيعياً كيف يرضى لها انصارها أن تغادر البيت لتغدو نائبة في مجلس النواب ووزيرة في مجلس الوزراء او قاضية في المحاكم أو مديرة في الدواوين . تولى بعض النساء هذه الأعمال في شمالي اوربا وفي الولايات المتحدة ومعظم سكان هذه الدول من العنصر الانكليزي السكسوني ارقى عناصر الأرض ، فأى نفع تم لمجتمعهم على ايديهن ، اللهم الا اذا كانت الرواتب التي يتقاضينها والألقاب التي يلقبن بها . كل قانون غير قانون الطبيعة تنسخه الأيام ولا تبقى على غير المعقول والأنسب . شارك النساء الرجال في الحرب الحاضرة ، فهل سعدن وسعدت اوطانهم بهذه الخدمة ؟ وهل كانت الفضيلة يا ترى اكثر فشواً من الرذيلة في هذا الاختلاط القسري بين الجنسين ؟ لو كنتم تستمعون الى ما يقوله علماء الأخلاق وغيرهم عند الغربيين لثفرتم اي نفرة من كل من يريد الظهور على حساب المرأة المسكينة يغشها فيما يزين لها من مظاهر جديدة ، وهي ما خلقت لها بحال من الأحوال .

الشيوعية في الشرق

لما انتشر المذهب الشيوعي في روسيا حدثني حب الاطلاع على قراءة بضعة كتب عنه باللغة الفرنسية فتراءى لي ان بعض المؤلفين كانوا يزيفونه بلباقة ، وبعضهم يزينونه باعتدال ، وفيهم من ججم ولم يصرح ، ومنهم من نقل ما ظهر من آثار القوة في ارض الشيوعية بعد دولة القياصرة امثال هريو من ساسة فرنسا فانه اكتفى في كتابه (المشرق Orient) بوصف ما قامت به روسيا في عهد الشيوعية من الجهود ، وشرح مواطن القوة ليستخرج من ذلك ما يقفه على تلك النهضة الصناعية والحربية .

وتلخص معي مما كتبه الشيوعيون وأنصارهم بعد ان دخل التعديل في قانون لينين على عهد ستالين ان الشيوعية نظام يتعذر تطبيقه على جميع الشعوب ، فيه ما تشترك عامة الامم في الانتفاع به ، وفيه ما هو ظاهر الخطر قليل الجدوى ، مثل استئثار الحكومة بتربية ابناء الامة واخذ كل مال في الايدي لخزانة الدولة . وهذه تعول الناس تعطيهم غذاءهم بمقدار وتترك لهم حرياتهم في انتحال ما يريدون من دين ومذهب .

وسواء صح حكمي هذا ام لم يصح فان روسيا الشيوعية تحرص كل الحرص على اخفاء اسرار بلادها ، لا تبيع لرعاياها ان يغادروا ديارهم ولا للاجانب ان ينزلوها احراراً مطلقين ، وهذا مما يشعر بأن هنالك اشياء لا يستحسن القائمون بالأمر في روسيا ان يعرفها أحد ، ولا ان يطلع عليها شعبهم ، منها ان في ارضهم اربعة عشر مليوناً من المعتقلين والمعتقلات - كما قال روسي مطلع - تسخرهم في أعمالها افطع سخرة .

تهمني الشيوعية او البلشفية من حيث تأثيرها في وطني خاصة والأقطار الاسلامية عامة ، ويبدو خلل الشيوعية في تطبيقها على من ليس لهم الاستعداد لقبولها ، ولا تلائم مزاجهم واخلاقهم ودينهم وبيئتهم عندما

تعود الأمور إلى طبيعتها ، وتبطل الدعاية الواسعة المنتظمة للمذهب الشيوعي يعرف النافع منه والضار على حقيقته .

أنا لا أخاف على الشام من الشيوعية لأن من ملكوا عدة قرى ليسوا كثيرين فيها ، وإذا جرى توزيع أملاك كبار المزارعين وحددت الملكية وعني بالاستكثار من الملكية الصغيرة ، يعود أبناءهم وذرايعهم إلى حالة متوسطة مقبولة من الغنى . وقد أحس الممولون من التجار بالخطر من تضخم الثروات فنزل بعضهم من تلقاء أنفسهم عن جزء من ثرواتهم شاركوا فيه الفقير والبائس ، وان ما أخشى الشيوعية عليه مصر والعراق خاصة لأن توزيع الثروة غير عادل فيها ، ذلك لأن كبار المالكين يزيد ما يملكون عاماً فعاماً ، وحصص الفلاحين من الأرض في تناقص مستمر ، ومصر على ما بلغت من مكانة في الأنظمة والتنظيم إذا دخل فيها القانون الشيوعي بدلها رأساً على عقب . ومتى انحلت مسألة الزراعات الكبرى وجرى امتلاك الأرض على قانون معقول يندفع العامل الأول الذي يرغب بعضهم في المذهب الشيوعي ، فلا يتروى في احضانه الجهلاء نكابة بالأغنياء .

أنا أومن بالقوانين الطبيعية في تدبير هذا الكون وأوقن أنا مهما غيرنا نظماً واختراعنا شرائع لتسعد العالم بأجمعهم لا مناص من أن يكون في الخلق الغني والفقير والمتوسط ، وذلك لتباين القوى ، واختلاف العقول ، ودرجات السعي ، ومن المتحتم اجراء تعديل عظيم لرفع مستوى المعيشة في الطبقات الفقيرة ، ولا غنية أيضاً عن تحديد ثروات الأغنياء بطريقة من الطرق التي تستخدمها الحكومات ، وأخذ الفضل من أموال من ضخمت ثرواتهم لتصرفه في مرافقها العامة .

قويت الدعوة الى الشيوعية في الشرق والغرب على العهد الاخير وآخر ما قرأته في مجلة لاروس (حزيران ١٩٤٨) انه يمكن الحكومة السوفيتية ان تدعو كل وطني الى أي عمل تراه يناسبه حتى ولو ساقته الى التفرقة في أقصى حدود بلاده وبذلك قامت مشاريع كثيرة في تلك الديار مثل ترعة البلطيق والبحر الابيض على أيدي كتائب من المجرمين السياسيين

وقدماء أغنياء الفلاحين بمن صودروا واغتربوا وهم يعدون بمئات الألوف ، أو بملايين ، عملوا مع المجرمين العاديين جنباً لجنب . وقامت أعمال أخرى بأيدي فلاحين أو عملة سُخِّروا في أشغال شاقة على نحو ما كان الفلاح المسكين يُسَخَّرُ في روسيا على عهد بطرس الأكبر ، وتحدثت المجلة عن الظلم الذي يلحق كل روسي .

وفي روسيا يحرم الاضراب والاعتصاب على العمال ويؤكد المستر مالوني الذي كان وزيراً مفوضاً لاوستراليا في موسكو أن لمديري المصانع ورؤساء العمال الحق في أن يقتلوا في بعض الأحوال رمية بالرصاص العامل الذي يصل متأخراً والعامل الذي يتكرر تغيبه عن العمل بدون عذر مقبول وإذا مست الرحمة قلب مدير المصنع أو رئيس العمال فله أن يخفف عقاب العامل بسجنه أو بنفيه الى سيبيريا ، وفي جريدة أخبار اليوم بقلم الاستاذ محمد التابعى (عدد ٢٢٧) انه يبلغ عدد أعضاء الحزب البلشفي نحو مليونين من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم نحو مائتي مليون أي أن نسبة واحد بللثة يحكم ٩٩ من السكان والناخبون ملزمون باعطاء أصواتهم للمرشح الواحد ومن لا ينتخب يسجن أو يحرم بطاقة التموين . ويمنع عن الروسي السفر الى الخارج وقراءة الصحف الاجنبية والاستماع الى محطات الاذاعات الاجنبية .

وبعد فإذا نظرنا الى المذهب الشيوعي وما عاد على روسيا من فوائده نشهد أنه أصبح عقيدة لاهلها كان منها أن وقفوا في الحرب الاخيرة موقفهم المحمود في وجوه أعدائهم فأحسنوا أمتهم اكثر من آباؤهم في الحرب العالمية الأولى وكانوا فيها يستسلمون في ساحات الوغى بعشرات الألوف .

فوضى المجتمع

في اليوم الذي يعرف هذا الشرق قدر الوقت ينتقل خطوة أخرى في معارج التقدم ، وفي اليوم الذي يرغب عن الفوضى ويولع بالنظام يعد ذا قيمة في مجموعة الشعوب ، وما زال الشرق دون الممالك الانكلوسكسونية بنظامه لأن كل أولئك دخل على أهل تلك الممالك وأصبح عادة مستحكمة فيهم ، حدث ان اراد المجمع العلمي العربي اقامة حفلة تأبين لأمير الشعراء أحمد شوقي . تحت رعاية أول رئيس للجمهورية السورية السيد محمد علي العابد صديق الشاعر أيام الطلب ، فلما حانت ساعة افتتاح الحفلة وتأخر الرئيس أوعزت الى القاريء ان يقرأ ، وللخطباء ان يتقدموا ويلقوا خطبهم حسب البرنامج المقرر . وجاء الرئيس بعد ربع ساعة من الوقت المعين وفهمت ان امين السر ادعى للرئيس أن الكبراء في العادة يشخصون الى الدعوات عندما يتكامل الحشد ، فقلت للرئيس أنا أرى أن تكون فخامتك المثل المقتدى به في المحافظة على الاوقات ، وقاعدة تخلف الكبراء عن الوقت المحدود تزيدنا فوضى الى فوضانا ، ونحن نبغى أن نقضي على هذه الفوضى . لشد ما امتعضت من تسامح قومي في المواعيد ، وكنت كثيراً ما أسمعهم أشد البقرع . (راجع الفصل الذي عقدته للكلام على نظامنا في كتاب اقوالنا وأفعالنا)

مستوفى

بها:

من البيوت من لا ترى الشرف إلا في خدمة الدولة القائمة لا حيناً
لبنيتها العيش إلا إذا تحطوا رقاب ارباب الكفاءات فقبضوا على عمل سيان
عندهم أكانوا احرياء بتقلده أم كانوا وسطاً فيه أو دون الوسط . ويزيد
في جرأتهم على أخذ ما ليس لهم دعواهم أنهم من اهل بيت جاء منه
فلان الفقيه وفلان العامل وفلان الجندي كأن هؤلاء كانوا طرازاً عجبياً
من النوابغ والحكماء ، وهم أشبال أولئك الأسود ، وما هم إلا كأجدادهم
ولو كان اجدادهم لا يعقلون شيئاً ولا يبتدون .

عاصرت من هذا القبيل جماعات « تخطي إذا جئت في استفهامها بمن »
كما قال المتنبي : كانوا من الجهالة بمكان مخجل ، ومن فساد الذمة المثل
المضروب ، لا يهتمون بغير مظاهرهم ، وليس لهم ما يؤهلهم للحكم
إلا دعوى شرف السابقة ، ولا من ادوات الاقدام على ما يقدمون عليه إلا
النفاق لصاحب الأمر ، ومن تعلم منهم بعض التافه من العلم خرج نصف
جاهل ، وأنت إذا خاطبت أحدهم ، فكأنك تخاطب محبواً لا يفهم
ما يقول ولا ما يقال له ، ولو كنت ممن يحسنون الظن وذهبت بادىء الرأي
إلى أن عقل صاحبك هذا صحيح لا تلبث اذا احدقت النظر في عينيه
وتدبرت ما بيدر على لسانه أنه من فئة يجب تسجيل اسمها في سجل مستشفى
المجازيب ، وتستغرب كيف وصل المرتبة التي بلغها وقد تكون كبيرة
جداً ، وكان من حقه أن يكون خادماً أو اجيراً ، ورب خادم فاق
سيده بذكائه وعقله .

ومثل هؤلاء الناقصين يعوضون ما ينقصهم من عقل بالمظهر الذي كتب
لهم أن يقفروا إليه ، والعمل الذي يقبضون على زمامه . ولكل منصب
في الحكم روعة تزيد وتنقص بقدر ما يدهن أرباب المصالح للقائم عليه .

وما جرت العادة أن يجاسب الناس كل انسان على ما يبدو من حركاته وسكناته ، ولا أن يؤاخذوه عن بلاهته . والأبله مع هذا حرب على ارباب العقل ويتأذى بهم ، لأنه يجب أن يبلي ارادته العوجاء لا أن تُملى عليه إرادة .

وكم أصدر من تسلموا إلى الوظائف الكبرى أحكامهم على ما لا يعرفون وباهوا بما صدر عنهم ، ولو كانت اقوالهم مما يخالف الحق والعدل ، وبعض اصحاب هذه الآراء السخيفة لا يعدمون أناساً من الجبهة يوافقونهم على آرائهم ، ويكثر مثل هؤلاء المبشرين بالتدني ، المنكرين فضل العلم ، في جماعة يتوقعون مما يندفعون إلى التصريح به إرضاء شخص او حزب ولو كانت بمثل هذه السخافات تدار الحكومات ما قام عمل نافع في بلد من البلدان . وياليت ما ينوه به بعض هؤلاء النوكي من الآراء يسجل في آلة كآلة الحايكي إذاً لكان منها قصص تضحك وتسلي طلاب الدعاية .

عاش الشرق المنكوب الى اليوم وبعض من يقدمون ويؤخرون في مقدراته من هذا الصنف الغريب في العقل ، يتمجد ابناؤه بأجدادهم الجبناء ومنهم من استثمروا أسماءهم الكبيرة ، وشرفهم المزعوم ، في معاونة بعض الدول على مقاصدها فجعلت منهم الامراء والزعماء يأترون بكل ما تأمرهم به ، كأنهم بعض عمالها لا يججلون من انفسهم ولا من الناس ، وليس لهم من الصفات إلا انهم يرددون ما يُلقى اليهم مما فيه مصلحة سيدهم قبل كل شيء ، وهم يعيشون بما يفضل عليهم من أجر يدفع اليهم ثمن ميوعتهم وعبوديتهم .

قال لي رجل اختلط كثيراً بأحد ملوك الشرق انه رآه لما أضاع ملكه أصبح كالطفل وضعف تفكيره ، فقلت له انه كان كذلك يوم كان له السلطان المطلق في أمته ، ولكن عيوبه كانت مستورة بالمنصب العظيم والقوة القاهرة . وقال لي آخر انا اذا أحسنا نقد رجالنا لا يبقى لنا من جميع من ملكوا رقاب المساهين في القرون الكثيرة أكثر من عشرة ملوك خدموا باخلاص ، وخلد

التاريخ ذكرهم بحق . والأخبار أقل عدداً من الأشرار في كل الأمصار والأعصار .

لما نشبت الفتنة العراقية بمصر كان قائم مقام الخديوي في القاهرة محمد سلطان باشا رئيس المجلس فاستأذن عليه بعض رجال الثورة ومنهم عرابي باشا ومحمود سامي باشا البارودي وغيرهما وطلبوا اليه ان يجمع المجلس ويقرر تنحيه الخديوي توفيق فقال لهم أنا معكم ولكن ألا يجب علينا اذا قرر المجلس تنحية الخديوي ان يعين شخصاً آخر مكانه قالوا لك ذلك ، واعتزلوا في ناحية وأخذوا يتفاوضون ساعات فلم يجمعوا على أمر ، ذلك لأن كل واحد منهم كان يحاول أن يوجه هذا المنصب اليه ، وكان جوابهم بعد مناقشات حادة : انا لم نتفق على شخص . فبعض من طمعوا في هذا المنصب الجليل في ذاك اليوم العصيب ماسلموا من بلاهة خصوصاً لما أخذوا يتفاخرون ويدي كل واحد بحججه التي تكسبه الأرجحية لتولي الأمر .

ومثل هذا حدث في الشام ايام ولايه الصدر الاعظم مدحت باشا عليها : جاءه بعض أعيان دمشق يشكون من رئيس بلديتها ويطعنون عليه ، فسأل الوالي أحد أصحابه رأيه قائلاً إن رؤساء القوم أتوني يتظلمون من أعمال رئيس البلدية فما ترى ان أقول لهم؟ قال قل لهم اذهبوا وتذاكروا بينكم حتى اذا اجتمعتم على واحد أمضي المرسوم بتعيينه في الحال ، فعادوا الى الوالي من الغد يقولون انهم لم يتفقوا على أحد فالأحسن بقاء الرئيس في منصبه ، ذلك لان كل واحد كان يحاول ان يستأثر بهذه الوظيفة وما قاموا لمقصد شريف ، وكانت البلاهة متجلية في حركاتهم ، والغرض بادياً في أقوالهم .

الحزب السوري

هذا بعض خطاب لنا يوم الاحتفال بتأسيس هذا الحزب على عهد الامير فيصل يوم ٤ تموز سنة ١٩٢٠ :

كان الناس في القديم محكومين لمن كثرا اتباعه وجنده هكذا كانت صورة الاحزاب في الدول العربية السالفة وهكذا كانت في رومية وآثينة وكان الناس في القرون الوسطى في اوربا بين ظالم ومظلوم وهذا ما حدا الى تأليف شبه احزاب تدفع عن نفسها ظلم المعتدي عليها وتتضامن فيما بينها فلم يكن يوماً ما يسمى اليوم بالوطنية ولا بالحق ولا بالحرية ، بل كان هنالك احلاف واسباع وطبقات اخرى متضاربة .

قالوا وللوصول الى قيام احزاب سياسية يجب ان تطلق للامة الحرية في بلوغ الغرض بدون استعمال الشدة ولا بد في كل اجتماع بشري من قيام حلف من الشعب يذهب الى الاحتفاظ بالحالة الحاضرة وآخر يرى تغييرها رأساً على عقب وغيره يقف موقف من لا يبالي بما يحدث . والحزب الحقيقي هو الذي ينشر دعوته بالطرق العادلة ويعيش في ظل الحرية مدفوعاً بعوامل المصلحة الأدبية اكثر من المصلحة المالية فالحزب لا ينبعث من مبدأ ولا من نظرية بل من مصلحة وكثيراً ما تكون هذه المصلحة معنوية أكثر منها مادية .

قال علماء السياسة لاجل ان يتيسر لجماعة من الناس تجمع بينهم المصلحة الواحدة والرأي المشترك ان يؤلفوا حزباً يكون عاملاً حقيقياً يجب أن يكون لهم رئيس او عدة رؤساء ويسود فيه النظام وتكون له صحف تردد افكاره . للحزب غاية ولاجل الوصول اليها يجب له دليل وكثيراً ما يكافح وحتى يقهر خصومه ينبغي ان يكون على شيء من القوة فريئس الحزب هو دليله وصلة الحزب ، ولا يتولى الرئاسة إلا لانه اثبت مدافع

وافصح مقول فيهم وعلى الرئيس ان لا يسيء استعمال الزعامة فان الخاضعين لقوله لم يخضعوا كالجندي خضوعاً اعمى بل كان رائدهم في خضوعهم ارادتهم المفكرة وعقولهم المقررة المدبرة ، الرئيس الذي يهمل امر مرؤوسيه يتوركه هؤلاء كالجند يتخلون عن قائدهم في معمعان الحرب ، وقالوا ان الجرائد ضرورية لقيام الاحزاب ليكون اتصال بين رأس الحزب واعضائه وليبشوا دعوته وافكاره ويجب على الحزب ان يرفع علمه على الرؤوس فاذا اخفاه من تلقاء نفسه كان كالمتنازل عن عرشه فاذا اكره على ذلك يزيد قوة فتشور العواطف وإذا ثارت اثرت وفعلت .

وذكروا ان الاغراض مها مزقت الاحزاب فان لهم جامعة واحدة وهي « الوطنية » فاذا دعا داعي الوطنية تنسى جميع الخاصات ، وبالْبؤس امة لا يكون هذا الشعور العالي متأصلاً في بنيتها فانها تكون اذ ذاك مريضة مرضاً شديداً . اما اذا كانت الاحزاب المعتدلة داخل البلاد تصدر عن الرأي العام وتتنافس كل المنافسة حباً بالخير العام فهي أشبه بمد البحر وجزره الذي لا يفيض فلا يخرب شيئاً ولكنه يعطي الاوقيانوس حياة وحرارة .

هذا ما قلته وقد تبين لي بالعمل ضعف استعدادنا للقيام بما تظلم به الاحزاب وايقنت أن معظم من دخلوا في هذا الحزب كان لمقاصد شخصية لهم ، ولذلك اعتزلت ألا ادخل بعد ذلك في حزب مها كانت الغاية منه .

مستحق

اصلاح الاخلاق

راينا عقلاء المصريين مستاءين من الحرية المفرطة التي نالها الناس في الدور الأخير من أيامها حتى لم يعد يوقر صغير كبيراً ولا يحترم كبير صغيراً وحتى كسر بعض الفتيان والفتيات القيود وأصبحوا بلا وزاع .

ساعد على ذلك اختلال نظام الاسر حتى ان الطفل ليتعلم مايشوه وجه الأدب (قبل ان يبلغ الخامسة من سنه) من والديه واتزابه وجيرانه واخوته واخواته وساعد ان انحلت الرابطة بين الحاكم والمحكوم عليهم فمأواه الاول موافقاً بحسب ذوقه أو نيته يجربه ولا يتوقف فيه وللبلاء عادات ولكل قطر آداب والمغلوب كما يقول ابن خلدون مولع ابدأً بالتشبه بالغالب لاعتقاده الكمال فيمن غلبه في الاغلب

وبديهي ان لكبار القوم اليد الطولى في اصلاح العادات وبالعكس ولكن بعض الكبراء الذين يرجى الخير على ايديهم مترفعون وبالأأسف عن مخالطة غير طبقتهم لأشتمزازهم من سخييف العادات وبعض أهل الطبقة العالية - وهم الحاكمون المتحكمون في العوائد وقدوة الطبقات السائرة - اخذوا القشور من عادات الافرنج وولعوا بها على اختلاف ضروبها . واتوا قومهم يعلمونهم اياها استطاعوا تلقيها أم لم يستطيعوا .

وبهذه الأسباب اصبحت عادات المصريين واهل المدن منهم خاصة مزيجاً من عادات الروم والأرمن والسوريين والترك والأرناؤط والطلليان والنمساويين والانكليز والفرنساويين . وتصور امة يدخل التغيير الى هذا المقدار في عاداتها كيف تصبح لاتعرف ولا توصف .

ويحق ما قال أحد الكتاب في تأليف له نشره منذ أشهر ان اختلاطنا بالأجانب أضر بنا أكثر مما نفع . على ان هذا الفكر لو قيل لرجل في الغرب لضحك منه واستبدل صاحبه ولكن متى شرحت له وعرفته اننا لم نلق معاشر

الشرقيين من الغربيين ما كان ينبغي لنا ان نلقاه عذر وصدق ذلك بان اختلاط امة باخرى يفيدها كثيراً ويوقف كلا منها على ما عند جارتها من أسباب ارتقاء فتتأسى بها وتحاول الجري على مثالها ولكن اختلاط الشرقيين والمصريين منهم خاصة بالغربيين لم يفدهم الا السرف والولوع بالزخرف والبهرج وهناك جيوش من مفسدهم وردت على ديارنا فصادفت فيها كرم المثوى وتلقاها أهل الخلاعة بصدور رحبة ونشروها معتبطين بها بين جيلهم وقبيلهم .

ولو كنا بمكان من حسن التربية لم نضع الفرصة باحتكاكنا بالأجانب وكنا نأخذ عنهم الصبر والثبات والجد نأخذ عنهم عنايتهم بالامور المادية والاقتصادية وتدارس واياهم دروساً عمرانية ليكون بعدها كل فرد منا مستقلاً بنفسه متكللاً على جده وجدارته لاعلى أجداده وأملاكه . هذا ما كان ينبغي لنا اخذه عنهم ويمكن اليوم ان نتعلمه منهم ، ونطرح لهم ما وراء ذلك من أخلاقهم فانها لاتوافقنا وخصوصاً أخلاق غالب الجالية فليسوا في بلادهم من الطبقة العالية أخلاقاً وآداباً ولو كان كلهم كذلك ما فارقوها وأتوا يطلبون المال عندنا بكل وسيلة .

تعال معنا ننظر اين يصرف بعض الشبان لياليمهم . يصرفونها في مجال القصف والعزف فيما ينهك الصحة ويضر العقل ، فيما يضر بالنفس والمال والشرف فيما يغضب الديان والانسان .

يقول من يشاهد معاهد العاصمة ومجالس أنسها غاصة بالشبان وأهل الخلاعة ما أسهل ضياع الوقت والمال على هؤلاء الناس فكأنهم ما خلقوا ليعرفوا له قيمة او كأن أوقاتهم ليست عزيزة لديهم وأموالهم مبدولة من ايديهم يتلقفها من بعث لنا الافرنج بهم نواباً عنهم في استنزاف خزائن بلادنا . وحقاً ان فريقاً من الشبان لا يألفون المكث في أماكن اللهو والطرب ولكنهم لا يقضون أوقاتهم الا في السفاسف والهراء والبذاء وهكذا يمضي الليل والنهار بل الاسبوع بل الشهر بل العام بل العمر وشبابنا لانستفيد

منهم الا انصرفهم الى ما يبعث الالذة الى حواسهم والطرب في نفوسهم كأن الشرقي ما خلق الا للخفة والطيش وتضييع الوقت والغربي ما خلق الا للثبات والانكماش والاقتصاد في الوقت والمال .

ولعمري لو جئنا نحاسب السواد الاعظم من شبابنا كيف يأتهم دخلهم وكيف يخرجونه هل ترى فيهم من يقدر ان يحسب ميزانية اسبوعه او شهره على الوجه المناسب في عرف الاقتصاد .

شبابنا ينقصهم كل شيء ان أردنا ايراد الحقيقة تنقصهم الاخلاق الفاضلة من مثل المروءة والوفاء ولين الجانب والصدق والثبات ومضاء العزيمة ومعرفة قيمة الوقت والمال والصحة والنظر في العواقب وان لا يرضوا بجائهم الحاضرة ويدرسوا ما عند الشعوب الاخرى المتمدنة من الصفات التي تميزها عنهم يعوزهم ان يعلموا ويعملوا وان يكون كل فرد أمة بذاته ويطالب نفسه بنفسه وهناك يحسن حال المجموع .

لو استعاض شبابنا عن مطالعة الروايات الغرامية والقصص والمجون بدراسة الكتب العلمية والاجتماعية ولو استصعبوها بداءة بدء اذن لرأيتم ملين بكثير من حقائق العلم ونواميس الارتقاء .

لانكر أن منهم من تنبه فيه هذا الشعور ولكنهم أفراد قلائل حتى ليصح أن يقال اننا لم نزل في دور الحضارة فمتى نبلغ أشدنا وفي كم قرن نبلغ مبلغ الاغيار والوقت عزيز ومناذي الرحيل يستحشنا على العجل .

نحن لانطلب الكمال ولا أن يكون كل شبابنا في الدرجة التي وصفناها وانما نعني تكثير سواد المتعلمين المتهذبين وتعلم المبادئ التي يعرفها شبان اقل امة مرتقية وهناك تنال مصر استقلالها رغم انف كل مكابر .

هذا ما كتبت في مصر سنة ١٩٠١ فهل تبدلت اخلاق معظم الشباب في هذا القطر بعد هذه الحقبة الطويلة؟ الجواب انها زادت انحطاطاً مع الأسف ويمكن ان يقال ان الاقطار العربية ايضاً بقدر ما ترقى في العلوم والمعارف تنحط في آدابها واخلاقها . ظواهر لا تبعث على غير القلق لمستقبل الامة ، فعلي المسؤولين ان يجددوا همة في سد هذا النقص الكبير .

جمعية المقاصد الخيرية

لو كل بلد اسلامي قام بواجبه قيام المسلمين في مدينة بيروت ثغر الشام ، لا ضمحت الأمية علة العلل في هذا المجتمع ، ولزاد في بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع ، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء ، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة ، وبرئوا مما يتهمهم به اعدائهم من ان دينهم لا يفسح لهم مجالاً للنور والثقافة .

أسس المسلمون في بيروت في سنة ١٢٩٦ هـ جمعية دعوها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وعينت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ ، ثم طرأت عليها طوارئ شلت حركتها ، ومن أهمها ان الحكومة العثمانية ما كانت تحب استرسال المسلمين في سبل التعليم ، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون في مدارسهم الطائفية ومدارس المبشرين ما شاءوا وشاءت دول الاستعمار .

ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة ، كان أول ما فكر فيه المسلمون إعادة جمعية المقاصد الخيرية المملغة ، خصوصاً وقد رأوا كلمة التبشير تقوى ، فهبوا إلى التذرع لاحياء جمعيتهم في سنة ١٣٣٨ هـ وأخذوا يجمعون أموالاً ، واستوهبوا ارضاً عظيمة من الأوقاف اقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهي ، فكان لهم منها بأخرّة ريع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً في السنة يدخرون نحو ثلثها مالاً احتياطياً ، ولا يفتأون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم .

وجعل أولئك العاملون هدفهم الأسمى انشاء مدارس لتربية البنين والبنات ، وتثقيفهم بالثقافة الحديثة التي تنطبق على التعاليم الاسلامية ، واعدادهم ليكونوا عاملين منورين اقوياء في عقيدتهم الدينية والقومية ؛ وزادوا في مناهج البنات على مناهج البنين - والعلوم النظرية واحدة في

جميع مدارسهم - دروساً عملية في تدبير المنزل ، تناول الطبخ والخباطة على اختلاف انواعها ، والاشغال اليدوية والرسم والموسيقى وتربية الاطفال .
اصبح لهذه الجمعية في مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والاناث ، منها مدرستان ثانويتان ، احدهما للصبيان والثانية للفتيات ، اطلق على كل واحد منها اسم « كلية » . وقد نجح تلاميذها في السنة الغابرة نجاحاً باهراً ، وكان فيهم ثلث من نجحوا في الجمهورية اللبنانية في احراز شهادة البكلوريا ؛ هذا وبيروت مدينة المدارس ، ومنها ما يرد عهد تأسيسه الى ستين او سبعين سنة . وبلغ مجموع مافي مدارس البنين والبنات في بيروت في سنة ١٩٣٤ - ٣١٣٠ طالباً وطالبة ، وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض الاطفال (هذا الكلام قبل سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك زاد عدد المدارس وقويت الجمعية فوة يفاخر بها كل مسلم) .

ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم في الثروة في قيام هذه المدارس يمدونها بما تصل اليه ايديهم من المال كل سنة ، وكانت مدارسهم في هذه الازمة الخانقة اقل دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية ، ذلك لان مدارس الجمعية تدار بأيدي رشيدة ، لا يسرف في مالها ايام الرخاء ، ويراعى في الانفاق العام الحاضر كما تراعى الاعوام المقبلة .

ولما رأت الجمعية ان التبشير يسري بسرعة في القرى الاسلامية من عمل بيروت هبت لجنة من اعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها ، وكونت لها رأس مال وبدأت بانشاء المدارس في القرى في سنة ١٣٤٠ هـ فكان لها منها الآن اثنان واربعون مدرسة فيها ما يربو على الالف طالب وطالبة يتلقون التعليم الابتدائي الصحيح على منهاج التعليم في الجمعية .

ولم تكف جمعية المقاصد بما اتت ، بل عمرت لها في بيروت مستشفى ذا طبقتين وبلغ ما أنفق على بنائه ٢٠٣١١٠١٥٩ غرساً سورياً او نحو اربعة آلاف ومائتي جنيه عثماني ذهباً ، ونشطت المدارس الاهلية الاخرى وعاونتها ، وتولت برجلها مراقبتها وإرشادها ، ورمت بعض المساجد في

الحاضرة والضاحية ، ومنحت معاونات لمن يريد التخصص في مدارس الشرق أو مدارس الغرب ، وعاونت حفظة القرآن وسهلت سبل اتقان حفظه ، كما بسطت يد معونتها للمولعين بالفنون الجميلة إلى غير ذلك . هذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والحير جمعها الغير على أبناء دينهم ، فتألف منها رأس مال لا يستهان به ، وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية ، ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشك أن ينسلخوا منه ، وكل ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت وعين أعيانها عمر بك الداعوق الذي كانت طريقته وطريقة أعوانه ان يعملوا ولا يقولون ، ويبدلون ما لهم ووقتهم ولا يمينون ولا يتبجحون .

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذي كان سداه الاخلاص ، ولحمته حب الدين والمدنية ، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام ، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضي ، في محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة ، وقل في الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره في هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية ، وقل ان كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت . ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابيين من أبناء بيروت لفضي مع الزمن على الأمية في المسلمين . وجوهر كل نهضة في عقول الرجال ، ولانجاح في الاعمال لغير المخلصين المثابرين .

هذا ما كتبه في هذه الجمعية العظيمة وما زالت والله الحمد مطرداً سيرها تخرج بها رجال هم اليوم قرة عين المسلمين في هذه الديار .

من آراء شيخ المصلوبين

كثيراً ما سمعت الشيخ طاهر الجزائري يقول ان افضل الطرق في انهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين وهذه طريق طويلة ولكنها امينة الغائلة لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي أما القول بالثورات وطرق العنف فقد تنجح ونجاحها قليل وليست مضمونة .

كان يقول لخاصته اذا اردتم النجاح فلا تلقوا آذانكم لما يقال فيكم من مدح وقدح وسيروا الى الهدف بقدم ثابتة تفلحوا . وتوقوا اضاعه الوقت بالقال والقليل وما لا ينتج فائدة من قول وعمل .

كثيراً ما نصح لبعض من يجب إياكم أن تخطوا في رسائلكم إلى اخوانكم ما لا تريدون أن تقولوه جهرة فكل ما يكتب لا يؤمن نشره ويفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه .

سأله أحد شيوخ الحشوية رأيه في كتبه وكانت كلها كتب خرافات وشعوذات بعيدة عن روح الدين الصحيح فقال له : يا فلان اشتغلوا ونحن نشغل وسنرى لمن تكون النتيجة .

كان يقول لبعض تلاميذه : تعلم كل يوم مسألة واخرج للنزهة ولا تتعب نفسك كثيراً فلا خير للمرء باكراهه على معاطاة امر تضيق به نفسه . وكان يقول لهم تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه ولو لغة مالطة فقد يجيء زمن تحتاجون اليها وإياكم أن تقولوا انها لا ندخل في نطاق اختصاصنا فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة .

كان يقول لخواصه من سوء بخت المسلمين أن استولت الدولة العثمانية على اجمل اقطارهم وحكمتها قروناً بالجهل والجبورية فأفسدت الدين وما نشرت إلا الجهل .

قال فروا من الموتورين والسوداويين فراركم من الوحش ، فهذا أحسن

علاج لهم ولا تضيعوا اوقاتكم باستصلاح من لم يرزق الاستعداد الكافي لقبوله ، فمن الناس من خلقوا للسكة والقدان ومنهم من تهيأت نفوسهم لمجالس العلم والأدب وللجلاس في مقاعد دور الندوة ودواوين السياسة . إذا حرصتم على ادخال الاصلاح في البيوت فلا تتوانوا عن تعليم ابناء جميع الطبقات ولتكن معظم عنايتكم مصروفة الى تعليم ابناء الأعيان فان عندهم المال والجاه إذا تحولوا بحلية العلم والمعارف جاء منهم رجال جد نافعين وعم الاصلاح الذي تحاولون .

وكان هذه الحكمة مأخوذة من قانون الرهبة اليسوعية التي جعلت من شروطها بذل العناية خاصة باولاد الأغنياء حتى يكونوا في مستقبل ايامهم اعواناً لمجتمعتهم .

قال جماعة كانوا يتألمون لما يقع من ظلم قائم مقام البقاع العزيز وكان من ابناء بدرخان الاكراد : هل عندكم مسدسات تستعملونها للخلاص من هذا الجور ! قالوا : لا . قال : إذا وطدوا انفسكم على احتمال الاستبداد واورد كلمة من حكم سيدي احمد زروق : « المؤذي طبعاً يقتل شرعاً » . وكان يقول تعلموا العلم لله ولفائدته ولذته ولتكن بكل واحد منكم صناعة او تجارة او زراعة تعيشون منها احراراً حتى لا تحتاجوا إلى قرع ابواب الملوك والحكومات فاذا احتاجوكم نادوكم والا فأنتم بما لكم من اسباب المعاش لا تحتاجونهم .

كثيراً ما رأيت يغضب على من يستنبطون من الحوادث ما يخطر لهم بادىء الرأي وكان يشير اليهم أن يذكروا الحادث كما جرى وسمعه ويتروكوا الاستنباط والتعليل لغيرهم .

ما كان الشيخ يجوز الكذب حتى على المخالف ويحث كل من يجتمع اليه على الصدق ولا يتقي الا من كان يخشى بأسهم ويعمل بما قيل في المعارض مندوحة عن الكذب .

كان الظاهر من حال الشيخ انه جبان رعديد وهو يقوي قلوب من

حواله وينشط كل من يراه اهلاً للتنشيط وأبغض الأحاديث اليه أن يقال في حضرته مايفت في عضد المسلمين كقائد يسوق الجيش بحكمته ولا يخاطر بنفسه في المعركة لئلا يذهب الجيش بفقد قائده .

كثيراً ما كان يقول لو بلغني أن اهل هذا البلد كلهم راضون عني ليس لي منهم عدو لعددت نفسي ساقطاً لأن من يرضى عنه كل الناس لا يكون إلا خداعاً منافقاً يظهر لكل احد بما يرضيه والمصلح لا يخاو من اعداء واصحاب . قال واحب الى قلبي أن ارى عشرة من العقلاء من مئات الالوف يرتاحون الى عملي ويقرونه .

كان يقول لو ارادني اليهود على ان اعلمهم لبادرت الى اجابة طلبهم لأن في تعليمهم تقريبهم منا واتقاء شرهم . وكان غرامه في تأليف القلوب بين ابناء الأمة على اختلاف اديانهم وازالة الفوارق من بين الفرق الاسلامية خاصة ولذلك كان يعرف من اسرار جميع الطوائف ما لا يعرفه ابناء الطوائف نفسها أو ما يستر عن عامتهم على الأقل . ويقول الحمد لله لقد سالمنا جميع الفرق . اما سخفاء اهل السنة وهم دونه علماً . وعقلاً فيبادرون الى تكفيره كأن بأيديهم مفاتيح الجنة .



موضع عجب

(في أكثر القصص التي يقرأها أبناء هذه الحضارة وفي أكثر المجالات والصحف ، وفي أكثر ماتشده في المسارح وعلى الشاشة البيضاء في الشرق والغرب = حب وهيام ، حب ودماء ، حب ودموع ، حب هازل ، وحب جاد ، ولكن أكثره محصور في نداء الغريزة ، وفي أرضها أو محاولة أرضها بالف سبيل وسبيل ، ولو اضاف سكان الارض سكان المريخ ، لأخذهم الدهش منا نحن أهل هذا الكوكب ، ولظنوا حين يرون مانرى من الاتجار بغريزة الجنس في أكثر ما نقرأ وما نشهد - ان أبناء حواء وآدم لم يرثوا من ابويهما سوى هذا الطراز من الحب البدائي الذي لا فضل فيه لانسان على حيوان . نعم هو جزء حيوي من طبيعتنا ، لكنه ليس كل طبيعتنا وهو نوع من الحب العابر الموقوت لكنه ليس كل الحب ، ولا هو ابقى انواعه واصفاها .

(حب الابوة والأمومة والبنوة - اين هو في هذا الخضم المصطبغ ، من النزعات البدنية الدنيا ، انه مغرق أو يكاد يكون مغرقاً في بحر لحي من الشهوات ، في القصص وعلى المسارح والشاشة البيضاء او السوداء .)

(حب الانسان للانسان من حيث انسانيته واخاؤه ، لا من حيث ذكوره او انوثته - وحب المواطن للمواطن والجار للجار والغني للفقير والقوي للضعيف - حب الجمال في النور إذا مح الظلام ، وفي الطبيعة إذا زانها الربيع ، وفي المبدع الأعلى لبدائعه ، وفي البدائع لمبدعها الأعلى .

اين الجداول والانهار والحب الشامل ذو القنوات يجري بالعذب الفرات من الرحمة والعطف الى كل قلب يتوجع وروح تظسماً ، طغت غريزة الجنس فكأنما الدنيا كلها ذكور وليس لهم الا خصائص الذكور واناث ليس لهن سوى خصائص الاناث - اما صفات الانسان المشتركة بينها ،

المتسامية عن التفريق والتخصيص ، فيكاد الناس يجعلونها فضولاً لا غناء فيه
ولا حاجة اليه .)

هذا مقاله صديقي الاستاذ محمد توفيق دياب في كتابه اللمحات وله
الفضل ان سبق الى تدوين هذا المعنى الذي يتناول الشرقيين والغربيين
على السواء ، وكان الغربيون هم السابقين الى هذه المعاني وبهم اقتدى
الشرقيون . دارت القصة في الغرب على المرأة وعلى الهيام والغرام يختلق
القصصيون موضوعاتهم ويدعون انها مما وقع وبلاغتهم تغطي العيوب في
كلامهم الذي يحاولون به تسلية الناس واثارة شهواتهم ، ويزيد الاقبال
على ما يكتبون كلما كان الكلام ظاهر الفجور . لاجرم ان البشر كان في
كل زمن يرتكب انواع العيب والليهو وما كان منذ بلغتنا اخباره اقل غراماً
بالنساء منه اليوم ولكن كانوا يكتمون ويستترون واليوم يظهرون
ويعلنون ، كان من يأتون العهر جبهة فرادى فأصبحوا اليوم جماعات .
قلّ الحياء في الناس وما ندري ما تكون الحال عليه بعد بضعة عقود
من الأعوام ، والبشر متسارع في كل شيء ، وكل يوم تزيد تأثيرات القصص
والسينما أكثر من تأثيرات المدارس والمواعظ .

محمد توفيق دياب

المدينة الحديثة

خطب برناردشو أعظم كتاب الانكليز مرة قال : كشفت خرائب في جزيرة كريت يرد عهدها الى كذا الف من السنين فظهر انه كان للقوم مدنية لاختلف عن مدينتنا الحاضرة بمراقبها وترتيباتها ، فتساءلت ماذا زدنا نحن أصحاب هذه المدنية الحديثة اذاً على ما كان للاقدمين من حضارة ، فلم أر أحسن في الجواب من ان ما أتينا به كان عبارة عن اختراع اسلحة وقذائف يقتل بها بعضنا بعضاً ، وبذلك فقط امتزنا على اجدادنا . هذه زبدة ما روي لي من كلام هذا العظيم وقوله في الواقع حقيقة لمسناها في الحربين الاخيرتين ، وكانت أمم الغرب من اوربا والاميركيين يخترعون للتدمير والقتل ادوات من افطع ما عرف الانسان . وبهذا الصراع الدامي اثبت البشر ان الشفقة نزع من القلوب ، والانسانية خرجت على كل قانون كانت ترعاه ولو بعض الرعاية ، وان الاديان وجوهرها العطف على الفقراء والضعفاء أصبحت لا تذكر الا على شفاه من يعيشون بالاتسام بها .

كلما انقضى عقدان او ثلاثة عقود من السنين خطت الحضارة الحديثة في باب القتل خطى هائلة ، ولا يأتي جيل آخر ان دامت هذه الاختراعات سائرة سيرها حتى يقال ان البشر أصبحوا أحط من الحيوانات ، وقد يتراحم الحيوان أكثر من الانسان . ونحن مهما كددنا قرأنا لنجد لهذه الحرب الاخيرة مبرراً وندون ما انجلت عنه من فوائد لا نرى الا انها زادت في بؤس الانسان على ما لم يعهدله مثيل ، وكان من ذلك ان العلم وغايته سعادة البشر قد انقلب شر أداة تستعمل في شقائه .

كان يقال كل مشروع تريد القضاء عليه حوِّله الى لجنة فينسى ويهمل وقد احتال بعض رجال السياسة في هذا العصر على أهمهم لدوام الحرب

بان ألقوا لجاناً ومجالس لاتقاء عادية الحروب في الظاهر فما أفادت الانسانية شيئاً . أنشأوا عصبة الامم عقبى الحرب العالمية الأولى ، واخترعوا مجلس الأمن في الحرب العالمية الثانية فماذا كان من العصبة وما اسفر عنه هذا المجلس ؟ هل بطلت الحروب من العالم في الزمن الذي انقضى بين الحرب الاولى والحرب الثانية او بين الهدنة الأخيرة حتى الساعة ؟ ام هل استطاعوا تخفيف الولايات والناس يعيشون الى اليوم في خوف الحرب الكبرى ؟ « وتوقع المصيبة أعظم من المصيبة » وهكذا ينشأ من هذه المدينة الشر اثر الشر لايجول دون وقوعه مجلس ولاجنة ولا مؤتمر ولاعصبة .

قام مالتوس الاقتصادي الانكليزي في القرن الماضي بفكرة الحيولة دون نمو البشر وعدم الاستكثار من النسل الى أكثر مما لا تتسع له الأرض فأثبتت الأيام خطل رأيه وظهر ان الكرة الأرضية تتسع لأكثر مما يمشي على سطحها من الخلق ، فقد كان سكانها في أول القرن التاسع عشر ثمانمائة الف مليون وأصبح في اواسط القرن الحالي عشرين الف مليون اي زاد اثني عشر الف مليون في نحو (١٥٠) سنة على كثرة ما نشب فيها من الحروب العظيمة والثورات والأوبئة ، وظل يأكل ويعيش كما كان في القرن الماضي . ولو بلغ عدده خمسين الف مليون لعاش من خيرات الأرض إذا قدر له ان يتجنب الحروب وكفي مؤونة جلب بؤسه بيده .

فعلى من تقع اللائمة ونحن نرى من يقدمون ويؤخرون في اقدار بني الانسان ظاهرهم الحرص على السلام وهم يضمرون الحرب في قرارة انفسهم ، واساليب اهراق الدماء تزيد شهراً فشهرأ ؟ على ساسة الدول الكبرى من الملوك والرؤساء ام على المجالس النيابية التي توافق على اعلان الحروب مرغمة احياناً ويتغلب قليل من نوابها على افكار السواد الأعظم ، وفي الامور العظام قد لا يقررون ما يقررون الا اذا صدر إليهم ايعاز من مصدر عال تضطرم الحال الى مراعاته وإظهار الطاعة له . وخضوع الضعيف للقوي ظاهر لكل من يحلل عمل الحكومات .

طبقات الناس

في درس الطبقات تحليل روح الجماعة . ومن المتعذر الجمع بينها أو القضاء على الفوارق بين اجزائها ، وهي مهما تعددت درجاتها نرجع الى طبقات ثلاث أمهات : عليا ووسطى ودنيا . وقد تقسم كل طبقة إلى طبقات يكون الفاصل بينها على الأكثر الغنى والثقافة ، وليس لك أن تعد الفقير بالمال الغني بالعلم من الطبقة الدنيا ، ولا من الانصاف أن تحسب الغني بماله الفقير بثقافته في الطبقة العليا ، والمال وحده لا يكفي لرفع المرء فوق الرؤوس ، كان هذا راجحاً أيام كانت الأمية متحكمة في الامم جمعاء وعلى الملوك والأمراء والزعماء والحكام بل على القضاة والوعاظ والتجار والصناع . كان المفكرون في كل عصر يصنفون الخلق بحسب ما يتراءى لهم ، والغالب انهم كانوا ينظرون إلى درجات الغنى اولاً ، وما يحترفه المحترفون من الحرف ويمسنون من عمل ثانياً ، ويعتبرون قرب المرء وبعده من الحكم والسلطان قبل كل اعتبار .

قسم المقرئ اصناف الناس لعهد في مصر إلى سبعة اقسام (١) اهل الدولة (٢) اهل اليسار من التجار واولو النعم من ذوي الرفاهية (٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم اصحاب المعاش (٤) اهل الزراعات سكان القرى والريف (٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من اجناد الحلقة (٦) ارباب الصنائع والأجراء واصحاب المهن (٧) ذوو الحاجة والمسكنة . وهذا التقسيم لا يكاد يختلف عن تقسيم العصور الخالفة إلا قليلا .

ولما احتفل احد عمال الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر بدمشق (١١٥٦) بزواج ابنته خص كل يوم بجماعة فكانت قسمة الى طبقات فكان اليوم الأول للوالي والثاني للعلماء والمشايخ والثالث للأغوات والرابع للتجار والباعة

والخامس للنصارى واليهود والسادس للفلاحين والسابع للقينات والمومسات . قال احد المؤرخين أن صاحب العرس اكرم هذه الطبقة إكراماً زائداً وفرق فيهن الذهب والفضة . وكان قبل يوم العرس عمل تهليلة لجميع مشايخ الطرق حضرها الخاص والعام .

وبعد فان الطبقات بحكم العادة منعزل بعضها عن بعض لا يمتزج الحكام بالتجار ولا الفقهاء بالأجناد ولا الزراع بأرباب الصنائع الحرة من الاطباء والحامين والمهندسين . ولذلك كان من العادات الراسخة إلى عهد قريب ألا يتزوج التاجر إلا من ابنة تاجر ، ولا تقترن الفلاحة إلا بفلاح أو ماشهت طبقته طبقة أهلها . وابنة الموظف لا يبنى بها إلا موظف ، والشريفة لا ينكحها إلا شريف . وهكذا حتى يكون الزوجان متقاربين بالثروة والعادات .

ولما كثر المتعلمون والمتعلمات ظهرت الفروق محسوسة بين الطبقات ، ولا تصفو الا في الندر عشرة المتعلم مع غير متعلمة او المتعلمة مع غير المتعلم وهذا ما يستنتج منه أن الطبيعة ميزت بين الطبقات . ويكفي اختلاف حرفة الواحد عن الثاني في مجلس أن يتباعد كل واحد عن صاحبه . واذا خرج الحديث عن الأحاديث العامة وتحدث أحد الحاضرين بما لا يتدوقه الحضور يتأفف بعض السامعين حتى ليظن أن المتكلم من عالم آخر يخاطب عالماً آخر غير عالمه ، وهذا من تخالف الطبقات . بل لقد تجد اهل بلد واحد اختلفت طبقتهم يتباينون في لهجاتهم وفي افكارهم ومنازعتهم على قريتهم في الجوار كأنهم من بلدة اخرى . وكلما تناءت المنازل زاد التخالف في العادات واللهجات ، ولا يجمع شملهم إلا توحيد اللغة والتربية الوطنية المشتركة والتباين يبقى اثره زمنياً طويلاً ويضعف ولا يكاد يرى على ماهو حاصل بين ابن القرى وابن المدن في اوربا واميركا لاشترك سكانهما في المسائل العامة أكثر من سكان المدن والقرى في الشرق . والتعليم الاجباري هناك يضعف تأثير الطبقات في الجملة . ولقد رأينا طبقات الفلاحات هنا اذا وافين الحواضر للخدمة في البيوت يصعب عليهن باديء بدء ممارسة

بعض مصطلحات الحضارة التي دخلوا فيها ولا يزال الفرق ظاهراً بين القروية وابنة المدينة وبين الجبلية والسهلية لأن لكل واحدة بيئة خاصة نشأت فيها .
لم يوفق عالم من علماء الملة منذ كان الاسلام كتوفيق الجاحظ في تحليل روح الطبقات ولم يحسن أحد الانتفاع بهم والاطلاع على ماخصوا به من ميزات . اختلط بعامة الطبقات وغربلهم ونخلهم وادرك مواطن الضعف والقوة فيهم . هذا وقد ثبت أن التشابه بين اهل الحرفة الواحدة من امم مختلفة أكثر مما هو بين جماع اهل بلد واحد . وقالوا ايضاً ان اهل كل حرفة وان اختلفت شعوبهم أدنى إلى التقارب في التفكير والعادات مما لا يشهد في تقارب الطبقات في امة بعينها . وكثرة التخالف في الطبقات في الهند ادت الى شطرها شطرين . فسبحان من طبق الطبقات ورفع الدرجات .

السبغ طاهر والسياسة

طال تفكيري في حال المشايخ الفقهاء فما رأيت أكثر من عاصرتهم الا شبه العامة مجرصهم على شهواتهم وتحليلهم لاقتناص الدرهم والدينار واستحلال كل ما يوصلهم الى رغائبهم وزادوا العامة بان تلفقوا اشياء من العلم يستخدمونها لمنافعهم وللإبقاء على مظاهرهم فهم لا يعدون العامة في كل ذلك مهما احسن الظن بهم ، ومن لا يعمل بعلمه موته وحياته سواء .
وبعد ان كان من المشايخ الى أواخر القرن الماضي من ينكر المنكر ويدعو الى المعروف قل جداً عدد من كان على هذه السيرة وغدوا لا يهتمون لغير راحتهم ورفاهيتهم وهذا لا يتبها لهم الابصانة الملوك والحكومات ليفيضوا عليهم من احساناتهم ويرقوهم الى اعلى مراتبهم ودرجاتهم كأن العلم لاثر له الا نفع من تعلمه فقط لا نفع من تستدعي الحال هدايتهم ورفع اصواتهم عند الاقتضاء بما يدفع بالامة الى الإمام خطوة او خطوات .

قال لي صديقي الاستاذ سعيد العرفي - وهو من القائمين بما اخذ الله على العلماء من العهد الايكتموا العلم - ما كنت اظن الشيخ طاهر الجزائري أكثر من عالم مصلح واسع العقل بعيد النظر حتى سمعت من اذاعة القدس كتابه الى معاونة حاكم العراق الانكليزية في التوفيق بين مصالحة العرب ومصالحة الانكليز وعندئذ ايقنت ان الشيخ جمع الى علوم الدين علوم الدنيا ومنها السياسة على ما كان عليه بعض كبار علماء السلف . وهذا ما دعاني الى نشر هذا الكتاب النادر في هذه المذكرات وهو عندي محفوظ بخطه دفعه إلي في أواخر أيام حياته قال :

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة الشهامة المصونة مس « بل » دام اقبالها احبيك بخير التحايا واثني على تلك السجايا وأذكرك بالأيام المسعودة التي جمعتنا في دمشق الشام ثم اذكرك الداعي الى المكاتبة وهو امران احدهما تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك بهذا المحب المخلص فقد ذكر لي بعض اصدقائي ترجمة ما كتبت في حقي في رحلتك الى سورية بما يدل على حسن الطوية ، والأمر الثاني اقتضاء الوقت لذلك فإن هذا الزمان الذي هو اغرب الأزمنة مطلقاً يجب الانتباه فيه لما يلائم وعدم تضييع الفرص فانها تمر مر السحاب . هذا ولما كنت اعتقد ان احسن من يخلص له العرب الود هو دولة بريطانيا العظمى لما خبرته من الأحوال ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك - والمودة لما كانت واجبة ان تكون من الطرفين اقتضى الأمر ان يقع التفاهم بينها ليستمر هذا الأمر فرأيت انه ينبغي لانكلترا العظمى ان تعتنى بأمور ، الأمر الأول ان تؤسس في كل بلدة كبيرة ديواناً شبيهاً بالرسمي لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يجب العرب لتساعد عليه بقدر الامكان والذين يعينون ينبغي ان يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب ممن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة .

الامر الثاني ان تعتنى بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الانكليزية .

الأمر الثالث الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان .

الأمر الرابع مراعاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم لاختلاف العادات فإنه قد بلغني انه كان يقع في البصرة والعراق وغيرهما من بعض المأمورين تساهل في ذلك وهذا مضر جداً لا يشعر بمضرته الا بعد ان يشتد الحال ويعسر زوال ما في النفس . نعم ان هذا الأمر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي الا ان الاعتناء لأسبابه كثير ممكن . والعربي أهم شيء عنده عدم الهوان .

الأمر الخامس تسهيل أمر تجارتهم وتسهيل أمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك وتدريبهم في ذلك على كل ما ينفعهم ولا يضرهم .

الأمر السادس الاعتناء بعدم مسّ الشعائر الدينية على وجه أقوى من الحالة السابقة ، وبما يؤيد ذلك منع أمر المسكرات ونحوها وتوابع ذلك .
الأمر السابع تدريبهم على ما يحتاجون اليه من امور اقتصادية أو غيرها أي شيء كان .

واني أرى ان هذه الامور إذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنة جداً ويشد التلاؤم بين الفريقين ، فإن العرب أقرب الناس الى شكر النعمة فان وجد من لا يشكر فان في ظهور النعمة ما يقمعه عن ابراز ما ينويه من مغالطة الناس وما قلت ما قلت إلا بعد تجربة أو اختبار تام ولولا شدة انحراف مزاجي لألفت في ذلك كتاباً مفصلاً قياماً بمثل هذا الأمر الجليل الا ان في هذا الامر كفاية والله الموفق

المخلص للامة العربية والدولة البريطانية العظمى

طاهر الجزائري

مابئة

الناس الذين على فكري من جهة توافق مصلحة الامة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى كثيرون الا انهم لا يقدرون على اظهار فكرهم الا

بعد أن يروا باعثاً على اظهاره لثلا ينسب اليهم انهم خائنون للامة ، فإن هذه الجملة راعت الناس كثيراً وهي جملة اتخذها الشرقي لارهاب غيره سواء كان هو مخلصاً في نفسه أو غير مخلص وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام حين كنا بها في المدة الأخيرة وذلك قبل دخول الأنوريين في الحرب بنحو شهرين فإن بعضهم اشاع عني اني حضرت لتمهيد الأمر لدولتكم العظمى وكان مركز الاتحاديين هناك المركز الأول ولو وقع ذلك لغيري لأهلك حالاً ولم يكن له مانع ولكن اوصوهم في حقي بان يغمضوا عينهم في المسألة رعاية لاعتقاد الجمهور باني لا اختار شيئاً فيه خيانة للامة .

واذا وقع ما ذكرناه يقل الشعب ويضعف أمر الموهين الذين لا يهمهم إلا امر انفسهم ، فبادروا لذلك غير مأمورين فهذا اوانه ونسأل من بيده الامر كله التوفيق لما هو الاولى .

واذا كتبت لنا جواباً فاكتبه بعنوان الجريدة المشهورة الجزيلة الفائدة ، وهي جريدة الكوكب التي يدير امرها المستشرق المشهور صديقنا كودنبيري يصلنا اين كنا .

• • •

مآب:

واني أوصيكم ببعض البلاد التي لا أسميها خيراً ، فان فيها كثيراً من الرجال المهين الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها ولكنهم غلبوا على أمرهم لانهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة والبحث يجلو كل شيء فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل وقد آن الأوان لمعرفتهم ، وهذا لا يكون الا تدريجاً فليبادر الى ذلك فستحمدون عاقبة هذا الامر والله الموفق .

الصفار والكيار

كثيراً ما حاولت ان أجمع بين من لم يسبق لهم أن تعارفوا وبينهم تشابه في الخلق والتربية لعلمي أنهم إذا تعارفوا كان من اجتماعهم فوائد عظيمة ، أحب الشاب أن يسمع كلام الكهل والشيخ ، وأحب هذين أن يعرفا الشاب ومراميه ، وقد نجحت هذه التجربة بعض الشيء وثبت عندي أن من تعارفوا غيروا آراءهم فيمن تعارفوا اليهم والبعد جفاء . ورب عدو أزرق أصبح بالتعارف الى آخر صديقاً باراً ولا يعرف أحدنا ما عند صاحبه من مزايا إلا إذا وقف عليها بنفسه .

كانت المذاهب والطرق تفرق بين الناس في القرن الماضي . وأصبحت في هذا القرن البلية بلية الاحزاب ، ولذلك كنت أقول لبعض من أدعوه من الشبان الى الاجتماع في داري مع من لا يعرفون من أرباب المكآنة وغيرهم أرجو أن لا تتأثروا إذا صادفتم عندي من يخالفونكم في مذهبكم السياسي فبيني لكل الأحزاب ولكل المذاهب .

وما كان يعنيني كثيراً التنويه بارباب النزاهة والافتدار لعلمي بان اجتماعهم يؤلف كتلة صالحة تعمل للخير بدون ان تقيد بقيود الاحزاب والجمعيات أي تكون صحبتهم صحبة وطنية خالصة ليس وراءها غرض مادي .

قال لي صديقي الاستاذ حسن الحكيم قبل أن يتولى رئاسة الوزارة - وأنا أرجوه أن يحضر احدى الاجتماعات في داري - وهل حضوري ضروري في كل مرة؟ فأجبتة لعمرى انه ضروري لان أمثالك قلائل في البلد وأريد أن أعرض على الناس بضاعتنا الجيدة. وما كان في حاجة الى من يدل على فضله فقد شهرته أعماله المالية واثبت كفاءته في تأسيس مصارف في دمشق وفلسطين . وعلى ما خص به من اقتدار ونزاهة حاول خصومه السياسيون الغض منه ، ولما دخل معركة الانتخابات النيابية الاخيرة

نصره الالهون وخذلته السياسة ، فانتخبوا في حيه أحد ذوي قرباه وهو
دونه علماً وتجربة ، وحجة أهله في رفضهم انتخابه انهم قصدوه وهو في
رئاسة الوزارة لقضاء بعض مصالحهم فلم يعاونهم على النحو الذي كانوا
يرجونه منه !

ولا أعرف في النواب من يداني الاستاذ الحكيم في اختصاصه المالي
والجلس في حاجة ماسة الى سديد تجاربه وبعد نظره . وكان طلب حالته
على التقاعد فوافقتة الحكومة على طلبه . وما أكثر اقدم الحكومات
على تنحية الاكفاء الزهاء يوم ينهي القانون خدمتهم ، . وفي سن التقاعد
تنضج معلومات العامل ، والمناصب الكبرى لا تتطلب ممن يشغلها قوة
في العضلات بل قوة في التفكير واحكاماً في التدبير .

فساد الطرق

كان المظنون أن يعمد مشايخ الطرق الى ابطال ما لم يعد للزمن
طاقة بتحملة من جهالة بادية ورعونة غير خافية . وذلك بعد أن طرأ
على عقول العالم من التبدل ما أصبح معه رأي الجمهور في المتجرين بهذه
الايوضاع أسوأ رأي .

استجاز بعضهم العبث بملكات مريديهم ما طاب لهم العبث ، ولما جاء
هذا العهد بعلمه وتفكيره حاولوا أن يحتفظوا بمكانتهم على جهل فيهم ،
وما أدركوا أن ما كان يطلق عليه اسم « علم » في الماضي اصبح
لا يساوي خردلة اليوم .

ورأي بعضهم أن يعملوا أبناءهم ليعدّوهم لضرب آخر من ضروب
المعايش ، او ليكون لهم من سلاح العلم ما يبقون به على بيوتهم من
الدثور فلم تجن الامة من المتعلمين ولا من الأميين إلا الصاب والحنظل .
ذلك ان العلم لم يبذل من أرواحهم ، وما سلموا من جرائم منشأهم

الموبوء ، كما وقع لأحدهم فتلقى العلم في أرقى الجامعات الغربية وسولت له نفسه أن يتطوع في خدمة اغراض الغريب . ومن السخف ان كان بعض ارباب المظاهر يعرفون ما فيه من خيانة ثم يمدون اليه ايديهم يضافحونه ويتوددون إليه ، ولما سقط كان في موطنه أيضاً من يقيم له الاعذار ، ولا يستحي من مصانعة .

عرضت بأخرة على احدى محاكم عاصمة من عواصمنا قضية اتهم فيها شيخ إحدى الطرق بالعبث بعفاف الأبرار اللائي مختلفن الى زاويته ، وكان اهلن من مريديه وأشباعه ، وثبت انه كان يقول لهن انه يقصد بعمله الشائن تنويرهن وانهن سيعدن ببركته ابراراً على نحو ما كن قبل أن يبلغ فيهن . هذا الدجال الأمي نفذ الى ارواح من انضموا الى جملته ، وبالطبع كان من جازت عليهم دعوته مثله أميين جهلاء .

ومن المفاسد التي تسجل على بعض هؤلاء المشايخ ما لا يصدر مثله عن أدنى الأدنياء ، ولا يجوز ارتكابه الا ارباب المواخير من السفهاء ، وقد سمعنا على الدهر أن بعض الطرق ما كانت تتقيد بالآداب الدينية والمدنية فيبيع الداخلون فيها نساءهم بينهم حتى ليمسین مشتركات بين الاخوان من غير نكح ، وكانت مثل هذه المنكرات يفتضح امرها في بعض الحكومات الاسلامية فتهد الى معاقبة الرؤساء وتفرق شمل من ينتهكون حرمة الشرائع . سألت احد مشايخ الطرق وكان يمت الى الادب بصلة هل أجدت عليه رحلته في الريف ، وكان طاف بعض أرجائه ليجمع من اهل طريقته جُعله السنوي فقال : ريات ضئيلة العدد ، واكياساً من الخنطة خفيفة الوزن ، فقلت له : وما السر في ذلك ياترى ؟ قال ان القوم قلّ اعتقادهم فينا ، ونحن قادمون على المستقبل المجهول . فقلت في نفسي حقق الله ظنك ، فاذا كان البشر سائراً بخطى واسعة الى الاحاد كيف يرضى عن يدعكم وكُديتكم ؟ .

نعم لم يبق من سلطان هذه الطرق على العوام غير اثر ضعيف بالقياس

الى ما كان لها قبل خمسين سنة ، انهزمت والله الحمد امام قوات الحضارة .
ومع هذا ما زال بعض الدول يوقد جذوتها في رؤوس السذج ، تقدم بالمال
وتحميهم من غضب السواد الاعظم وتعطف على من يعمل لها بدافع من
نفسه ويكفيها مؤونة تضليل العقول كما كان شأنها في الشام بايام احد
الأغبياء بانه إله معبود بيده القبض والبسط ، وكما زينت لهذا المستهتر
بالابكار بانه امام يهتدى به ، واوهمت ذاك المتعلم ان من تمام معرفة
الجيل خدمة مآرب تلك الدولة بما تريد لا بما تقتضيه مصلحة وطنه .

وعلى سبيل الفكاهة نسجل هنا ان احد ظرفاء الأُميين اخترع مؤخراً
طريقة جديدة فانضم اليه حتى بعض من يلاحظ انهم على شيء من المعرفة
والذكاء وراحوا يزعمون انه يشرح لهم الفتوحات المكية لابن عربي
وما اكثر ما يدعي هؤلاء المتصوفون فك المعنى من كلام متصوفهم . اشتهر
منذ نحو خمس واربعين سنة رجل فران كان يعتم بعامة بيضاء شارة العلماء
فسألت عنه احد مشايخي وكانت له مشاركة عظيمة في التصوف هل حقيق
ما يقولون من ان هذا الفران يفهم الفتوحات المكية فاجابني ضاحكاً :
نعم هكذا قالوا وهو أُمي ايضاً . والعجيب الا يضطلع بسر الطرق
إلا الأُميون ولا يفهم كتب القوم إلا الجهلة المشعبدون على نحو ما نرى في
الطريقتين اللتين جاءت احدهما وهي « القاديانية » من الشرق وكانت
اختراعاً انكليزياً صرفاً ، وجاءت الأخرى وهي « التيجانية » من الغرب
وهي بضاعة افرنسية محضة .

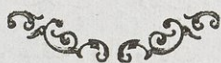
ونحن كلما ملنا الى الاعتقاد بانقراض هذه الحملات الطفيلية ينشأ لنا
جيل آخر يجي الدجل بطريقة له يبتدعها فيستهوي قلوب ضعفاء المدارك
ولذا حق لنا ان ننادي ان الشعوذة ما انقطعت من الدنيا ولن تنقطع ،
وكل رجائنا ان يبقى العلم على جهاده في مكافحة الجهل ، بغزوه في
بؤرته ، ويحتمه من اصله ، ويدفنه الى غير رجعة .

فرنسا في شمال إفريقيا

من أفضح انواع الاستعمار استعمار فرنسا ، قام في كل قطر احتلته على نزع الثروة من أيدي الوطنيين ، وعلى نشر الجهل والفساد بينهم ، وعلى تربيتهم تربية خنوع وذلة ، ليكون لها منهم الى الابد عبيد وخوّل يؤمرون فيطيعون بدون أخذ ورد . قرأت منذ نشأت كثيراً من كتب الثقافات من الفرنسيين في نقد سياسة فرنسا في مستعمراتها الاسلامية وتدبرت تلاعب ساستهم في تلك الأفطار فما شهدت شهد الله إلا الظلم الجسيم وإرهاق الخلق باسم المدنية . وآخر مآثراته في مجلة الثقافة المصرية (العدد ٤٣٨) مقالة للاستاذ عبد الجبار جومرد ذكر فيها تاريخ استعمار فرنسا للجزائر وأتى نقلاً عن المضبطة الرسمية على نتائج فتنة الجزائر (١١ تموز ١٩٤٥) ونقل ما دار في المجلس الاستشاري وما قاله أحد أعضائه من الفرنسيين من ان الانتقام كان فظيماً ، ذلك ان قتل بعض الأوربيين أدى الى اعدام تسعة واربعين مسجوناً ، ولما رأوا أن العدد لا يكفي ويلزم لاتمامه احد عشر شخصاً أيضاً أخذوا من صفوف المسجونين من أتموا به العدد وقتلوهم كلهم رمياً بالرصاص . قال ان الوالي العام على الجزائر أجاب على سؤال وجه اليه فقال إن احدى واربعين قرية دكت بالطائرات والوحدات البحرية فلم ينج منها ديار ولا حيوان ، وبما ان معدل سكان القرية الواحدة على الأقل الف نسمة إن لم نقل الف وخمسمائة فلا مغالاة إذاً أن نقرر ان عدد من قتلوا من المسلمين يختلف بين اثني عشر الفاً وخمسة عشر الفاً ، هذا اذا فرضنا أن نصف السكان قد فرّوا واعتصموا بالجبال .

تلك شهادة افرنسي مسؤول في مجلس رسمي ، وهذه عقلية الفرنسيين في كل بلد نزلوه وطمعوا في استعماره . هكذا كانوا في افريقية وآسيا

واميركا ، وهكذا كانوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين .
ذكرني هذا بما نقله اليّ احد اصحابي على لسان أحد أجباب فرنسا
من اللبنانيين قال ان في الفرنسيين الصالح وغيره وانه رأى برقية
بالارقام حلّت بحضرته أرسلها الجنرال ديغول المسيطر على فرنسا يومئذ
الى ممثليها في سورية ولبنان عندما توترت العلاقات بين حكومة الجمهورية
السورية وحكومة فرنسا قال يأمر المفوض الفرنسي أن يدمر ثلثي
سورية لتوطيد سلطان فرنسا عليها . وقال ان هذا المفوض الفرنسي
اكتفى باهلاك بضع مئات من الأبرياء في مدن سورية فأثبت صاحب
فرنسا أن رجالها كانوا بين ظالم وأظلم ، أما المسلمون فكانوا من هذه
السياسة الحرقاء في بلاء ليس بعده بلاء ، وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن
بلاد الاسلام ستخرج من حكم فرنسا ان لم يكن عاجلاً فآجلاً ، ذلك
لان ظلمها بلغ أقصى حد لاتطيقه النفوس البشرية ، ومهما استحلّت
فرنسا خنق الحرية في الاقطار التي استولت عليها لا بد أن ينفذ أهلها
عنهم غبار الذل يوماً فيتمتعون باستقلالهم الذي يحبه لهم كل انسان
فيه روح الانسانية .



أقوال مسرورة

تناولت من فرنسا نشرة اسمها ايزوب (Esopo) على اسم القصاص اليوناني الذي جاء قبل المسيح بستة قرون وقرأت فيها ما اعتدت أن أقرأه في كلام من يخدمون الأغراض السياسية تحت ستار العلم ، وخلاصة ما يدعوا إليه هذا البيان الذي تدرأ ناشروه وراء أسماء مشهورة عندهم ان نشرتهم هذه لسان حال الاتحاد الدولي للفنون والآداب والعلوم وزعموا أنه انضم اليهم ٤٧ عضواً عن سبع وأربعين دولة . وغايتهم أن يكون الحق لكل إنسان في مراسلة المعاهد العلمية عامة ومفاوضة أبناء كل أمة ، وأن تطلق له الحرية في تناول الكتب والمطبوعات والروايميز وأدوات الصناعة ، وأن يسمح لكل فرد بدخول خزائن الكتب ودور الآثار والأماكن التاريخية ومعامل الابحاث التي تهتم الطالب وتُعنى بها أمته والدول الأخرى دون اداء رسم ، وأن يمنح كل انسان حق الترجمة والنسخ وتحليل النماذج وغيرها مما فيه فائدة للثقافة العامة ، وأن يخول الرحلة الى الممالك بلا تشديد كبير ، ويسمح له بالاقامة في كل مملكة المدة التي يراها ضرورية ، وأن يستمتع بحريته في الارض التي يحلها يكتب ويخطب ويلقي من المحاضرات ما طاب له ، ويقيم كذلك الحفلات الموسيقية والروايات التمثيلية والاعمال الرياضية ، وينشئ المعارض ويأخذ ما يشاء من أفلام السينما ، ويقوم بما يروقه من الحفريات والابحاث . قال كاتب النشرة ان الغاية المقصودة من ذلك بلوغ السكالم وكل أولئك لادخل للماديات فيه .

و كنت وأنا أترجم هذا أقول في باطني ترى هل يقتصر أحرار فرنسا وغيرها من الامم اذا تحققت لهم هذه الاماني على الامم المستعمرة أم يعم خيرها الشعوب المستعمرة فقط ، وفرنسا الغالية في دعوى الحرية وخدمتها منذ وضعت أقدامها في شمالي افريقية تحرم على اهلها ان يكونوا على

اتصال مع اخوانهم في الاقطار الاخرى ، لم تسمح لابن الجزائر ولا لابن تونس ولا لابن مراکش بان يتواسلوا احراراً ويتكلموا احراراً ويعلموا اولادهم احراراً ويجمعوا احراراً . ولم تسمح لاحد من ابناء هذه الاقطار الاسلامية الثلاثة ان يکاتب احداً من اهل الاسلام في كل بلد نزله تحت اي داع كان . واطرف ما في هذه النشرة دعوة مؤسسها الى اصلاح كتب التاريخ في كثير من الممالك لان ذلك هو المرحلة الاولى في كل حملة سلمية . ومعلوم ان فرنسا اول دولة اوربية اخذت عن العرب ونمطتهم حقهم في كتبها واول دولة بدأ تعصبها على المسلمين فكانت أرضها أتون التعصب الديني انبعثت منه الحروب الصليبية المعروفة وعم بلاؤها اوربا وهذا الشرق القريب مائتي سنة فقط ، واول دولة أصلت من دانوا بالبرتستانتية ناراً حامية وقتلت منهم في يوم واحد مئة الف انسان وشردت الباقي وهم عشرات الالوف في هولندا ومانيا وغيرها .



اهل السنة والشيعة

لي في جبل عامل صديقان جمعنا رابطة العلم والأدب منذ ريعان الشباب ولم يفرق بيننا المذهب واختلاف المنشأ والعادة وكنا ، يصدقاني رأيها فيما اكتب في الشيعة احياناً في بعض كتيبي ويوردان لي اشياء ليس لها ما يؤيدها في دولة ايران الشيعة اليوم ولا في أكثر كتب الشيعة المعتمدة عندهم . يبرئان الشيعة الامامية من وصمات اتسم بها بعض فرقهم . عنيت بهذين الصديقين العالمين الأديبين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر .

وهاكم رأيها المخالف لرأيي في أمهات المسائل التي يشتمر منها أهل السنة كمسائل الشيخين ومسائل علي ومعاوية وقذف امهات المؤمنين وغيرها بما خالفت فيه الامامية أهل السنة ، قال الشيخ احمد : قد نحوت في كتبك منحي الشادة بفضائل الأمويين ولم تتعرض لمساوئهم بل نحوت إلى تبرئة معاوية من سن لعن علي على المنابر فقلت « ويقول من امعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنه لعن علي عقبى كل خطبة لم يقم عليها دليل ثابت يركن اليه وما من اثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة » تميل الى تبرئته بهذا الخبر المفرد تاركاً الأخبار التي ملأت كتب التاريخ وبلغت حد التواتر من أنه هو أول من سن اللعن وفرضه فرضاً على أهل مملكته .

« ربما كنت تريد بهذا تأييد مجدٍ لملك عربي من أعظم رجال السياسة في الاسلام لتأييد به مجد العروبة ضد الشعوبية ولكن ما بالك تكثر من الحط في شيعة علي وهم ومن يستندون اليه في مذهبهم عرب اقحاح ، تبريء معاوية من لعن علي وتلصق بهم لعن الشيخين بل تجعله من أركان مذهبهم استناداً على كتاب وقع في يدك مجهول المؤلف لا يعرفه اكثر ابناء الشيعة بل

هو من غلاة العجم الذين اغرقوا في تشيعهم كما كانوا قبل في تسننهم لانهم لا يعرفون الاعتدال .

« وإذا كان في غلاة الشيعة من يقول مثل هذا القول فكيف تقدفهم كلهم بهذه التهمة وما بالك تقرفهم بقذف امهات المؤمنين ولم يقل بذلك قائل منهم حتى من غلاتهم لانهم بتطهيرهم امهات المؤمنين انما يطهرون حرمة رسول الله الذي يقدسونه ويعصمونه عن كل ما يشينه حتى من كل ما ينافي المروءة وعن المعاصي كبيرها وصغيرها قبل النبوة وبعدها بل هم يتزهون زوجات الانبياء كأمراة لوط وامراة نوح عن مثل هذه الوصيات وان كن مشركات ومع ذلك يتهمون بغياً وافكاً بقذف ام المؤمنين التي طهرها النص الصريح في القرآن الكريم من الافك وها أنت تذكره ياسيدي في كتبك دون ان تشك فيه ثم تنشره على الملاء العربي كحقيقة مسلمة !! »
« وانت تعلم ان في الفرق الاسلامية من يجب الشيخين ويسب الصهرين ولم تتعرض لتشبههم كما تعرضت للشيعة فلم ولماذا ؟ لأنك تأثرت باقوال من يرمي الشيعة بكل شنيعة تبعاً لسياسة وقتهم أو لاهوائهم عن حسن ظن بهم ولم تلتفت الى تمحيص ما قالوا بسامعك دفاع المتهم عن نفسه إذا نظرت في كتبه المبعثرة .

« ان التنازع السياسي القديم الذي أدى الى هذا التناحر الطائفي الذي جرت به سياسة القرون الوسطى هو الذي اسس في نفوس كثير من علماء الطائفتين كره احدهما الاخرى وكثير الافتئات والافتراء من احدهما على الاخرى ودارت رحى الجدل دوراناً كان ثقلها مجد الأمة وعزها فوهنت قوتها واستباح حماها الأعداء من كل جانب وانتقصت بلاد المسلمين من اطرافها وضاع استقلالها . »

وقال الشيخ سليمان معلقاً على قولي : قلت ولشيعة المسعودي مدخل كبير في آرائه لان من جوزوا الكذب على مخالفيهم وغلوا في حب الطالبين حتى جعلوهم فوق البشر ، وزعموا لهم الكمال المطلق وان المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم لا يؤتمنون على التاريخ ... الخ

« ولا أراك وقد نفذ السهم^٩ واندفعت بهذا التعبير بعامل العاطفة وجرى قلمك بما جرى الا وانت راجع الى وازع لبك نادم على ما فرط عالم وما طرق العلم عليك ببعدة بما يعتقدہ الامامية من الشيعة والشيعة فرق كثيرة ومنهم كثير من الغلاة ، ما يخالف روح الاسلام .
« حاش الامامية ان يجوزوا الكذب على مخالفهم والكذب حرام باجماع المسلمين وحاش أن تعتقد فيهم الخروج منه وهم من احرصهم على تمحيص الحديث والاختبار وكتبهم في الرجال وفي علم الدراية وما انطوى عليه من تنويع الاخبار وتخصيص اسماء المطعون فيهم بالذكر في كتب الرجال كل ذلك من تناول الباحث .

« والامامية لا يعتقدون الكمال المطلق لائمهم ولا لأحد من النبيين والمرسلين وهو الله وحده ولا يرونهم فوق البشر وهم معتقدون ان النبي وهو افضل الخلق ما كان الا بشراً رسولاً ولا كانوا من الغلاة وهم يبرؤن منهم ومثل ذلك براءتهم من أن المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم وهم يعتقدون كاخوانهم اهل السنة والجماعة ان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة وان اعتقاد مثل ذلك خروج عن الاسلام ومعتقده كافر بالاجماع .

« وهل للاستاذ حرسه الله ان يدنا على مصدر من مصادر الامامية يؤيد دعواه هذه التي نبأ الى الله منها وهل من يعتقد عصمة الامام عن ارتكاب صغائر الذنوب وكبائرها لتسكن النفوس الى أدائه رسالة الاسلام حق أدائها يعتقد ان له ان يغير ويبدل احكام الله ، فيصير الحرام حلالاً والحلال حراماً .

« ان المسلمين سنيهم وشيعيهم عنوا اكمل عناية بضبط الحديث وتنويجه وبتراجم رجاله وبتعديل العدل وتوثيق الثقة وتجريح المجروح وما الى ذلك مما يتعلق بالاحكام ولكنهم تساهلوا فيما يرجع الى المناقب والمثالب والاختبار وكان من أثر هذا التساهل ما لم يسلم من الوضع والوضاعون كثر سواء أكانوا من بعض فرقهم والغلاة منهم خاصة ام من الدسائين من

الاعداء لالقاء بذور الفتنة والفرقة بين صفوف المسلمين وهو ما ندعو الى ملافاة خطره محدثي الفريقين لتمحيصه . وفي اعتقادي ان التوفر على اداء هذه المهمة هو من اوصل الطرق الى التقارب بين ابناء المذاهب الاسلامية الذي يعمل له رهط صالح من خيسار المسلمين السنة والشيعة الامامية والزيدية في دار الاسلام (مصر العزيزة) .

« واني لانشدك الله والاسلام وهو على مفترق الطرق وفي زمن احوج فيه من كل زمان الى الالفة والوئام ان تكون في الصف الاول بمن يدعو اليها ويمهد السبيل لازاحة كل ما يعترض سيرهما القويم » .

هذه نبذ من كتابين للصديقين العزيزين وانا اقول جدا لو كان الشيعة كلهم على هذا الاعتدال .

وقال صديقنا السيد محسن الأمين من أكبر مجتهديه في هذا العصر : وعمدة ما ينقمة غير الشيعة عليهم دعوى القدح في السلف أو أحد ممن يطلق عليه اسم الصحابي ، والشيعة يقولون ان احترام اصحاب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من احترام نبينا فنحن نحترمهم جميعنا لاحترامه وذلك لا يمنعنا من القول بتفاوت درجاتهم وان علياً عليه السلام احق بالخلافة من جميعهم . وقال ان ما يخالف فيه الشيعة غيرهم هو من الامور الاجتهادية التي يجوز فيها الخطأ وليست من ضروريات الدين ولا من اركان الاسلام مثل مسألة الامامة ورؤية الباري تعالى يوم القيامة وان العباد مجبورون على افعالهم وانكار الحسن والقيس العقليين وخلق القرآن وان صفات الله غير ذاته وذنه هي عمدة المسائل المختلف فيها بين الاشاعرة والشيعة والمعتزلة ويجوز ان يكون الحق فيها مع الشيعة أو المعتزلة إذ للنظر والرأي والاجتهاد فيها مجال ولا يجوز فيها التقليد .

وقال مخاطباً الشيعة : وأتم أيها الاخوان الشيعيون عليكم ان تعملوا بما أمركم به امامكم اهل البيت جعفر بن محمد الصادق من التجنب الى اخوانكم اهل السنة من زيارتهم والصلاة في جماعاتهم وتشجيع جنائزهم وعبادة مرضاهم وتجنب كل ما يوغر صدورهم .

يقول ابن حزم في الاحكام ان الروافض ضلت بتركها الظاهر والقول
بالمهوى بغير علم ولا هدى من الله عز وجل ولا سلطان ولا برهان فقالت :
ان الله يأمركم ان تذبحوا البقرة ان هذا ليس على ظاهره ولم يرد الله تعالى
بقرة قط انما هي عائشة وقالوا الجبت والطاغوت ليسا على ظاهرهما انما هما
أبو بكر وعمر . قالوا واوحى ربك إلى النحل ليس هذا على ظاهره انما
النحل بنو هاشم والذي يخرج من بطونها هو العلم .

قال العلامة موسى جار الله كبير علماء روسيا وشيخ الاسلام فيها :
« وفي الكافي والتهديب والوافي من كتب الشيعة لعنات على أبي بكر
وعمر وعائشة وحفصة وعلى العامة (أهل السنة والجماعة) وهم كل
الامة ، وللشيعة ادعية مأثورة في لعن الصحابة . ونقل عن الوافي ان
الامام لم يدع احداً ممن يجب ان يلعن الا لعنه وسماه وأول ما بدأ بأبي
بكر وعمر وعثمان (؟) ثم مر على الجماعة ولعن الكل وللباقر والصادق
دبر كل صلاة مكتوبة اوراد لعنات على أربعة من الرجال منهم أبو بكر
وعمر وأربع نساء منهم عائشة وحفصة . »

« وتقول الشيعة ان الناصب حرب لنا وماله غنيمة لنا والناصب عندهم
من يعتقد بامامة الصديق والفاروق . يقول الصادق : خذ مال الناصب
حيث وجدته وادفع اليها خمسة . والشيعة على ما في كتبهم يكفرون
جميع الفرق الاسلامية ويقول الامام في ائمة المذاهب الاربعة : لا تأتهم
ولا تسمع منهم لعنهم الله ولعن ملهم المشركة ! وكل آية نزلت في الكفار
ارجعتها الشيعة إلى الصديق والفاروق ومن اتبعهما . »

قال جار الله : وأول شيء سمعته وأكره شيء انكرته في بلاد الشيعة
هو لعن الصديق والفاروق وأمهات المؤمنين السيدة عائشة والسيدة حفصة
ولعن العصر الأول كافة في كل خطبة وفي كل حفلة ومجلس في البدء والنهاية
وفي ديباج الكتب والرسائل وفي أدعية الزيارات كلها حتى في الأسقية ما كان
يسقى ساق إلا ويلعن وما كان يشرب شارب إلا ويلعن وأول كل حركة
وكل عمل هو الصلاة على محمد وآل محمد ولعن الصديق والفاروق وعثمان
الذين غصبوا حق أهل البيت وظلموهم .

قال قلما تقام جمعة أو جماعة في بلاد الشيعة وليس فيها قاريء للقرآن ولا حافظ له وان من الشيعة من يعتقدون ان القرآن سقطت منه اشياء اه قلنا ومن الأسف ان يصير التشيع الى ما صار اليه عند المتأخرين وقد أتى اكثره من سخافات الدول الفاطمية والبويهية والصفوية ومن دول الهند العادلشاهية والنظامشاهية والقطبشاهية .

وكان في دمشق على عهدالدولة الفاطمية يطاف على الرجل وهو على الحمار وينادي عليه هذا جزء من يجب أبا بكر وعمر ، ومنعت الدولة من التكني بابي بكر . سمع أبو القاسم بن برهان يقول : دخلت على الشريف المرتضى أبي القاسم العاوي في مرضه الذي توفي فيه فاذا هو قد حوّل وجهه اليّ فسمعته يقول : أبو بكر وعمر وليا فعديلا واسترحما فرحما .

ودخل عليه بعض أكابر الدولة من الديلم فساره الديلمي بشيء ، فقال له متضجراً : نعم وأخذ معه في كلام كأنه مدافعة فنهض الديلمي فقال المرتضى بعد نهوضه أهؤلاء يريدون منا أن نزيل الجبال بالريش ، واقبل على من في مجلسه فقال : أتدرون ما قال هذا الديلمي فقالوا لا ياسيدي فقال : قال بيّن لي هل صحّ اسلام ابي بكر وعمر قلت : رضي الله عنها . هذا رأي عظيم من أكبر عظماء الشيعة في أبي بكر وعمر ، وقال العلامة آل كاشف الغطاء من المتأخرين في كتابه أصل الشيعة وأصولها ان علياً رأى الرجل الذي تخلف على المسلمين (اي ابا بكر) قد نصح للاسلام وصار يبذل جهده في قوته واعزازه وبسط رايته على البسيطة وقال ان علياً حين رأى أن المتخلفين - أعني الخليفة الاول والثاني - بدلا اقصى الجهد في نشر كلمة التوحيد وتجهيز الجنود وتوسيع الفتوح ولم يستأثروا ولم يستبدوا ، بايع وسالم .

وكان المصلح الامام جمال الدين الافغاني ينفر من قول سني وشيعي ويقول : لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك لجهل الامة فقد اخرج الذين أهوا علي بن ابي طالب من الاسلام لانهم ضلوا ، أما المفضلة والغلاة في محبة أهل البيت فقد دخل الاثنان تحت حكم من قال يهلك فينا أهل البيت اثنان محب غال وعدو قال . وتوسع في ذلك وما آل اليه من الضرر واقنع السنيين والمتشيعين بالبرهان ، وهذا رأينا .

بيبي وبين الاستاذ الخوري

كنت منذ أيام أنبش جمعتي فظفرت بعدة رسائل ارسلتها الى صديقي فارس الخوري منذ خمس واربعين سنة . وكنا اذا اجتمعنا بعض الايام نقضي ست عشرة ساعة معاً نطالع خلالها ونكتب ونتحدث ونتنزه ونأكل . فرأيت أن آخذ هنا بعض صورها لاستدل منها على تصوراتنا في تلك الحقبة من العمر .

أراك تعجب كثيراً (١) ببسالة أهل اليابان وشدة تفانيهم في الذود عن حياض وطنهم وما هم على التحقيق إلا مثال لحال أمة نشأت على العلم النافع وربيت التربية الفاضلة واني وان اعتقدت اعتقاد مكاتب التيمس أن لمذهب اليوشية دخلاً كبيراً في غلبة سكان المملكة المشرقة فاننا لا أفتأ أقول ان كل أمة اذا لم يكن في تعاليمها ما يدعو الى الوفاء وضعف النفوس والزهد في العلوم يكون شأنها شأن اليابانيين .

لا جرم أنك توافقني على أن أسلافنا العرب كانوا سكان اليابان في جلاذتهم ونجادتهم فكان الفرد منهم يقاوم عشرة على نحو ما ورد في الكتاب العزيز « يا ايها النبي حرّض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا ذلك بانهم قوم لا يفقهون . » هذه الآية قام العرب بمضمونها بالفعل فقصوا على مملكتي فارس والروم على قلة عددهم وعددهم .

ولا بدع فالامة الحية لا تشبه الميتة ، وذلك البدوي القح - الذي عاش بعيداً عن السفساف ونما مع الطبع نمو الاجسام الحية القوية متخلياً عن رفاهة العيش وقد علمه دينه أن وراء هذه الحياة حياة ثانية طيبة

(١) لصديقي فارس الخوري ملحمة كبرى مطبوعة في وصف الحرب اليابانية الروسية كتبها بحرية فمرّ أناساً وأساء آخرين .

فيها ما تشتهي الانفس وتلد الأعين إن عاش بعد الزحف عاش سعيداً وإن مات مات شهيداً - ذلك البدوي لا يشبه ذلك الفارسي والرومي الذي أسرف على نفسه وأمات الاستبداد عواطفه واسترسل الى الجهالة . شتان بين جيش يقاتل جنده الجاهل مدفوعاً بعوامل الشهوات مسوقاً بقوة السياط والعصي مسخراً لامر زعمائه لا يدري ولا يحق له أن يدري الى أين يسير وجيش يكاد رؤساؤه ومرؤسوه يعرفون ماهية الحياة وضرورتها معرفة محكمة حكيمة يمشون عن رضى ليدافعوا عن بلاد لهم حصه من خيرها ويلحقهم قسط من شرها تالله لا يستوي الاعمى ولا البصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور .

كانت ايام العرب في عداتهم مما تبيض له الوجوه ويحق لهم ان يرفعوا بذكره رؤوسهم . وكانوا كيابان الآن اذا زحفوا الى العدو يخاطبهم اميرهم خطاب من لا يرجع ويوصيهم ان يسلسوا القيادة فيهم الى عشرة او اكثر اذا قتل قائدهم واميرهم . وما اظن طوغو وكوروكي وكاميمورا اعظم بشجاعتهم ودربتهم من خالد بن الوليد وقتيبة بن مسلم وطارق بن زياد . واذا قابلت بين هؤلاء الرجال فلا يغرب عنك إن للبقاع تأثيراً في الطباع ، فمن عاش في ديار العرب بعيداً عن العاوم الحربية يتعذر أن يضاها من خلق وسط العلم في قرن كهذا ومن اين لابن القرن الاول للهجرة ان يكون كابن القرن العشرين للمسيح .

* * *

كان لحشد الجنود في رومية قوانين مقررة ولما زحف القائدان بروتوس وانيبال على المملكة الرومانية دعت جمهورية رومية للدفاع عن حوزتها جيشاً من رعاي القوم ومن الزعانف واهل الدعارة وكانت تعاقب الأبتاق من الزحف بعقوبات شديدة وكثيراً ما كانت تقتلهم في ميادينها . ومن ملوك أوروبا في عهد النصرانية من كانوا يعفون من الجندي وصفاءهم وخدامهم ورجال الدين ، ولما اخترعوا القرعة لتجنيد شعوبهم كان الناس يجتالون للخلاص منها بالدخول في سلك الرهبنات والأخويات فراراً

من لبس صدر الجندي وسراويلاتها ومعاطفها ، يستعوضون عنها بثوب اسود وقلنسوة وجبة وغيار فكان من يفرون من الجندي يؤثرون حمل الصليب على نقل البندقية فتكون ثياب الاحتيال بمثابة ألبسة لهم رسمية . حال تشبه حال بني قومنا اليوم الذين يسجلون على انفسهم الكذب ويدعون فراراً من لبس طربوش الجندي انهم ممن انقطعوا للعلم الشريف او ان والداتهم مطلقات وهم قائمون على اعالتهم ويعتذرون اذاراً باردة يعرفها من تقال لهم .

خطب وزير الحرب على عهد لويز السادس عشر خطبة القاها بأمر ملكه على رجال الجيش خلال حرب السبع السنين وهي الخطبة التي انتقدها الفيلسوف فولتر قال الخطيب : إن في الديار التي تساقون اليها اليوم ما تشتهي انفسكم من ذهب ولؤلؤ وماس فالطرقات بها مبلطة مرصوة والاحجار الكريمة مبدولة بحيث لا تحتاجون إلا الى ان تمدوا ايديكم اليها وتتناولوها . دعوا عنكم ما هناك من قهوة وليمون وبرتقال وقشدة وألوف من الفاكه اللذيذة النضيجة ومنها ما لم يغرَس كأنها في جنة ارضية . الى ان يقول : فايكم ان تسمعوا لمن يصدونكم عن سبيل الحرب من آبائكم وأمهاتكم وخصوصاً أمهاتهم فان البرابرة لا يأكلون الاوربيين ليجمعوا اجسامهم اداماً حُبزهم القفار فمثل هذه الحشونة كانت تجرى على عهد خريستوف كولبس مكتشف اميركا وروبنصون كروزي الذي قذفت به الانواء إلى جزيرة مقفرة واحسن استخدام الطرق ليعيش ما امكن وينال حظاً من السعادة في وحدته فان البرابرة اليوم هم غيرهم امس وهم على الجملة اصدق خدمة للاوربيين وانضع العالمين في الارضين .

وانا اعلق وأقول إن الجندي ايأ كان جنسه ونحلته لا بد له من طعام يقات منه ولباس يقيه لافح الحر ونافخ القر ونفقة تدفع عنه عوادي الحاجة . وسواء وجد الجندي في القاصية او الدانية في الشرق الاقصى او الادنى في جنوبي اوربا او في جنوبي بلاد العرب في رأس الرجاء الصالح أو في الاسكندرية لا غنية له عما يحتاج اليه البشر . فاللهم اصلح قوماً يأخذون

الضرائب والمكوس باسم جنودهم ولا يفيضون عليهم منها إلا ما يكاد يحفظ عليهم ومقهم الاخير .

سقام بلا براء ضلال بلا هدى اوام بلا ريّ دم لا بقيمة
هذا والجندي الياباني قليل النفقات بعيد عن الكماليات والجندي
الروسي متوف مرفه وشتان بين المتخوشن والمتنعم .

جسرين في ٢١ شعبان ١٣٢٢

و ٣٠ تشرين اول ١٩٠٤

ومن كتاب : انتشر وباء البقر في مصر هذه السنة فنفق به نحو مائة وخمسين الف بقرة وثور وتسامح من وكل اليهم الحجر على واردات مصر فانتشر في سورية كما انتشر الوباء البشري منذ سنتين آتياً من مصر ، تنبأت بحلول هذا الضيف الثقيل عندما قرأت اول الاخبار ، كما تنبأت بان الوباء تسري عدواه الى سورية عندما أصيب به ناس في موشا من بلاد الصعيد في صيف سنة ١٣٢١ . وفي كلتا الحالتين صدق ظني وصحت كهاتي .

وعجيب لعمرى حال مصر والشام فانها أبداً مشتركتان في البأساء والنعماء إن لحق بالاولى شر شاطرتها اياه الثانية وان اصابها خير تستفيد منه وما زلت أفكر في حال الفلاح وما أصابه هذا العام من نقص في الغلات والثمرات للجفاف وقلة الري ، وأطرق ملياً عندما لا أجد في هذه المزرعة واهلها يتجاوزون ستمائة نسمة (اهل جسرين اليوم ١٣٠٠) من بلغته أخبار الوباء وفتكاته في القرى التي هي من هذه المزرعة على نصف ساعة ، ولا أرى حولي من يحاذر مما احاذره من تهديد الوباء لما رباه من ثيوانه فكانت عنده او كادت اعزّه عليه من ولده ، ولا بدع اذا استراح جسم من كان هذا مبلغ عقله فالعقل عقال لصاحبه .

نعم ان الفلاح وانا منهم ليحب بهائمه حباً جمياً ويكاد يؤثر لوقطع عنه طعامه وشرابه ولم ينقطع عن ماشيته العلف والمرعى ، ولطالما رأيت بعض الأكارين والحراثين ينامون في المعالف ليكونوا على مقربة من حيواناتهم يتعهدونها في الليل بالسقي والعلوفة تعهد الامهات أولادهن .

شعور تلبست به ولا خجل من الحق منذ شغلت نفسي بالفلاحة فتراثي
ابداً انقبض اذا شهدت ثيراني جائعة وملوثة قذرة وعلى العكس أطرب
وأسر واني لأوثر دخول الزربية لارى بهائمى على دخول قصر فحجم
اسمع فيه ما لا يروقني وأرى فيه ما ينغص عيشي ، واختار نشق رائحة
السرقين على ما هناك من المشومات والرياحين ، واوصي اجراء الدواب
اكثر من عهدت اليهم بتربية اخوتي من المعلمين ، ذوق غريب مضحك لا تجادلني
فيه بالله عليك ، ولقد كان نصيبك مثله لو بقيت في مسقط رأسك ولم تخرج
من طور السياسة البقرية الى دور السياسة البشرية .

جسرين : ١٤ رمضان ٣٢٢

و ٢١ تشرين الثاني ٩٠٤

من كتاب : ان هذه العوائد أليق بربات الحجال منها بالرجال وبصغار
الأطفال امثل من ارباب اللحي والسبال ولقد قضيت مع استاذنا الامام الحكيم
الطاهر فرصة من الدهر احاطت بعمر خمسة نهر بلياها كان عالمنا في
إصباحها وإمسائها يتلو على مسامعنا ما يقذف به واسع صدره من علم نافع
نصوغه قلائد لاعناقنا شكراً لفضله مدى الزمن وكانت احاديثه علي وعلى
من تكرم بزيارتي من اخوان الصفاء مغنية عن سلافة النديم مسلية عن
نغمة العود والصوت الرخيم وكنت منها في مقام كريم بين روح وريحان
وجنة نعيم .
دمشق ٦ شوال ٣٢٢ و ٣ كانون الأول ٩٠٤

من رسالة :

أيها الحبيب

كتابي اليك عن سلامة وشوق عظيم وعتب طويل عريض . والغالب
ان رواج سوق « المعابدات » وارتفاع كلمة « التشريفات » والظهور في
مظاهر الابهات وتضييع الأوقات في التحيات والدعوات وكل ماتصرف
على هذه القاعدة من الترهات قد حالت هذه الأيام بينك وبين كتابة سطور
تبعث على الطمأنينة من ناحيتك . وعجيب من حال هذا الدهر في ابناؤه

يريد لقاءنا من نكره لقاءه ومن نحلم بطيب لقاءه تفقر نفسه اختياراً أو اضطراراً عن لقاءنا وما أنت وأنا على كل حال الا كما قال الشريف الرضي لأبي اسحق الصابي .

لقد تمازج قلبانا كأنهما تراضعا بدم الاحشاء لا اللبن
انت الكرى مؤنساً عيني وبعضهم مثل القذى مانعاً عيني من الوسن
واني كلما فتشت قلبي فرأيت لك فيه الحب والوثام اضحك من عقول
الرؤساء السخفاء ممن همهم تفريق ما بين اجزاء القلوب ومباعدة مدى التحام
النفوس كأن بني آدم خلقوا ليتخالفوا لا ليتآلفوا . شنشنة قديمة اشتدت
وطأتها بحكم الجهل وما أزال اغباشها غير نور العلم فأخذ الناس والمتعلمون
منهم خاصة يرجعون إلى العصور الأولى في الاسلام ويقرأون في تاريخها
دروساً نافعة من ائتلاف البشر على اختلاف الأديان والأجناس ،
ألا حيا الله زمناً كان خلفاء بني العباس يعاملون الرومي والسرياني
واليهودي معاملة المسلم السني ، وهكذا الأمراء ومن تلاهم من سائر
طبقات الناس كانوا يتعاملون معاملة الاكفاء مها تباينوا في المعتقدات .
اثبات المثبت كالكلام المفروغ منه أو كالحديث المعاد

وبعد فاني ما رأيتك وخطر ببالي انك مخالف لي في المذهب ، ومن
غذي بماء واحد ونشق هواء واحداً وعلم علماً مشتركاً كان أقرب الى الاتصال
من تخالفت بيئاتهم وتناءت أقطارهم وافكارهم وان الياباني العالم على وثنيته
لأقرب الى قلبي من ذلك الذي لا تجمعني واياه غير كلمة الشهادة ويخالفني
في مذهبي ومشربي وعقلي .

وقلت من كتاب له : فإن اقل ما فينا من عيب اننا نعمل فيما لم نخلق
له ونحاول النفع فيما فيه التلف .

كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نسجه في الانعكاس
انت وانا نعد من القوالين لا الفعالين ومن المضيعين لا الجامعين ومن
الهادمين لا البائنين . أنت وانا كمعظم ابناء المشرق نضيع بديراً من اجل
دريهمات بل بديراً من اجل حبات ونحتقر نهراً في سبيل قطرات ولا نحسب

حساب العمر حباً براحة ساعات ويعز علينا التخلي عما نحن فيه من الامور
التافهات ولو ازلفنا من الباقيات الصالحات ، انت وانا في غفلة عما يواد
بنا وعما اليه سائرهم نحاول النفع من الضر والسعادة من الشقاء والغنى
من الفقر والحياة من ميت والنهوض من مقعد والبصر من اعمى والسمع
من اصم . انت وانا اليوم في الثلاثين من عمرنا قضينا اربعة اقسامه
في الدرس وتربية النفس فأين ما قمنا به من عمل رافع . اضعنا انصر ايام
الشباب في الاستعداد واستجاع القوى فإين ذاك الاستعداد وهاتيك القوى .
لو كنا نقول بالتناسخ وان لنا عودة الى هذا العالم السفلي لكنا لنا
تعزية عما ضاع من فقد الاعمار ولا يرد الفائت الحزن . نعم ان ما نحن فيه باطل
اذ العلم اس والعمل بناء والاس بلا بناء باطل . قال رجل لرجل يستكثر
من العلم ولا يعمل : يا هذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل .
فعلام ان لم أشف نفساً حرة يا صاحبي اجيد حمل سلاحى
انت وانا اعتدنا ان ننقد ما لا ينطبق مع العقل ونؤاخذ على كل
عمل لم تتخذ اسباب إجادته فهلا عدلنا عن هذه الحطة واشتغلنا بعيوب
انفسنا عن النظر في حال غيرنا . انت وانا ليس من حقنا ان نعتب
على الفلك او نسيء الظن بالقدر بعد ان ايقنا بان عزائمنا خارت وارادتنا
ضعفت حتى اصبحنا نعد في غلاة القدرية او الجامدين الحشوية الجبرية ، فأين
ما يورثنا المحمدة من الأعمال الصالحة ؟ هل نشرنا بين الملا كتاباً او
رسالة ينتفع به اهل جيلنا وقبيلنا ؟ هل أعدنا ناشئة تخرجوا بنا وتشربوا دعوتنا ؟
هل خطبنا القوم خطبة قومتم عوجاً وفتحت منهجاً . نبغ من مشاهير الساسة
والعلماء في العالم من لم يبلغوا السن التي بلغناها فهلا كان لنا من سيرهم مهازيستحسنا
ودافع واعظ يزجرنا . فان كانت غايتنا من الحياة ان نستمتع بما يستمتع
به سائر اصناف الحيوان فان معظم سكان الارض يفضلوننا من هذا الوجه
وان كانت بغيتنا أن نؤثر اثرأ ونحبي معلمأ ونشيد مجدأ فالطريق التي نحن
آخذون فيها لا تؤدى الى المقصد ولا تنتج إلا الندامة والحسرة . كل يوم
من ايامنا اليوم يوازى شهراً من ايامنا زمن الشيخوخة ، واعمارنا نهب أيدي

الدهر صائرة الى ذبول لا الى نمو فهنئاً لنا إذا سعينا مذ اليوم الى اختيار
الاحسن لنا في المعبة واغتنمنا الصحة قبل السقم والشباب قبل الهرم .
هذا واذا توكت على ما يتوكأ عليه الجبناء والضعفاء من الحجج الواهية
كدعوى فساد البيئة وقلة الاسباب فأقول لك كلمة اجعلها واجعلها
انا نصب العين ودرس عبرة كل حين وهي اننا اذا عملنا والظروف كلها
خادمة مواتية فاي فضل لنا ، بلى يتجلى عمل العامل اذا احسن التخلص
وهو وسط المعمة والحظر محدد به من كل جانب والاسباب تخونه
وتسلمه . وعلى امل أن القاك اكتفي الآن بهذا القدر من خطابك
والسلام عليك .

جسرين في ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢٣

و أيار سنة ٩٠٥

مدرسة الجمال

سمعت في مصر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالسه
الغاصة بالفوائد سنة احدى وتسعمائة والف ، وقد جرى ذكر رأس المصلحين
في الاسلام السيد جمال الدين الافغاني أن الاستاذ الامام لاحظ يوم أن
كانا في باريز أن صديقه وأستاذه يتغيب عنه كل يوم ساعتين في وقت
معين ، وكانا من قبل يتصاحبان لا يفترقان ، فبحث عن سبب تغيبه فثبت
عنده ان السيد يختلف الى بائعة زهور عليها مسحة من الجمال . قال فلم
اجراً لمكان السيد من نفسي أن أسأله عن سر هذه الزيارة المريبة ، فقلت
لعل الشيخ أخذ يتصابي ، وهو الذي لم تعهد عليه صوة وما حفظ عنه
الا الجد في كل أموره . قال وما لبث هذا الشك في سيرة الشيخ ان
انقشع وأصبح بعد ثلاثة اشهر يتكلم الفرنسية بطلاقة . وتبين ان ذوق

الافغانى العالى هو الذى الهمه ان يتخذ معلمته سيدة بارعة الجمال يحمل عنها لغتها بالعمل امام اصص الزهر وطاقات الورد والجو العطر ، وآثر جمال الدين ان يتصل بجمال الدنيا في ارواح مدرسة للنفس .
طريقة جديدة في تلقف اللغات تنسى الدارس صعوبتها وتحفره الى جمع قواه بامتع حواسه . فعسى ان يجرب رجال التعليم في مصر والشام والعراق هذه الطريقة المبتكرة في تلقين اللغات فيكون له صلح الافغانى الفضل على الشرق في حياته وبعد مماته .

اصباغ النساء

أولع النساء منذ أزمان طويلة بصبغ وجوههن بأصباغ يعتقدن أنها توثرهن جمالاً . وكان الرجال في دولة الرومان كثيراً ما يجذون حذو النساء ينتفون شعورهم ويجفون لحاهم وشواربهم ويصبغون وجوههم بالأبيض والأحمر والأصفر ويكحلون عيونهم ، يستعملون لذلك المواد المعروفة في تلك العصور ، ويصرف النساء والرجال وقتاً غير قليل في اعدادها وساعات في الطلي والتزيين .
وبالغ الغربيات في العهد الاخير بصبغ وجوههن بالأبيض والأحمر ثم عدن يبالغن بصبغ شفاهن بالحمرة ، وما لبث النساء الشرقيات ان نسجن على منوالهن وافرطن في اقتباس هذه العادة ، لما وقّر في النفوس من أن الغربيات ارقى حضارة من الشرقيات ، والمنحط خليق بالأخذ من الراقي .

وما اكتفى الشرقيات بتحميم خدودهن وشفاهن بل اقتبسن من الغربيات عادة اطلاق اظافر أيدين وطلبيها بالحمرة . وترقى فن التجميل عند النساء والرجال على ماهو المشهود في مسارح التمثيل ومشاهد الصور المتحركة . ونسي النساء ان تغيير الألوان الطبيعية قد يورث الجنس

اللطف بشاعة ، والاصباغ على الجملة تضر البشرة وتغضن الجلد قبل الاوان والجمال في السداجة لافي التكلف .

وهذه الاصباغ وما يتبعها تؤذي الصحة وتؤدي الجيوب ايضاً لما ينفق فيها من اموال قد لاتبالي الدول الكبرى كبريطانيا العظمى والولايات المتحدة بانفاقها ، وهي اكثر الدول اسرافاً في الأزياء والاصباغ ، ذلك لان اكثر مايصرف عندهم يصنع في أرضهم ويعود ربحه على معاملهم أما الأمم الضعيفة فانها تتأذى من مثل هذه النفقة لانها لاتحسن صنع الاصباغ ، ولا شيئاً من الازياء الحديثة ، وكلها أو اكثرها مما تجلبه من غير أرضها وتخرج اثمائه من ثروتها .

كان الناس في الدهر الغابر اذا اراد سادتهم ان يبغضوا اليهم أمراً يسوقون رجال الدين لارشاد العامة الى خيرهم ، أما الآن فمن يتصدى للوعظ ، والفقهاء المشايخ في مقدمة من قبل نساؤهم هذه العادات الضارة لايختلفن عن أكثر الموعلات بالحضاب والتفنن بالأزياء ، يقدمن على ذلك راضيات حتى لايصمن بأنهن عدوات المدينة .

حدثني أكبر أعيان دمشق في جيله أن نساء احد الفقهاء زارت أسرته في بعض الأيام التي كانت فيها الدعوة مشتدة في وجوب مقاطعة النساء الاثتار بالخبز والاستعاضة عنه بازر بيضاء ، فرأينهن يلبسن أحدث الازياء وكان صاحب بيتهن هو الداعية للبس الازار الابيض ، وجعل الاكتساء به من الدين ، حمله على الجهر بهذه الدعوة أنه كان في حانوته من هذه الازر مقدار عظيم أصيب بالكساد فرأى تزيين لبسه للنساء من طريق الدين ، وحث ازواجهن للعدول عن الخبز الاسود وغيره ، ولما أباع ما عنده خفت بل ضعفت الدعاية للبس الازار .

قلت لمن استغرب تشدد أهل نجد في استعمال التدخين ، وحظر مشايخهم عليهم من طريق المذهب استعمال الدخان على اختلاف أصنافه : لاتستغربوا صنيعهم هذا فان القوم هناك يدققون في تقدير دخلهم وخرجهم

ويدركون أنهم اذا سمحوا بدخول الدخان أرضهم وهي فقيرة يجسرون كل سنة مبلغاً عظيماً من دخلهم ويجلبون الى ابنائهم ما يفسد صحتهم وتفرغ به جيوبهم .

من المتعذر في الاقطار التي يغلب عليها اقتباس كل ماتواه جديداً (كصر والشام والعراق) ان يرد النساء قانون مادام القائمون على التنفيذ اسبق الطبقات الى نقضه ، وما بلغ النساء عندنا درجة من العقل تؤهلن الى ان يبدن من تلقاء انفسهن مثل هذه البهرجات الضارة .
وما يسر ماشهدناه في العهد الاخير من اخذ بعض العقائل والاوانس بالرجوع بعض الشيء عن الافراط في الزينة . وعدن بوازع من انفسهن يأخذن بعبادة السداجة في اللباس ومنهن من يبدن أسفن على قص ضفائهن تشبهاً بالغربيات في جعل الضفيرة شبراً وكانت من قبل ذراعاً ، ابطلن الشعور المسترسلة على نحو ما بطل صبغ باطن الكف والقدمين بالحناء ، تنقش النقاشة النساء والصبيان والبنات كما يقص النساء اليوم شعورهن عند القصاصة ويفعلن ذلك احياناً في حوانيت الحلاقين والمزينين .



مخافة مؤرخ

شارل سنيوبوس من عظماء مؤرخي هذا القرن في فرنسا تعلم التاريخ وعلمه ستين سنة كما قال عن نفسه وما تحرر من لوثات التعصب الديني فقال ان رسول الله كان جباناً سوداويّاً تنتابه عوارض من الحمى وتعرّوه نوبات عصبية ، كلام أقل ما يقال فيه انه ضرب من الهذيان لا يقول به من له ادنى مسكة من العقل .

اخذ سنيوبوس عمن تقدمه هذا الحكم السخيف على أعظم رجل قضية مسامة ، ولم تحدثه نفسه ان ينظر فيما وصمه به اعداؤه نظر المؤرخ النقاد ، على حين كان في كتبه يميز بين الطيب والحديث في أقل المسائل التاريخية ، وترجمة النبي الكريم ما استحقت ان ينظر فيها النظر المجرد عن الهوى ساعة . لاجرم ان رأيه في صاحب الرسالة من الآراء التي لقتها في صباه عن رهبان من الصعب ان ينصفوا خصمهم ، ومنهم اليسوعيون وغيرهم ، والناس كلهم ما خلقوا فلاسفة يستमितون في قول الحق .

الشعوب اللاتينية من أشد الشعوب الغربية تحاملاً على الاسلام ، واذا شهدتم من يحكم العقل من أبناءهم في آرائه فأيقنوا أنه من الشواذ ، وانه درس في غير مدرستهم ، وثقف بغير ثقافتهم ، وفتح الله عليه باباً من الفهم فسان قلبه عن الكذب ، وبرهانه من الخلط . وقد فطن لحقيقة محمد عليه الصلاة والسلام كبار علماء الانكليز السكسونيين خاصة ، وألقموا أصحاب رومية حجراً وكذبوهم وسفهوهم .

حوليات مصر

لما استقبل صديقي الاستاذ علي عبدالرازق باشا في مجمع فؤاد الأول
للغة العربية في القاهرة عضواً عاملاً خلفاً للدكتور علي ابراهيم باشا كان المعرف
به أحد أعضاء المجمع رصيفي الاستاذ عبد الوهاب خلاف فقام يعدد نواحي
ثقافته وذكر ماله من أباد بيضاء على الأدب واللغة واغفل ذكر ما كان
آية نبوغه الا وهو تأليفه كتاب (الاسلام واصول الحكم) وهو الكتاب
البديع الذي احدث ضجة في مصر وقرر العلماء من اجله اخراج الاستاذ
عبد الرازق من سلكهم ، اغفل السيد الخلاف ما يفخر به رصيفه وذكر له
ما يشاركه في معرفته كثيرون في مصر وما أتى المرّحّب بما أتى الانزولاً
على حكم السياسة ومراعاة لها . وعجيب ما حدث في الأول وما حدث
في الآخر . فإذا كان حكم العلماء الرسميين على ابن عبدالرازق صحيحاً يوم
صدر كتابه في الخلافة كيف ساغ اليوم أن ينتخب عضواً في أعظم مجمع
مصري . تناقض ما لنا الا السكوت عنه



تميز الفقير

قلت ذات مرة للاستاذ المازني تعال معي الى وزارة الصحة أعرفك الى صديقي الدكتور علي فؤاد (رحمه الله) فقد يقصدك من ترى من المروءة معالجة اسقامهم فيكون لك من الدكتور النطاسي خير معوان . فلما دخلنا على الطبيب الحبيب أوردت على مسامعه ما قلته للاستاذ المازني فقال : حقاً اني أحب الفقراء وقد جمعت من أموالهم مالاً قليلاً بارك الله لي به . وكان من عادتي اذا دعاني الأغنياء لأطببهم أتأمل وأتلكأ حتى يكرروا طلبي مرتين وثلاثاً . وبهذه المناسبة أقص عليكم قصة وقعت لي لتعذروني في عطفي على الفقراء فقال : جاءتني امرأة تصحبها ابنتها وكانت هذه ذات مسحة من الجمال الريفي فقالت لي : ان ابنتها خلفت ولدأ ، فاتسع على أثر الولادة مكان خروج الطفل بحيث لم تعد صالحة للرجال(١) وان زوجها عزم ان يتزوج من غيرها . قال فأخذت بمعالجة الجزء المنفق بالطرق الطبية المعروفة ومنها التخيط ، حتى تاكدت الفتاة من نفسها ان ذاك الجزء من جسمها رجع الي سالف عهده ، وتقدمت أمها وقالت لي هاك ثلاثة جنيهاً ، وهي كل ما قدرت ان أجمعه لك ، فرددت عليها دراهمها ، وقلت لها اصرفيها على ابنتك . والتفت الى الفتاة بمزاحاً لها بقولي : نحن ياست مستعدون كلما انخرق ان نخيطه (وللتخيط معنيان المعنى المعروف والمعنى الآخر يعرفه العوام في مصر) فضحكت الام وابنتها وانصرفتا شاكرتين مغتبطتين

(١) وقعت لنا خلال هذه المذكرات بعض معان أو الفاظ لا يقرنا على استعمالها بعض المتزمطين ومازلنا نستغرب انكارهم تدوين مثل هذه الامور ولا ينكرون ما ينشر كل يوم من القصص الغرامية الساقطة والصور المغرية الفاتنة في الصحف والمجلات والكتب كأن هذا الأدب الذي يسمونه الأدب المكشوف يفتقر اذا كان للفن وما هو بفن بل هو الفتنة بعينها

ونشبت الحرب العامة الاولى بعد حين ، وعز وجود الحبز ، لاتصل الايدي اليه الا ببطاقات وفي ذات صباح قيل لي ان بالباب رجلاً يسوق جملًا يريد مقابلتي ، وتقدم وعرفني بنفسه قائلاً انه زوج الفتاة التي اجريت لها العملية الموهودة ، فحاولت أن أظهر اني لا أعرفها فقال الريفي ان معروفك عظيم : وقيت الطفل الذي وضعته امرأتي من التشتت ، وصنت بيتي من الحراب ، ووفرت عليّ مالاً كان لا معدى من صرفه في زواج ثان ، فارجوك أن تقبل هذه الهدية التي لا تفي ببعض أياديك عليّ . فسألت الدكتور عن نوع الهدية فقال : كيسان من الحنطة وأوزة وخاروف وضيحة سمن وضيحة عسل ، واستخبرته عما كانت تساوي يومئذ ، وقدرت ثمنها ظناً بعشرين جنيهاً قال : كانت تساوي أكثر من ثلاثين . وعندها أقسمت له أن هذا المعروف الذي أسداه للريفيّة لو كان زوجها غنياً ما فكر فيه فضلاً عن أن يقابله عليه بمثله ، قال : لذلك أنا أحب الفقراء وأعطف عليهم ، وأعتقد فيهم الخير ، ثم سأله وهل كان صاحب الهدية موسراً ؟ قال أنا سألت هذا السؤال كان يملك بضعة فداين فقط .

وهذا هو الرجل

اليهود في فلسطين

كتب إلي هذا العام أحد المستعربين من علماء المشرقيات يقول :
والعجب العجاب في كل هذا أن وراء كل هذا التحاسد في الباطن (بين الدول الكبرى) اليد الطولى لليهود الذين انتشروا منذ الفي سنة في العالم الحضري مثل القمل في البدن الصحيح وتعلمون كيف ثاروا في القرون الاولى على الروم في فلسطين في الحرب التي حصلت في الخراب الثاني للقدس وكذا في القرون التالية والآن هم في ايامنا يملكون في اميركا الذهب والاعمال المالية وفي روسية هم رؤساء كثير من الاشغال العمومية وكذلك حالهم عندنا - وانتم تعرفون ما يقع في فلسطين - لا يجسر وزير ولا مدير جريدة أن يلوم يهودياً في أي عمل عمله وكذلك وراء البحر المحيط . ومن المعلوم ان اخلاق اليهود في الأكثر فاسدة وهذا الفساد يحمل عداوة لا رحمة فيها وهم يملكون الجرائد والسينما والمواخير وما يشبهها حتى في الصين والبرازيل يجلبون الآنسات من الاقطار كما كانوا يتجرون بالخضيات والجواري في القرون المتوسطة . ولو نظرنا فيما يكتب هذه الايام في جرائد بلادنا بشأن المساعدات للبلاد التي افتقرت في الحرب ، لرأينا أن وراء كل هذا الحرص على الربح الفاحش اذ ليس في قلوب الذين يقدمون هذه المساعدات حبة من كرم الاخلاق وما غايتهم إلا الربح الزائد ، وكل هذا يملأ قلبي بالأس من مستقبل الامم وأنا أحمد الله على أني رأيت في شببتي العصر الذهبي الذي لا رجاء لعوده الى ان أرجع الى حياة أصلح من هذه .

اللحمى والشوارب

في سنة ١٨٩٨ زار الشام الامبراطور غليوم الثاني الالمانى فأعجب شابنا بهندامه وتبرجه وهالهم حفه شاربيه بحيث لم يبق من طرفيهما الا قليلاً فغمرهما بعد قتلهاما بدهن مطيب وما هي الا أيام حتى اقتدوا به في شواربهم وعدلوا عن السبلات المسترسلة وكانوا يشطونها ويرطونها كما يشط اهل اللحمى حاهم ، وبطل زى الشوارب على ما قدر الله وقضاه .

كان الناس يبقون على اللحمى في العادة وتعلموا على الأيام حلقها ، اقتبسوه من الأتراك والافرنج والى القرن الماضي كانوا يستفظعون حلقها . ولما جاء السلطان سليم الى مصر ليضمها الى ملكه كما ضم الشام عجب المصريون منه ومن جنده وضباطهم ، لانهم كانوا يخلقون حاهم ، واللحمى عندهم تقتل الحكمة والتعقل وعلى ذلك كان ينظر اليها عند الكلدان والاشوريين والعبيرانيين وقدماء فلاسفة الهند ، ومشى على آثارهم فلاسفة اليونان والعرب في الاسلام .

في الحديث أنهمكوا الشوارب واعفوا عن اللحمى ، وفيه : خالفوا المشركين : وفروا اللحمى واحفوا الشوارب . ولما بعث باذان عامل كسرى على اليمن الى النبي عليه السلام رجلين من قبله نظر اليهما وقد حلقا حاهما وشواربهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا قالوا : ربنا ، يعنينا كسرى فقال لكن ربي امرني ان اعف عن لحيتي وأقص شاربي .

وما فتىء الحال في الشعوب الاسلامية والنصرانية والوثنية يختلف بين حف اللحمى واطلاقها حتى عصرنا هذا ، وقد متع فيه كل انسان بحرية التصرف بلحيته يبقياها او يزيلها ، ومنهم من كان يقتصر على قبضة ومنهم من يبلغ الى قبضتين . ورأيت شيخاً من مشايخ الطرق أطلق لحيته حتى تجاوزت حد الحالين وكان موضع استغراب النساء والاولاد يلفطون فيه ويسخرون كلما رأوه . وكنت اذا وقع نظري عليها اذكر

لحبة ضياء الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٨٠) وكانت طويلة جداً بحيث
تصل الى قدميه وما ينام الا وهي في كيس ، وكان اذا ركب يفرقها
فرقتين . وكان عوام مصر اذا رأوه قالوا : سبحان الخالق . فكان يقول :
عوام مصر مؤمنون حقاً انهم يستدلون بالصنعة على الصانع .
وبعد فالخطب سهل في لحى الرجال فما قولك اذا كانت للنساء لحى
ولحى طويلة . كنت قرأت في صحيفة افرنسية ان النساء في بعض
مقاطعات فرنسا - أنسيت اسم المقاطعة - تنبت لهن لحى كالرجال ، ورسمت
صورهن وكانت اقصر قليلاً من لحية شيخ الطريقة ذاك . فتأمل امرأة
بلحية تتجاوز القبضتين .

واللحى على الدهر عزيزة على من يطلقونها ، ومن شتم بلحيته فكأنما
شتم بأعز عزيز عليه . فقد أراد بطرس الاكبر قيصر روسيا ان يكره
شعبه على قص لحاهم فكاد يفقد عرشه ، ولما أمر أمان الله خان
ملك الافغان بخلق لحى رعيته فقد عرشه ، وعدوا عمله تعدياً على شرفهم . وفي
أدبنا أشياء في اللحي ومن أجمل ما قال ابن الرومي في هجو صاحب لحية
ان تطل لحية عليك وتعرض فالخالي معروضة للحمير
علق الله في عذاريك مخللة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها الي لطارت في مهب الرياح كل مطير



الجمع بين الثقافات

قالوا ان كل لسان بانسان أي أن لكل لسان ثقافة تختلف من بعض وجوها الثقافة الأخرى ، فاذا انضمت الثقافتان كان الكمال الذي يصعب الحصول عليه بلغة واحدة ، وانا اذا أمعنا النظر في تفكير من لم يتعلم غير لغته تجده مها بلغ من أحكام الثقافة متى جئته بأمر يتوقف على معرفة شيء جديد موسَّع النطاق حائراً يشعر هو بنقصه كما يشعر به مخاطبه كأن هناك عالماً ما دخل فيه وأرضاً غير أرضه ذات حواجز يتعذر عليه تخطيها .

جرت عادة أكثر شعوب اليوم أن تدرس من اللغات ما يعوزها وعلى هذا كان العالم منذ أقدم العصور ، وكان في الدراسة الماضية كثير من الفوضى وفي دراسات اليوم نظام وتنسيق ، فالهولاندي يدرس لعدنا منذ الطفولة مع لغته الالمانية والانكليزية والفرنسية ، والروسي يدرس الالمانية والفرنسية ، والايطالي الالمانية والفرنسية ، والبولوني الروسية والالمانية والانكليزي الالمانية والفرنسية ، والفرنسي الانكليزية والالمانية وهكذا يأخذ كل شعب ما يعينه من اللغات على كسب رزقه وعلى مطالب أخرى ، وانتشار كل لغة على مقدار قوة سياستها واتساع تجارتها ورواج صناعاتها .

والأمة كيف كانت الحال لا تضرها قلة المتكلمين بلغتها بقدر ما يضرها جهلهم وتأخرهم ، فمن يتكلمون البرتغالية والاسبانية اوفر عدداً ممن يتكلمون الفرنسية، والفرنسيس ارقى ممن يتكلمون لغتي جيرانهم في أوربا وجنوبي أميركا، والسويديون والنرويجيون والبلجيكيون والهولانديون والدانمركيون والسويسريون والفنلانديون ارقى من أمم يعد سكانها بمئات الملايين كالفنود والصينيين والاندونوسيين .

وعُني العرب منذ القديم بتلقف بعض لغات جيرانهم فمنهم من كان يتكلم الفارسية والسندية ، ومنهم من أختص بالرومية والتركية والنبطية والبربرية ، ومنهم من تكلم القشتالية واللاتينية وغيرهما من اللسان الرائجة ولما اقتطعت من جسم الهند العظيم في القديم أمارات اسلامية راجت فيها الفارسية والعربية ، ولما توطدت أركان مملكة فارس في العهد الحديث راجت الفارسية بين الشعوب التي خضعت لها من العرب والاكراد ، وكذلك شأن التركية مع العناصر التي اندمجت في الدولة العثمانية ، ولما انفصلت رومانيا واليونان وصربيا وبلغاريا والبانيا ثم بلاد العرب عن دولة آل عثمان نُسبت في تلك الممالك لغة الترك في مدة قصيرة ، لان التركية ليست لغة علم ولا سياسة ولا تجارة ، واكثر من كانوا يتكلمونها من العناصر الاخرى غير التركية كانوا يقصدون من تعلمها الدخول في الوظائف ، والموظفون فئة ضئيلة بالقياس الى مجموع كل عنصر . ولما تحضرت اليابان والهند بالحضارة الانكليزية راج في بلادهما اللسان الانكليزي ولما عهد الانتداب في العراق وفلسطين وشرقي الاردن الى انكلترا راجت فيها اللغة الانكليزية ، ولما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان زادت فيها العناية باللغة الفرنسية حتى اذا انقضت أيامه أخذت الانكليزية تحل محلها لانها أنفع للشاميين في تجارتهم وعلائقهم مع اميركا وانكلترا والشرق الاقصى واوستراليا وكندا وجنوبي افريقية ، وبقيت الفارسية والتركية في العراق والشام مقصوراً استعمالهما على أفراد وعدد من تعلموها ينزل سنة عن سنة في القطرين العربيين .

ولا مناص لكل امة صغيرة كانت أو كبيرة من تعلم لغتين على الاقل ، ومن الأمم الصغرى في الغرب من يتكلم بنوها ثلاث لغات فاكتر ويسهل عليهم تلقف لغات غير لغاتهم لما اهدوا اليه من الاساليب السهلة في التعليم فيخرج الطالب في أشهر قليلة بما يلزمه للتفاهم باللغة التي تعلمها وقد يصرف سنتين أو ثلاثاً فيتقنها بما يقرب من اتقان أهلها ويحكمها كل الاحكام اذا كتب له ان يختلط باهلها زمناً .

ومن المجمع عليه في الغرب ان البولونيين كالشاميين من الشعوب التي تتقن لغات شتى لان لسانهم مجهز بالنبرات اللازمة ، ومخارج الصوت تامة عندهم ومن السهل اتقان لغة اصولها واحدة مع لغة اخرى كالهولندية مع الالمانية والفرنسية مع الايطالية والاسبانية مع البرتغالية والسويدية مع النرويجية والبلغارية مع الصربية . والانكليز والفرنسيين أقل الامم تعلماً للغات ويتعذر عليهم النطق الصحيح بلغة اجنبية خلافاً للامان والطيان . يتساهل العرب لعهدنا باتقان لغة الفرس كما تساهل الفرس باتقان لغة العرب منذ القرن الثامن من الهجرة وتاريخ الفرس والعرب متلازمان ، وعسى ان تزيد العناية بتلقين هاتين اللغتين في الجامعات العربية : (الاسكندرية ، القاهرة ، دمشق ، بيروت ، بغداد) كما يعنى بتدريس الاسبانية والبرتغالية حرصاً على الروابط القديمة والحديثة بين الشعوب العربية والفارسية ، والعرب والشعوب البرتغالية والاسبانية .

يقول مهاتما غاندي ، ليست دراسة منظمة للثقافات الآسيوية باقل وجوباً في اكتساب التربية الكاملة من دراسة علوم الغرب ، فينبغي أن نبحت عما في السنسكريتية والعربية والفارسية والبالية والماجادية من كنوز ثمينة لنظفر بأسرار السؤدد الوطني ، يجب ان نبني ثقافة جديدة على ثقافات الماضي التي نمت واثرت باختبارات العصور وتكونت هذه الثقافة مركباً من مختلف الحضارات التي فعلت بالهند وانفعلت بروح الاقليم ولا يصنع هذا المزيج على النمط الاميركي والثقافة المسيطرة في اميركا استغرقت كل ما عداها وقضت عليه ولكل ثقافة حقها ومكانتها والفسد هو التآلف والوفاق لا اصطناع وحدة عنوة وجبراً اه .

العبارة العالی

یحكم علی عظمة امة بوفرة من نبغ فیها من العبارة العالی فی العلوم والآداب والسیاسة . وقبل هذه النهضة العربیة لم یکن فی اقطارنا من هذا العبارة إلا افراد قلائل فی کل قطر وزاد العدد علی قدر امعان العرب فی الاخذ من علوم الغرب . فینا أبناء مصر من العبارة العالی لسبقها غیرها الی تلقف العلم الحدیث ، وقبل النهضة المصریة الأخیره کان یندر ظهور العبارة العالی فی المصرین کما یندر فی غیرهم .

العبارة العالی فی القطر المصری یشهر القرن بعد القرن وعبارةهم عال بالقیاس الی زمنهم لا بالقیاس الی هذا الزمن . کان الحال فی مصر علی ذلك منذ عهد الفراعنة فالرومان فالیونان فالعرب وما عرف منهم الا من خلفوا آثاراً عملیة فی الهندسة والتشریع .

وعدوا من رجال العبارة العالی فی الاسلام من اتقنوا علوم الشریعة وما لیاها . وما عهد ان زاد عدد رجال الفکر والعلوم المادیة فی قطر من الاقطار العربیة بقدر ما کان یزید عدد رجال الدین ، وکان من یتعلم علماً غیر دینی فیدافع شخصی وبعامل من العوامل الی تخرج الرجال رغم ارادتهم احياناً . وما کل من اشتهروا هم اهل للشهرة وما کل من خملت اسمائهم لایستحقون من المکانة اکثر مما وصلوا الیه .

قد ینبغ فی بعض الأعصار والاقطار رجال احریاء ان تقرن اسمائهم الی اسماء العطاء وامتاز من سمیناهم النبغاء فی مصر من كانوا رجال عمل علی الأكثر یشهرون بالمظهر الی یمجب ان یشهروا فیہ وفي الزمن الی یتحتاج مصر الی ظهورهم وقد اشتهر فی وادی النيل زمرة تعد مفخرة فی الفلك والطب والجراحة والقضاء والهندسة وکان اشتهار بعضهم باتقانهم معرفة السلوك الی طریق الشهرة ، ومنهم من شهرتهم احوال خاصة ،

ومنهم من دانوا بشهرتهم للسياسة ، ومنهم من انقص اشتغالهم بالسياسة من مكانتهم العلمية .

وكان معظم من ذهبوا بفضل الشهرة في مصر لعهدنا من رجال المحاماة رجحوا من مهنتهم هذه ارباحاً عظيمة واغتنوا ، ومن اغتنى كان على جانب من ثقوب الذهن وسعة الخيلة جاء منه العيار العالي ، ومن اعتاد حل المعضلات قوي عقله ، وفي المران على الخطابة مايساعد صاحبها على التأثير في نفوس العامة ، وكان من هذه الطريق يصل رجال المحاماة الى دكات النيابة ومقاعد الحكم بما لا يكتب مثله لمهندس ولا لطبيب ولا لزراعي وصناعة هؤلاء عملية وتستازم صتماً وتلك تقوم بالبلاغة والتحليل لاسقاط حجة الخصم . ومن الاعلام من كانوا على صفات عظيمة تؤهلهم للتأليف والبحث في فنههم فحالت مناصبهم دون نشر ماجمعوه في عملهم من تجارب . ومنهم من اذا اجتمعت اليهم سمعت من احاديثهم مالا تقرأ مثله في اعظم التأليف امتاعاً ، يملون عليك في ساعة مالا تقع على مثله في المؤلفات المنقحة . وليس اصحاب هذه الطبقة التي يبهرك استحضارهم وبدييتهم اذا تكلموا أقل عدداً من الفئة التي دعتهما الحاجة الى التأليف والتصنيف وتمحضت له بحكم عملها

خطر في بالي وأنا اكتب هذا عشرات من الرجال في مصر خاصة لو انهم كوا في ابواز تجاربهم لاغنوا الخزانة العربية ببنات افكارهم واغنوننا عن الرجوع الى كتب الغربيين في معظم مايهننا الجولان فيه . ولا اقول ان المال والجاه شغلا هؤلاء الجماعة عن كل أمر آخر شطراً كبيراً من حياتهم فتركوا في وضع مايجب عليهم اصداره بل اقول ان الاقدار تصرفت بقرائحهم هذا التصرف فجاء منهم ماشاء القدر لا ماشاؤاهم وشاءت أمتهم منهم ، فضاعت بعض الفائدة المرجوة من نبوغهم ، ولو تعلقت القدرة بانفاق جانب من عنايتهم بكبت مااهتدوا اليه من اسرار لكان منهم النفع للعلم وللمجتمع العربي .

لايتسع عمر المرء حتى يأتي منه الكمال المطلق في رعيال الرجال

النابعين مادامت الطبيعة تقوي في الانسان بعض المذكات وتضعف فيه اخرى على ما لا يتعلق به اختياره . وقد تعد في قرن من القرون في مملكة كبرى مئة من النوابع في الفنون المختلفة لا يشتهرون كلهم شهرة يسلم لهم بها معاصروهم ، فهل هم كذلك ياترى ، ام العناية لاحظت عيونها بعضهم فقدمتهم وغفلت عن بعضهم فأخرتهم ولا يتفوق الاول عن الثاني الا بسبب من اسباب الاشتهار ، ويمتاز المشهور عن المغمور بأمر لا تدركه الأبصار ولا يضبطه حساب ولا يدخل في قياس .

كلما اردنا التنظير بين رجال العيار العالي من العرب وامثالهم من امم الافرنج تتضح لنا صعوبة التشبيه كما يصعب الجمع بين نقضين فما نعدده مزية نادرة في نابغتهم قد لا يكون ما يماثله في نابغتنا . وما ندري هل يعود قسم من هذا التمييز الى ان العلم تسلسل في الافرنج على ما لم يتسلسل في العرب . والعلوم التي عانتها الأمم الحديثة غير التي مارسها العرب . وقد لا يتشابه علم وعلم كما لا يتشابه أدب وأدب ، وعلى كل منها يطلق اسم العلم واسم الأدب . واذا رجحت كفة علوم الدنيا في الأمم الغربية وكان للعلوم الدينية في العرب الشأن الاول ابدأً أخذت الأولى باسباب الرقي وتدنت الثانية بما اكتفت به من اساليب لم ترفع من عقول بنيتها ، ثم أصابها التدني ايضاً في الذي ما حرصت على حفظ غيره وكان انحطاطها في الشق الآخر داعياً الى انحطاطها الانحطاط الشامل .

وفي العصور التي تمزق فيها ملكتنا وانقسم الى امارات ودويلات لم يبق لنا مركز مهم يفزع اليه أرباب العقل بل ان المراكز التي نفاخر الآن بنهوضها كالقاهرة ودمشق وبغداد كادت تصبح كالقرى ، وفي القرى لا يرجى ان يبث العلماء دعوتهم ولا يجدون فيها من يحميهم ولا من يقدر عملهم قدره . ليت لنا طرف زرقاء اليمامة لنبصر ماستكون عليه ديار العرب بعد جيلين أو ثلاثة ، ايكثر النوابع منا على مثال مانرى من العيار العالي عند الافرنج يخلدون باعمالهم العظيمة لبالقياس الى ثروة امتهم وكثرة سكانها ، ام ينقلب العلم كله عملياً لاشأن فيه لغيره من المطالب .

(١)

رحلة الى المريضة المنورة

البلقاء

على نحو مائتين وأربعين كيلومتراً من جنوبي دمشق بين نهر الاردن غرباً وزملة العليا في طريق الحج شرقاً ونهر الزرقاء شمالاً ووادي الموجب جنوباً اقليم واسع خصيب سهلي جبلي اسمه البلقاء طوله من الشمال إلى الجنوب ١٨ ساعة للفارس المجد وعرضه من الغرب إلى الشرق ١٦ ساعة أو نحو مئة كيلومتر في مئة كيلومتر ، وقد حد القدماء اقليم البلقاء بانه بين الشام ووادي القرى وقالوا أن فيه مدناً عظيماً كثيرة وأن قاعدته عمّان وقيل إن السلط او الصلت هي راموت جلعاد احدي مدن الملجأ ومدن اللاويين المذكورة في الكتاب المقدس وربما اشتق اسمها الحاضر الصلت من لفظة لاتينية « سالتوس » ومعناها الجبال المشجرة وكانت فيما مضى مدينة أسقفية في العهد المسيحي وقد دك المغول قلعتها ثم أعاد بناءها الظاهر ببيروس البندقاري .

والصلت على منحدر بين جبلين متناولين أشبه بمدينة زحلة في لبنان وكانت خالية من الحدائق والبساتين فتوفرت همّة أهلها على استثمار الأشجار والبقول فجاد أكثرها بما عندهم من العيون التي تروي زروع الوادي اما ما كان وراء المدينة من التلعات والآكام فقد كان حراجاً إلى عهد قريب وآثار بعض سنديانه وملوله ما برحت ماثلة للعيان ولكن القوم قطعوها واستعاضوا عنها بزراعة الكروم التي يعد عنها وزبيبها اجمل ماتحمله هذه الشجرة المباركة في سورية وقد يكون العنقود الواحد رطلاً شامياً وأكثره بلا بزر . يصدر من زيببه ما تقدر قيمته كل سنة بنحو خمسة عشر الف ليرة

(١) في هذا الفصل زبدة ما كتبه يوم رحلت الى المدينة قبل نحو أربعين سنة .

وفي جوار الصلت قليل من شجر الزيتون سألنا احد شيوخهم عن السبب الذي دعا الى عدم استكثار القوم من غرسه فقال لانذكرنا بغباوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين احد متصرفي نابلس ايام كان قضاؤنا تابعاً لنابلس على ان نغرس في هذه الاودية التي تراها مائة الف زيتونة فوق في انفسنا ان في الامر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل اراضينا على صرورة لانهود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالامر في الظاهر وغرسنا الوفاً من شجر الزيتون ، ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد ؟ كان احدنا يجيء ليلاً الى غرسة الزيتون فيحركها حتى لاينمو جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون الا ما تشاهده اليوم في جوار القصة وقليل ما هو . قلنا وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالامس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار ويزينون لهم اقتناء الأراضي للزراعة واليوم يطلب الاهلون في هذا القضاء وفي غيره الأراضي الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم وكذلك الحال في كل مكان نزلناه في طريق يثوب فان الاهلين احسوا بفوائد الأرض هكذا رأينا اهل الشراة من أعمال الطفيلة ومعان وهكذا سمعنا شكوى اهل الكرك وتبوك ومدائن صالح ، اجمع على طلب ذلك الحاضر والبادي وفي قانون الأراضي ان كل من يحيي أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والداكر مقدار ما يسمع الصوت فهي له .

قرأنا سطور الهمة والنشاط في وجوه الصلتين مسلمهم ومسيحيهم وان كانت القاعدة في سورية على الاغلب ان يكون المسيحيون أكثر نشاطاً وتعلماً من اخوانهم في الوطنية . وبلدهم هذا ساعدته الطبيعية فساعدتها اهله أيضاً ودخل في طور العمران وبوشك أن يعد في جملة العظيمات من المدائن والبلدان .

وسكان مدينة الصلت اليوم (يوم زرنها) نحو ١٦ الف نسمة يبلغ المسيحيون منهم على اختلاف الطوائف نحو اربعة آلاف ومعظمهم الى

اليوم يلبسون زياً كزي أهل حوران وهو كوفية وعقال وعباءة وجزمة حمراء وعادات القوم هنا أشبه بعادات البادية مع أنهم حضر . وفي الصلت قليل من الصناعة وتجارتها واسعة مع القبائل النازلة في البلقاء والرحالة في تلك الأرجاء . وبين عمان على الحظ الحجازي والصلت نحو خمسة وعشرين كيلومتراً جعل بعضه من جهة الصلت طريقاً معبداً ومتى أكمل تسافر العربات والسيارات بين الصلت والحظ الحديدي في ساعتين وهي الآن أربع ساعات على الدواب وإذا تم اتصال الصلت بالقدس بطريق معبدة تسير عليها المركبات أيضاً تعمر الصلت عمراناً مهماً وهي على بعد ٤٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من بيت المقدس و ٤٠ ميلاً الى الجنوب الشرقي من نابلس ونحو ١٨ ميلاً شرقي الاردن ومن سوء حظ هذا القضاء ان معدن الفوسفات الذي نال امتيازاً بتعدينه من جبل السرو في منتصف الطريق بين عمان والصلت المهندس نظيف الخالدي المقدسي على ان ينشيء فرعاً بالحظ الحديدي من الصلت الى عمان يتصل بالسكة الحجازية ومرفأً حيفا - من سوء الحظ ان قد حسبوا نفقاته فوجدوها لا تقفي بها وارداته ولعل الحكومة تتساهل بعض الشيء في شروطها لتقوى عزيمة تلك الشركة على استثمار هذا المعدن من قضاء الصلت فيتسنى لها أو لشركة أخرى تعدين سائر المعادن التي حبتها بها الفطرة .

على نحو ساعة من قصبة الصلت منظر من أجمل مناظر سورية ونعني به جبل يوشع الواقع على علو ١٠٩٦ متراً عن سطح البحر وهو مشرف على جزء عظيم من فلسطين يمتد أمامك وادي الاردن كأنه بساط ذو ألوان كثيرة ومن خلال ذلك نهر الأردن تراه كالحية بتلويه حتى يصل الى البحر الميت أو بحيرة لوط . ومن النبي يوشع تشاهد جبل الزيتون في الشمال الغربي ويقابلك جبل عيبال وجرزيم ثم جبل الطور وما يناوحوه من الجبال المحيطة ببجيرة طبرية ومن بعيد جبل الشيخ وبه تنتهي هذه المنظرية من الشمال

ويقول العارفون من الافرنج ان الاعتقاد بالنبي يوشع الذي يذبح له البدو ويتقربون اليه هو من التقاليد الاسرائيلية القديمة وان بناء قبره يرد الى زهاء ثلثائة سنة . وليوشع مقام أيضاً في جبل نابلس قرب قرية حارث . وجبل يوشع في البلقاء أشبه « بيوشع تبهسى » أي ذروة يوشع في قرية بكوز المطلّة على بحر مرمرّة وخليج القسطنطينية . هذا منظره بحري وذاك منظره بري . ومن غريب التقاليد ان البدوي يحلف بالله ولكنه لا يحلف بشعيب . ومقام شعيب على ساعتين من الصلت أيضاً .

كانت عمان قسبة البلقاء فانحطت في أواخر القرن الماضي بما تواتر عليها من الزلازل وغارات البادية حتى جلا عنها بقايا سكانها الاصلين فانزلت فيها الحكومة ستائة أسرة من الجركس من عشائر مختلفة هاجروا الى البلاد العثمانية من ولاية كوبان الروسية وأخذوا يردون غارات البادية واعتمدوا في عمرانها على مضائهم وشجاعتهم وبنوا على انقاض مدينة ضخمة قرية لهم وساعدتهم مياه نهر الزرقاء فغرسوا الاشجار وأنشأوا الحدائق وأتوا بطريقهم المألوفة لهم في الزراعة ببلادهم وقد هلك منهم أناس كثيرون بالقتن والامراض حتى توطدت اقدامهم واغتنوا واصبحت الحكومة بعد أن كانت تأخذ من عمان مئة ريال في السنة تتقاضى نحو ثلاثة آلاف ليرة ولا تلبث أن تزيد بزيادة عمران عمان واتساع تجارتها على أيدي النشيطين من النابلسيين والدمشقيين ومعظم تجارة البلقاء في أيديهم اليوم .

نقول انها كانت مدينة عظيمة والدليل ان انقاض دار تمثيلها كبيرة جداً تكفي لجلوس ثلاثة آلاف نسمة وفي مسرحها ٤٥ صفاً على شكل نصف دائرة وفيها آثار قلعة مهمة ومعظم بيوتها بنيت باحجار المدينة القديمة وكذلك قرية رأس عمان الحديثة الواقعة على قيد غلوة من عمان الحديثة وسكانها جراكسة أيضاً .

لاجرم أن الجركس ادخلوا روحاً جديداً الى هذا القضاء من التوفر على الزراعة والنشاط المستمر وان الاهلين تعلموا منهم بعض الشيء الا أن عمال الحكومة أساءوا الاستعمال فسلبوا ما كان للاهليين من الاراضي

والمزارع العامرة ليعطوها المهاجرين الجركس والششن والتركان كما فعلوا
بعين صويلح وعيون الحمر وكانتا مسجلتين باسم أصحابهما فاعطتهما الحكومة
للمهاجرين وأخذ المهاجرون الناعور ووادي السير والزرقاء والرصفة وغيرها .
صبر الناس على هذا الجور زمناً حتى صحت عزيمة بعض عشيرتي الحرشان
والجبور على أن يزرعوا الموقر والعليا والتقيرة وهي على نحو ثلاث
ساعات من شرقي معان يسير في اراضيها الراكب عشر ساعات كما ان
بعض الصلتيين يزرعون اليوم في سهل الكبد في الغور وهذا السهل جيد
التربة جداً لا حجر فيه ولا مدر ولو احبت الحكومة احياء الموات
حقيقة لأوعزت للاهلين ان يحجوا اراضي الموقر والعليا كلها فان فيها
زهاء الف برّ معطلة تحيا بعناية قليلة .

وأعظم عشائر هذا القضاء بنو صخر وهم ينتقلون بين الغور في الشتاء
وأراضي البلقاء العالية في الربيع وفي الصيف يتوفرون على حصاد
الارضين التي لهم في جهات الزيزاء ومادبا وهما مديريتان تابعتان للصلت ،
كما أن عمان مديرية تابعة لها أيضاً ، ونفوس قضاء الصلت المحررة ٤٢ الفاً
ولو أحصي بنو حسن وبنو صخر والبادية لبلغ سكانه مئة الف أويزيدون
ولو ارتفع فيه علم الامن كما يجب وأعطيت الارض الموات للاهلين
وسجلت عليهم بحيث لا ينازعهم فيها منازع لأن أكثر المنازعات تثور
على الاراضي - لبلغ سكان هذا القضاء نصف مليون نسمة بعد عشرينين .
وأهم العاديات التاريخية في هذا القضاء قصبة مادبا فقد كانت كاحدى
الحرب منذ نحو ستين سنة فهاجر اليها جماعة من مسيحي الكرك أعطتهم
الحكومة اياها خربة فعمروها فما هو الا أن وجدوا فيها آثاراً مهمة
مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على الجانبين وبيننا كانوا يحفرون في
انقاض الكنيسة ليقيموا كنيسة جديدة عثروا سنة ١٨٩٧ على قطعة من
الفسيفساء في الصحن فرفعوا عنها المعاول وأزالوا ما كان علق عليها بتوالي

الايام من التراب والاحجار فاذا هو أثر عظيم من آثار القدماء ، هو مصوّر فلسطين وما فيها من المعاهد المقدسة والكنائس ولو سلمت كلها من معاول الذين حفروها لبلغ ثمنها المليونين والثلاثة من الليرات ولكن القطعة الصالحة الباقية منها تدل على تلك المدينة القديمة التي تمتعت بها مادبا قديماً منذ عهد الاسرائيليين الى الموابيين الى العرب النبطيين الى المكابيين وكانت في عهد هؤلاء قلعة مهمة واستولى عليها هيركان ملك اليهود قبل المسيح وأصبحت على عهد الرومانيين جزءاً من بتر أو العربية الصخرية ، وآثار الفسيفساء كثيرة في هذه القرية رأينا بعضها في الدور الخاصة تلمع فتأخذ بالابصار ، أما أنقاض دورها ومعابدها وأحواض مياهها فحدث عنها ولا حرج وقد دخل أهلها في المدينة اليوم وليس بين سكانها أناس من المسلمين الا بعض باعة وحرثين .

قال ابن خرداذبة ان ظاهر البلقاء كان كورة من كورة دمشق كما ان جبل الغور وكورة مآب وكورة جبال وكورة الشراة وكورة عمان كانت كل منها اقليماً برأسه قال الشاعر :

سلم على دمن أقوت بعمان واستنطق الربع هل يرجع بتبيان
قال ياقوت ان مدينة جرش هي شرقي جبل السواد من ارض البلقاء وعرف السواد بانها نواح قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها وفي أرض البلقاء عدة بلاد ورد لها ذكر في التاريخ العربي ، مثل قرية جادية التي ينسب اليها الجادي وهو الزعفران ، وقرية مؤتة من المشارف التي كانت بها تطبع السيوف المشرقية ، والموقر الذي كان ينزله يزيد بن عبد الملك قال كثير :

سقى الله حياً بالموقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات المحارب
والقسطل نزله الوليد بن يزيد وهو قرب البلقاء وخلفه فيه عمه العباس وكان الوليد يستوطن الزيزاء ، وفي البلقاء قصر الأزرق ، والفدئين قريب من حصن الازرق والفدين قيل انه من عمل حوران ومعظم الروايات على أنه من عمل البلقاء .

العمران والسكة الحجازية

ان كان لدور الاستبداد حسنة فاعظم حسناته سكة حديد الحجاز التي مدت في عهد الخلع وبترين قرينه أحمد عزت باشا العابد وانتهى منها حتى الآن القسم الاعظم من دمشق الى المدينة المنورة وطوله ١٣٠٣ كيلو مترات ومن حيفا الى درعا ١٦١ كيلومتراً فانفق عليها فيما بلغنا ثلاثة ملايين ليرة ونصف مليون صرف قسم مهم منها في مدينة دمشق فانتفع منه الملتزمون والتجار والزراع والعملة وبعض أرباب الصناعات والفنون وانفق القسم الأعظم في ثمن أدوات وقاطرات ومركبات وحديد من معامل اوربا

وما كاد ينتهي الخط الى المدينة حتى نهضت البلاد بعض الشيء ولاسيا دمشق والمدينة وحيفا نهضة اقتصادية لا يستهان بها وحسن حال التاجر والمزارع وسارت الامور الاقتصادية على نسق مرتب معقول فلم يعد في التجارة ذاك الكساد الذي نعهده في دمشق ولا التقهقر الذي كان في حيفا ولا الغلاء الفاحش في أسعار المدينة وهكذا انتفعت المحطات على طول الخط من دمشق الى المدينة وعددها ٧٥ محطة ومحطات حيفا ودرعا وعددها ١٥ فأخذت كل محطة بقدر حظها من العمران وانتفع منها في الأكثر ما كان له أثر قديم في الارتقاء

نعم ان من المحطات ما لاينبت فيه شيء بحسب الظاهر ولا تمطره السماء الاساعات غير معاومة في السنة ولاسيا بعد أرض البلقاء وهوؤها جاف حار محرق وعمرانها متوقف على عمل كثير طويل ومال غزير فامثال هذه المحطات تترك الآن وينشط كل من يود اعتمار الأرض الموات قرب المحطات وانشاء دور وحوانيت فيها ولو فعلت الحكومة لاستغنت مع الزمن عن حراسة هذا الخط بكتائب من الجنود ترابط على طول السكة واقامة اثنتى عشرة قلعة من الهدية الى المدينة وهي اليوم تجعل في كل قطار يسافر من بعدلواء حوران الى المدينة جملة من الجند النظامي المسلح لحماية الركاب من عيث البادية اذا حدث حادث

نقول عبث البادية ولو أعملت الحكومة الفكر منذ اليوم الذي نوت فيه تمديد هذا الحُط الحربي الديني التجاري لأوسعت لهم من تلك السهول الحُصيبة في لواء الكرك ما كانوا استغنوا بزراعته عن شن الغارات وايداء السابلة طمعاً في اقتناص ما يتبلغون به ولتوفر واعي تربية مواشيهم وزروعهم كما يتوفر اليوم بنوحسن في قضاء عجلون وبنوصخر في قضاء الصلت والحويطات في معان والمجالي والضمور والطراونة في الكرك وغيرهم في غيرها وكل هؤلاء من العرب الرحل يتأنسون بقدر ما يدخل النور على أولادهم ويستمرؤن ارباح الزراعة والماشية ولاشك انهم يعدلون بته عن الغارة كلما أسكنت الاصقاع التي في جوارهم وخف الاعتداء عليهم .

بعض اعمال الكرك

قال الظاهري واما المملكة الكركية فليست هي من الشام وهي مملكة بمفردها وتسمى مآب وهي مدينة حصينة معقل من معاقل الاسلام بها قلعة ليس لها نظير في الاسلام ولا في الكفر تسمى حصن الغراب لم تكن فتحت عنوة قط وانما فتحها المرحوم صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد فتح القدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكانت بيد البرنس ارنلط وكان يتعرض الى حجاج بيت الله الحرام . وقال ان الشوبك كانت مدة بيد الافرنج وهي مضافة الى الكرك وحصينة أيضاً ومسيورة معاملة الكرك من العلى الى الزيزاء مقدار عشرين يوماً بسير الابل وهي بلاد عدية بها قرى كثيرة ومعاملات والمسلك اليها صعب في منقطعات قليلة الماء حتى انه اذا وقف أحد على درب من دروبها يمنع مائة فارس اه . بلدان في لواء الكرك طالما سمعنا بهما وهما قصبة الكرك وقصبة الصلت فالأولى كنا نتوهمها أهم بما رأيناها والثانية رأيناها أهم مما سمعنا به من وصفها . وأذرح خربة لاساكن فيها وكانت من المدن العامرة قبل الاسلام وبعده . وذكر المقدسي انها مدينة متطرفة حجازية شامية وعندهم بردة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعهده وهو مكتوب في أديم وبذلك

يستدل انها كانت عامرة في القرن الخامس للهجرة بل عامرة الى عهد قريب وكانت هي ومآب مدينتي الشراة وأرض الشراة من الشوبك الى رأس النقب كما يحددها الاهلون اليوم أي مسيرة يوم طولا وعرضها ساعتان وهي الأرض المفلوحة مؤلفة من تلعات وأودية وفيها عيون غزيرة لاتقل عن أربعين عيناً لاينتفع باكثرها وقسم منها الآن في عمل قضاء الطفيلة والآخر في قضاء معان وعلى جنوب الشراة بلاد طيء أو جبال طيء وهي الحد الجنوبي لسورية كما عرفها العرب قال حاتم الطائي وقد اغارت طيء على ابل للحارث بن عمرو وقتلوا ابناً له :

الا انني قد هاجني الليلة الذكر وما ذاك من حب النساء ولا الاشر
ولكنني بما أصاب عشيرتي وقومي باقران حواليهم الصير
ليالي نمسي بين جوز ومسطح نشاوى لنا من كل سائمة جزر
فياليت خير الناس حياً وميتاً يقول لنا خيراً ويمضي الذي اثمر
فان كان شر فالعزاء فاننا على وقعات الدهر من قبلها صبر
سقى الله رب الناس سحاً وديمة جنوب الشراة من مآب الى زغر
بلاد امريء لايعرف الدم بيته له المشرب الصافي وليس له الكدر
وفي أذرح عين ماء غزيرة فوق أراض واسعة يمكن تشجيرها كلها
ولها قلعة لاتحتاج الا الى ترميم خفيف وهي على أربع ساعات الى الغرب
الشمالي من معان وعلى ثلاث ساعات من وادي موسى . واتقاض دورها
وعقودها وعمدها موجودة لاتحتاج الا الى بنائين فتكون مدينه تامة
الادوات في بضعة أسابيع وفيها اليوم انقاض ثلاثة طواحين
تنقبض النفس من الكرك على جمال طبيعتها وهي تطل من جهاتها
الاربع على مناظر لطيفة ومنها البحر الميت ووادي الاردن الى أعالي
جبال أريحا وذلك لأنها كانت في معظم أدوارها التاريخية ظالمة مظلومة
واشتهر أهلها بحب الغارة على عهد الاسرائيليين والموآبيين وحاربها شاول
وداود وقاومت قلعته حوآرم وملك اليهودية فرجعاً عنها مدحورين واضحل

الموآبيون في القرن الثاني قبل المسيح واصبحت الكرك مفتاح تلك البلاد على عهد الصليبيين واستولى عليها رنودي شاتليون الذي يسميه مؤرخو العرب البرنس ارنلط وذلك لانها حاكمة على طرق قوافل مصر وبلاد العرب القادمة الى الشام ولذلك حاربها صلاح الدين يوسف بن أيوب حرباً عواناً وأقام الايوبيون فيها وحصنوها وما زال ملوك مصر والشام يحاصرونها ويقتلون واهلها عليها وآخر أعمال الكركيين ذبحهم عسكر ابراهيم باشا المصري ثم فتنهم الاخيره المشؤمة . ويبلغ المسيحيون في الكرك نحو أربعة آلاف نسمة أكثرهم روم وفيهم لاتين وقليل من البرتستانت وفيها مدارس حقيرة لذكورهم وأناثهم ولئن كان المسيحيون اليوم على مستوى جيرانهم المسلمين وكانوا نحو ١٥ الفاً قبل الحوادث الأخيرة أو ارقى بقليل في المدينة فسيكون مستقبل هذه البلاد لهم .

ولم تبق الفتن من العاديات القديمة ما يذكر في هذه المدينة اللهم الا انقراض دائرة وجميع هذه الديار كانت عامرة وهي اليوم مأوى الغراب وناهيك بأن اللجون الواقعة على ساعتين من الكرك كانت بحسب ما رأينا من انقراض ارتجتها الضخمة من الممدن المهمة فاصبحت اليوم والحكومة تسكن فيها طائفة من المهاجرين وتعمر لهم دوراً فلا يلبثون ان يرحلوا عنها اذ رأوا تناقص نفوسهم فيها بسبب الماء والهواء وتركوا منازلهم خاوية .

المرية الصفورية

طريق الكرك من القطرانة وطريق وادي موسى من معان يبتدئان بتراب كلسي ممزوج بصلصال لا استعداد فيه للزراعة ولذلك تظنك اذا توسطت تلك السهول وعرضها نحو ثلاث ساعات من الحط الحديدي تظنك في قفر بلقع حتى اذا انتصف الطريق تتراءى لك بعض عيون وزروع والمسافة بين معان ووادي موسى سبع ساعات للراكب كما هي بين القطرانة والكرك . ووادي موسى هو قرية الجي وعلى نحو ساعة منه بترا أو

العربية الصخرية كما يسميها الافرنج وسمها العرب سلماً ، والسلع الشقوق في الجبال ، والغالب ان سلماً قسم من العربية الصخرية وهي عبارة عن جبال إذا (رآها الراثي من بعد ظنها متصلة فاذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها) وحدثنا من زار خرائب الحجر أو مدائن صالح انها دون خرائب بترا بمكانتها .

وكان لبترا هذه أيام عز طويل على عهد الادوميين والنبطيين العرب وقدماء الرومان والمكابيين وامتد حكمها الى دمشق وكان بيدها زمام التجارة مدة قرون في هذا الشرق الاقرب ولم تنحط الا بارتقاء مملكة فارس وانبساط ظل سلطان تدمر ولما جاء الاسلام كانت خرائب كما هي اليوم والغالب أن بقايا مجدها أتت عليها الزلازل فدكتها كما دكت غيرها من المصانع والآثار .

إذا أشرف الراكب على قرية وادي موسى يرى روح النعيم فيها خصوصاً ويكون قد قطع ساعات في صقع أجرد أمرد ليس فيه من الاشجار الا الزعرور ولا من الغلات الا قليل من الخنطة والشعير لكن في وادي موسى حدائق بديعة تسقى من العيون الدافقة عليها من الهضاب المجاورة حتى تخال نفسك لما تراه من بهجة الحضرة انك في صقع عامر زاهر فاذا قصدت الى عاصمة بترا وتجلت في السيك أي دخلت بين الجبلين المتناوحين العالدين وكل قطعة منها تبلغ أوفاً من الامتار المربعة علوها من ٣٠ الى ٥٠ متراً وانت تسير في طريق لا يقل عرضه عن خمسة أذرع ولا يزيد عن عشرة ليس فيه الا الأحجار والحصاب أو مسایل ماء لا ينبت فيها الا الرتم والطرفاء تشاهد في الاعالي النواويس والقصور والمسلات محفورة في الصخر وينفرج الطريق مسيرة نحو ثلث ساعة وينقسم قسمين قسم ذات اليمين وفيه تمة المدينة والقسم الآخر جبال طبيعية تمتد الى بعيد وتتصل بجبل هارون من أجمل المناظر المشرفة على تلك الاودية والجبال .

وهنا يتمثل أمامك قصر فخيم يسميه الناس خزنة فرعون والغالب انه كان معبداً لايزيس أنشيء على عهد الامبراطور ادريانوس الذي زار هذه المدينة سنة ١٣١ وفي واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة اصغر منها ونقوش وتيجان وربما كان يصعد الى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من اثر الادراج واذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع احجارها وتتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها وفي الصدر القاعة الكبرى او الردهة المدهشة وكل هذه العمدان والسواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر او في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه ما يشاؤون والذي يزيد في الدهشة ان الحجر احمر في هذه الجبال او من نوع الحجر الرملي ولكنه بمتانته كالصخر الاصم ثم ترى عليه ذاك اللعان فمن موجة حمراء الى اخرى زرقاء الى مثلها بيضاء الى جانبها دكناء فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير ورزق بانيه يداً صناعاً تتفنن في تقطيعه ونقره بما فاق به البناء في سائر عايدات الشام فان كانت قلعة بعلبك تم عن ذوق سليم وعلم واسع في النقش وجر الاثقال فان هذه العايدات الخالدة الازلية تنادي بلسان حالها هذه عظمة الديان الى جانب عظمة الانسان .

وترى الى جانب الآثار قساطل الفخار في جانب السيك الذي يشبه من بعض جهاته الفج الواقع في شمالي مدخل قرية معلولا في جبل سنير (قلمون) وذلك على علو القامة استجرت مع الصخر حتى كأنها بعضه وهناك على بضع دقائق من خزنة فرعون كان في الغالب مخزن ماء هذه العاصمة بومتها وعلى مقربة من مخزن الماء وهو منقور في الجبل ايضاً ملعب التمثيل نقر في الصخر وله ٣٣ ممشى لجلوس المتفرجين ويسع ٣٠٠٠ نسمة وفي هذا الجوار اقدم النواويس واهمها وبعد ذلك يجيء

قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارتها كما ترصف الابنية الضخمة من قلاع وابراج وأسوار ونحوها والغالب انه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل الاسلام وهناك ولا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها على أنها من عمل المسيحيين عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفراجات والاودية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار بترا في المكانة وفي جبل الصبر ملعب او صورة تمثل قتلايين سفن حربية .

ويقول علماء الآثار ان معظم القبور التي حفرت على مشال قبور الحجر يرد عهدها الى الملك الحارث الرابع أحد ملوك بترا أي ٣٠٩ سنة قبل المسيح وبعده وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها ، وأن ما يشاهد من صور أبي الهول وايزيس ورؤوس الحملان يدل على أن هذه البلاد تأثرت بالمدينة المصرية والمسلتان الموجودتان في النجر تمثلان ربي النبطيين اللات ودوزارس وأنها كانت مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الأقل ، وان المدينة اليونانية دخلت وادي موسى على عهد البطالسة فاختلف العنصران المصري والشامي وظل القول الفصل فيها المدينة اليونانية الى عهد الحارث الرابع وفي بترا ٨٥١ مصنعاً من القبور والمعابد والمذابح .

ومن أراد أن يتوسع في درس هذه المدينة الأزلية وجب عليه أن يصرف أياماً في خرابها كما يفعل بعض سياح الافرنج وعلماء الآثار منهم فيقصدونها يضربون فيها خيامهم ويصرفون في امتاع النظر بها الاسبوع والاسبوعين وعلى من يحب التوسع في البحث أن يستعين بما كتبه علماء الآثار من المصنفات في وصف هذه المصانع .

في جوار هذه العاديات المنبئة بمدينة راقية جداً ينزل نحو الف نسمة من العرب يأتون أياماً قلائل الى الجي او وادي موسى لتعهد زروعهم

السقي ثم ينتقلون في الصيف والشتاء في جبال الشراة على ساعتين أو ثلاث أو أربع من بلدهم في خيام الشعر وهم فرقتان تؤلف الأولى من عرب الشرور وبني عطا والثانية من الهلالات والعبيدية والعلايا ويغلب عليهم الفقر ومنهم من يزرع في أراضي الحويطات والنعيمات على مقربة من بلدهم بالخمس وليس فيهم من يقرأ أو يكتب ويلبس أهل وادي موسى الكوفية والعقال ويسمونه المرير أي المقتول والعباءة وقفطاناً مسدولاً بدون سراويل وفي أرجلهم نعل يعملونه من جلد البعير وينوطون به حبله يدخل منها بهم الرجل لتعلق وفي ألفاظهم بعض فصح مثل قولهم سرى لسير الليل وقولهم الهدوم للثياب العتيقة وقولهم الريف للاراضي الخصبه . ويعنون كثيراً بتربية البقر والغنم والماعز ، ولا ابل عندهم مثل بني صخر . وهم على فقر ظاهر .

سألنا أحد كبار شيوخ وادي موسى هل زرت ياعمه مدينة دمشق في حياتك فأجاب انني لم ازرها أنا ولا أحد من أهل بلدي وأنى لي بزيارتها والطريق عشرة أيام لراكب المطايا وفي السكة الحديدية احتاج الى اجرة لم أملكها حياتي فتأمل .

من اجمل المناظر اذا خرجت من السيك أو من الصدفين أي جانبي الجبلين وفارقت تلك الفن والقلل تقصد الى عين موسى صعداً في هضاب عالية شماء واطلت على تلك المدينة التي يستحيل على أي جيش من جيوش العالم ان يفتحها ويستبيح حمى من فيها اذا أرادت الدفاع . تشرف من ورائها على أراض واسعة جداً تظنها بحراً من أشعة الشمس وهي وادي العربية طوله ثلاثة أيام الى الغرب وعرضه الى الشمال أربعة من العقبة الى الغور وفي تربته حصا وأحجار ورمال واملاح وينابيع قليلة وبالقرب منها بعض الحضرة كما تجد هنا وهناك بعض الاشجار البوية ويقصد البدو هذا الوادي في الشتاء لانه غور يرعون فيه مواشيهم كما يقصد أهالي الطفيلة والكرك والصلت ماجاورهم من الاغوار الى الغرب من ديارهم ويقصدون جهات الشرق في الربيع ويتوسطون في الشتاء والصيف .

في مرتبة الرسول

ماذا يرحب لراكب القطار الحديدي ان يراه ليصفه والقطار يسرع في سيره مواصلاً الليل بالنهار وكل بقعة من البقاع بين دمشق عاصمة الاسلام الثانية ويثرب عاصمة الاسلام الاولى تحتاج الى عدة علماء يتوفرون على دراسة ما فيها من الآثار العبادية والتاريخية والطبقات الارضية والاحداث الجوية والمواليد الثلاثة الطبيعية او المملكة النباتية والحيوانية والمجادية وعابر سبيل يمر كالسهم منطلقاً لا يطالب بمثل ما يطالب به الباحث محققاً مدققاً فمعدرة الى من يتوقعون ان يروا في رحلتنا هذه فائدة تخرج عن حد ما وقع عليه النظر في أيام معدودة .

ركبنا من محطة القطرانة في الكيلو متر ٣٢٦ الى المدينة فوقف بنا القطار ساعات في المحطات الكبرى وهي معان في الكيلومتر ٤٨٩ وتبوك في الكيلومتر ٦٩٢ ومدائن صالح في الكيلومتر ٩٥٥ ثم المدينة في الكيلومتر ١٣٠٣ وكانت المناظر تختلف علينا اختلاف الاهوية وكلما تقدمنا نحو الحجاز نشعر بالحرارة . وكان الوقت شهر آذار والطريق التي سلكها الخط الحجازي غريبة تدل على حذق في الهندسة وتقن . وهي لاتبعد كثيراً عن الطريق التي كان يسلكها الركب الشامي مدة ثلاثة عشر قرناً فيما نعلم اللهم الا ما اقتضته الهندسة من التعاريج كما شاهدنا ذلك في الحبل المسمى ببطن الغول وغيره

والجبال غريبة التكوين في الطريق من بعد تبوك . فبعضها هرمي الشكل والآخر اسطواني وبعض متساوي الاضلاع ، وآخر زاوية منفرجة او حادة او قائمة جعلت في بسائط منظمة منفرجة ، تسير ساعات بل اياماً بسير الجمال ، ولا ترى الا رمالاً وصخوراً وليس من الغابات الا الهشيم (الهيش) في بعض الاصقاع أو السلم والسمر وهما أكثر شجر الحجاز . والجبال مصهورة حمراء او كما قال البكري في وصف الجبال بين مكة

والمدينة أنها كلها تضرب الى الحمرة تنبت الغرب والغضور والثمام .
وان المرء لتحدثه نفسه وهو يطوي البيد طي السجل للكتاب من دمشق
الى المدينة كيف كان الحجاج قبل السكة الحديدية يقطعون هذه الأودية
والتلول والجبال والحرات والبرقات في ثلاثين يوماً على الجمال والبغال
والحليل ، ومن يتعب وهو راكب في القطار الحديدي ثلاثة أيام كان حزيناً
بأن يهلك وهو على ظهور المطايا أو في المحفات والموادج والمحارات ثلاثين
يوماً يضاف إليها عشرة أخرى من المدينة الى مكة ولكن هي العادة تسهل
الاشياء والتعب ينال الراكب في الايام الاولى ثم يدمن ويمرن .

أعلى نقطة في هذا الطريق العقبة تعلو ١١٥٣ متراً عن سطح البحر
والمطالع تعلو ١١٤٢ متراً وفي بعض هذه الرمال يمكن انبساط المياه وفي
بعضها مياه يستقي منها العرب الرحالة هناك وانباء السبيل فان عشيرة
الفقراء ومنازلها من تبوك الى مدائن صالح لا تقل عن ثمانمائة بيت وقبيلة
بني عطية تنزل من المدور الى المعضم وهي تزيد عن الفي بيت فلو صرفت
عناية الحكومة الى اسكان هاتين العشيرتين واعطائهما الاراضي مجاناً والصالح
منها للزراعة كثير لما أتت بضع سنين إلا ودخلت هذه الموامي والمفازات
في دور عمران تغني ساكنيها عن شن الغارات أو مد الأكف لأبناء السبيل
في استوكاف الصدقات .

ومن آسف ما رأيناه في الحط الحديدي ولاسيما بعد بلاد الشام ان الاولاد
والبنات والرجال والنساء يأتون يلتقطون ما تجود به أكف الراكبين من
الخبز والادام يلتهمونه التهاماً وقد كاد يقتلهم الجوع كما صهرت شمس
الحجاز ابدانهم ، وانك اذا اعطيتهم نقوداً لا ترضيهم بمثل ما يرضون
بكسرات من الخبز القفار ، فكأن القفار لا ينفع فيها إلا الخبز القفار .
وعندنا أن أعظم صدقة يتصدق بها قاصدو البقاع الطاهرة في السكة الحجازية
أن يحملوا معهم ما تسمح به نفوسهم من الخبز والادام يوزعونه في المحطات
على هؤلاء المحاويج المدقعين وذلك ريثما تصح عزيمة ولاة الأمر على تهينة
أسباب المعاش لهم .

ليس من الرأي الشديد أن يعلم شعب أو أكثره على الشحاذة بل أن يعود العمل والاعتماد على النفس ولكن أَرْضاً لم تشفق عليها سماؤها حرية بان يكون لابنائها عناية من حكومتها فان معظم ما نسمع به من الغزوات والغارات منبعت عن جوع مذيّب والجوع كافر ، يساق الغازون الى الموت أو ينالون ما يتبلغون به لسدر مقهم ، وكل من قطع الطريق من مكة فالمدينة فدمشق يحدثك من فقر عرب تلك الانحاء ما هو العجب العجيب . ولا يستهان بعدد السكان فان جهينة وبلي والحويطات لاتقل عن سبعين الف رجل واكبر قبائل المدينة حرب وهي خمسون الفاً ففي الوجه وينبع والعلا والعقبة من اعمال المدينة مائتا الف محارب كما قدر بعض العارفين وفي قضاء السوارقية عرب مطير وهتم . وهتم بقدر مطير في المدد والعدد وحدود المدينة تمتد الى الفرع من جهة مكة وسكانها بادية كلهم وفيها قرى واسعة وقرى جوار المدينة اثنتا عشرة قرية . والفرع لاتحكمها مكة ولا المدينة وقد أنشأت الدولة العثمانية من العلا الى المدينة اثنتي عشرة ثكنة انفقت عليها ١٨٤ الف دينار عثماني ليستتب بها الأمن وقوت العرب كلهم الارز الهندي والدقيق والتمر واللبن والاقط وأقل العرب وأشهرهم في اطراف هتم ومطير . ومع كل ما في هذا القطر من الفقر تصدر منه بعض الحاصلات كالجلد والصبغ والتمر والاغنام والجمال والحيل والصوف والسمن . ولو مد الخط الحجازي الى مكة فالبحر الاحمر ومن مكة الى صنعاء اليمن لتضاعفت صادرات الحجاز واليمن والشام ووارداتها وأمن الناس ولا سيما الحجاج من تعدي البدو بين الحرمين .

يعيش كثير من سكان المدينة ومكة من الصدقات والاقواف ورواتب الحكومة وربما غالى بعضهم في هذا الاتكال ولكن كيف السبيل وتجارة بلادهم ضعيفة لاتروج الا أياماً مخصوصة من السنة في موسم الحج وتكاد زراعتهم تنحصر في بعض البساتين الضئيل ريعها التي تروى من مياه الآبار بالدلاء ثم أن العلوم التي تبعث الهمم على الأعمال الاقتصادية مفقودة من بلادهم لندرة من يعرفها منهم وبلادهم لا يدخلها إلا المسلمون وربما كان

فيمن يزورونها طبقات راقية ولا سيما الهنود والمصريون ولكنهم لا يطيلون مقامهم إلا بقدر ما يزورون أو يجيء الراقون منهم ولا عمل لهم إلا التجرد عن الدنيا لا يخاطون ولا يعاشرون .

لا جرم أن السكة الحجازية قد نفعت سكان يثرب كما نفعت سكان دمشق لان الزوار كثروا على طول السنة والتجارة دبت فيها روح جديد في الجملة والاختلاط بالأمم به أفكار سكان طيبة الاصلين الى قصورهم في ميدان العلم والتعلم . نقول السكان الأصليون وعددهم لا يكاد يبلغ ثمن السكان والباقون شاميون ومصريون ونجديون وعراقيون وتركيون وجاويون ويمنيون وزنجباريون وسودانيون وجزائريون وتونسيون ومراكشيون وسنغاليون وصينيون وهنديون وقفاقاسيون وطاغستانيون وجراكسة وأكراد وكرجيون وإيرانيون وأفغانيون وبخاريون وبلوچستانيون وغيرهم من شعوب الاسلام يأتون هذه البلدة الطيبة ينقطعون فيها للعبادة في مسجد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

للمسلمين معرضان دينيان مهان احدهما وهو الاكبر في جبل عرفات كل سنة مرة والآخر في مسجدي مكة ويثرب طول السنة ولذلك تسمع فيهما معظم اللغات في آسيا وأفريقية وترى فيهما كل السحنات من أبيض وأحمر وأصفر وأسود بمن تفرع من الجنسين الآري والسامي ولذلك تجد المدينة المنورة اقرب الى أن تكون برج بابل لاختلاط اللغات والسحنات والعادات منها الى أن تكون عربية وهي بلد النبي العربي وفي صميم ديار العرب . والمدينة بطبيعتها تشبه احدى مدن الأرياف في مصر لان نحو ربع سكانها مصريون صعيدة ونصف الربع مغاربة والباقون مجنسون على ما يخمن المحمنون لاعلى ما يحصي العادون . لان البلاد العثمانية كلها ليس فيها احصاء يعتمد عليه بل كثير من اصقاعها ليس له احصاء بالمرّة كالحجاز مثلاً .

كنت نازلاً في الفندق الوحيد الكبير الذي بناه أحد الوطنيين خارج السور بالحجر الأسود طبقات وكلف نحو عشرين الف ليرة ، وهو على قيد غلوة من سور البلد ، أسهر عند بعض الأحباب الى أول الهزيع الثاني من الليل ، ومع أن الحكومة الاتحادية كانت أصحبتني بلاطلب مني بشرطين يراقبان أعمالي ارهاباً لي ،

فان اصحابي كانوا يتكفون ايضالي الى النزل كل ليلة خوفاً من اللصوص ، أما أنا فكنت أعد الخطب سهلاً مع قطاع السابلة أكثر من الخطب باولئك اللصوص الطعام في صور حكام ومن يكتفي بالمال والمتاع ويعفون عن قطع الأعناق لايسوءك بقدر من يسرق ويقتل ، والقتل أنواع ومنه القتل المعنوي الذي ارتكبه عصابت الهول والارهاب وبلغت القحة في استعماله حتى في البلد الطاهر في حين أن من دخله كان آمناً .

تأملت كثيراً في مسجد الرسول أثناء الصلوات وغيرها فما رأيت الاخشوعاً من جميع من يختلفون الى الحضرة النبوية الشريفة ولا سيما من غير الناطقين بالعربية فقلت في نفسي - وقد سمعت خطبة الجمعة وهي لاتخرج عن حد التهديد في العمل والاعراض عن الدنيا كسائر خطب الجوامع في بلاد الاسلام خلافاً لما كانت عليه ستة السلف الصالح ولكن « لبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً » كما قال علي كرم الله وجهه فوارحمته لغربة الاسلام .

لو ادار هذه القوة المعنوية رجال دين سليم وعقل راجح لسكانت فوائد هذا الاجتماع من حيث الدين والمدنية أضعاف أضعاف فوائده اليوم فكما أرسل عليه الصلاة والسلام شعاعاً من نور حكمته قلب به العالم وغير بشريعته الطاهرة الارحاء هكذا يحمل دعاة دينه والمؤمنون على ترائه وسياسة المهتدين بهديه ما تستنير به العقول في هذا المجمع ويعم ضياء سكان الخافقين وهذا من القوى المهمة التي أضعناها وكم أضعنا مواهب وقوى .

وأهم خزائن الكتب في المدينة خزانة خزانة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها تافية لا شأن لها وأكثرها من المشهور ونظامها وسط . وأحسنها وربما كانت خير خزانة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت أفندي ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كتبت بمخطوط المشهورين من الخطاطين كأن تجد الكتاب ذا العشرين جلدًا مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد أو مجلدين وفي هذه الخزانة من التسهيل من المطالعين والعناية براحتهم ما لا تكاد تجد مثله في دار الكتب بصر وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقه في سبله واختيار القيمين عليها وادرار المشاهرات الكافية عليهم .

بطء الإدارة

قلت من تقرير قدمته لرئاسة حكومة دمشق (سنة ١٩١٩-١٩٢٠)
أفليس من الغرابة بمكان أن ادارة المعارف منذ انشئت لم يتيسر لها أن تشيد
أبنية جديدة لمدارسها اللهم الا بناء مدرسة الحقوق في دمشق وبعض أبنية
ضئيلة لا يؤبه لها في بعض المدن والقصبات . والمدارس حتى في العاصمة ما تقيم
في أماكن غير صحية في الجملة ومن مدارس القرى ما يشبه سجون القرون السالفة
لانوافذ ولا طيقان ولا شمس ولا هواء ولا ساحة للعب ولا شيء من أمور الصحة
والمروضات للذهن والعيون والداعيات الى التعلم . وما زالت ادارة المعارف مع هذا
تصرف كل سنة مبلغاً لا يستهان به لقاء أجور منازل تقيم فيها مدارسها لو صرفت
على اقامة ابنية للمدارس وحمل الاهلون على المعاونة في بنائها بحسب قانون
التعليم الابتدائي لاصبحت اليوم معظم مدارسنا تأوي الى دور صحية خاصة بها
تزينها وتحسنها وتنقشها وتوصفها كما تشاء وتشاء المدينة الحديثة .

ان نقل المدرسة كل سنة من مكان الى آخر يضطر ادارتها الى صرف مبلغ
ليس بقليل تنفقه على النقل وتشتغل ادارتها بتعمير ما خرب وترميم ما لديها من
أثاث فضلاً عن تشتت الطلبة هذا اذا وجد محل مناسب من بعض الوجوه لاتخاذ
مدرسة فان ادارة المعارف تبحث منذ ثلاثة أشهر عن دار تجعل فيها المدرسة
النموذجية النازلة في المدرسة الظاهرية بدمشق التي جعلت دار الكتب العربية
ولما تجد حتى الساعة في ذاك الحي العامر مكاناً يناسبها مع ما أغلت من الاجور
لأن من الناس من لا يرضون أن يكروا دورهم لتجعل مدارس منها أعطوا من
الأجر الفاحش مخافة تخريبها خصوصاً ومعظم البيوت من طين وخشب يسرع
اليها البلى أكثر من دور الحجر القديمة .

فالواجب قبل كل شيء ان تفتح الحكومة اعتماداً كبيراً من المال كل سنة
تخصه لاقامة أبنية جديدة صحية للمدارس واصلاح الموجود منها وبذلك تخطو

المعارف خطوة كبرى الى الامام فتجهز هذه الديار بالجهاز الذي يلزمها من المعاهد في بضع سنين .
قلت وبعد مرور نحو تسع وعشرين سنة لم تختلف الحال عما كانت وما بني من المدارس حتى الآن مع ضخامة الموازنة لم يبلغ واحداً من عشرين من المطاوب لبلاد الجمهورية وهكذا كسل الشرقيين .

انقاط المجمع العلمي

هذه صورة ما كتبه إلى وزير من وزرائنا في ١٠ شوال ١٣٣٨
- ٢٥ حزيران ١٩٢٠ لـ قاوم المجمع العلمي العربي
كأن من امارات الوطنية الكذابة ، ان يموه دعائها المتجرون بها في كل ما يعرض لهم مما لا ينطبق مع هوى نفوسهم . عرفت من اخلاقك منذ عرفتك ايام كنت تغشى مجلسي مستفيداً انك مفطور على الحسد ، حريص على الشهرة ، تتوخاها من كل طريق ، وتعد من الوسائل إلى ذلك الغرض ممن ذهبوا بفضلها . ولقد كنت كلما أمني النفس باستصلاحك في هذا الشأن بالتجربة والقدوة أرى تلك الصفات تزيد فيك على الايام تأصلاً . وبعد فما كان يخيل لي انك تقوم في مجلس الوزراء وتناقش في مسألة ارجاع المجمع العلمي العربي تحاول بشقاقتك المعهودة ان تسلبه ما تم على يده من الفوائد المادية والمعنوية وتنكر ما قام به على الأقل من انشاء داري الكتب والآثار مدعيًا ان المصلحة مراعاة الاقتصاد في مثل هذه الأحوال وكان الأولى بهذه العناية لو انصفت وزارتك التي لا تحتاج لكل هذا الاسراف المضحك المبكي .

وكيف لعمرى تزعم ان المجمع العلمي غير مفيد وقد كنت قبل بضعه اشهر تتمنى لو تعد عضواً فيه . لو كنت ممن تحب بلادك حقاً وصدقاً لوقفت غير موقفك هذا وراعت العدل فطلبت بقاء جمعنا على أن يتولى

رئاسته غيري اذا كنت تراني غير كفوء لها وايجاد رجل له لا يصعب على من استتبع الغاغة وعدم جماع القوى وادعى أن الفضل مقصور عليهم . لست آسفاً للآثر الناتج عن سعيك في اقصائي عن رئاسة المجمع فان لي كل حين في داري وحقلي من صفوة الأصدقاء مجعاً مستقلاً ينفذ عن فوائدهم دع من أفواضهم الحين بعد الآخر من علماء المشرقيات في الشرق والغرب ، وما كنت لأجرح الى الاتسكال وأقيد النفس بقيود الموظفين الثقيل لقاء عرض قليل .

ولقد أكد حتى خصومي ان المجمع يطلبني أكثر مما أطلبه وهم على مثل اليتيم في غناؤه للامة ، أما أنت فتقصد الى اقناع من حولك كما قلت لي ذلك مرة انني خدعت اوربا بهذا المجمع وهذا جل ما أسعى اليه . أنا لم أخدع أوربا بل جهدت لفهامها اننا أمة ذات مجد قديم تريد أحياءه فخدمت بذلك الحكومة العربية لانني حسنت سمعتها مع اخواني رجال المجمع وخدمنا العلم المجرد عن الغايات البريء من وصمة التعصبات ومؤثرات المعتقدات .

قحة دعت صاحبها الى التمويه في البدييات ، وأنانية مجسمة شأنها التبجح وانكار المحسوسات ، كان من أثرها ايثار الجهل لهذه البلاد التعمية التي هي في أشد الحاجة لمن يدفعها ولو خطوة ضئيلة الى الأمام حتى يثار ذو ضغينة لنفسه من أقدم من عرفوه ، وما قط أثرت عنهم اساءة اليه بيد أن الحقد أكل قلبه فراح يعيث بشخصياتهم ويرمي بضاعتهم بالكساد .

بهرك المنصب فأسأت حتى الى أقرب الناس اليك ممن صبروا على سوء العشرة استبقاء للصدقة ، وما أنس لا أنس ما كنت تمثله من الأدوار المحزنة فتحاول اقتناعي بمضار أمر ولا تستحي من الغد أن تزينه للابصار وتأتي مثله من دون حرج اذا كان فيه حظ نفسك فتدعوني الى ما كنت عنه بالأمس تنهاني .

نعم اننا ممن لم تخف عليهم قصة ذلك الكرسي الذي أجلسوك عليه الآن فإذهلك عن كل شيء ورأيت من أسباب بقاءه لك أن تتظاهر بالفناء في محبة عظيمنا الذي كنت تلغنه أمس علناً حتى أخرجت الصدور وقال لك في النادي العربي منذ أشير أن الامة لا ترقى ، حتى يشتغل من كان مثلك بما يعلم ، يقصد بهذا أن السياسة لم تخلق لها ولا استعددت للخوض في مضارها . ضعيف المدارك لعمر الحق من

يخذه بريق المظاهر الموقته الخلابه ومن يؤخذ بسطان العواطف ولا يجعل للعقل
عليه سلطاناً وستريك الأيام نتائج أعمالك محسوسة ومن يعيش يراً .

لماذا نأخذ اللغة العربية

أخذ تقرير لجنة تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة بحظ وافر من
الاجادة ، وإذا جرى العمل به يسهل تَلَقُّفُ العربية ، ويتم لها بعض الاصلاح
الذي طالما تمناه لها عشاقها وخذامها .

إن حذف بعض ما لا يتعلق على حفظه كبير أمر من النحو والصرف
والبلاغة خطوة كبرى في تبسيط اللغة ، وقد رأينا الكتب المدرسية في العهد
الأخير ، على كثرة العناية بتحريرها لا تزال تحمل تعليقات وتطويلات قد
يستغنى عن بعضها بجمرة الطلاب ، بيد أن كثرة القواعد لم تعق اللغة عن
الانبعاث اللازم بقدر ما عاقها عدم العناية بالجزء العملي منها ، وهذا لا يتم
إلا بان يسمع الناشيء هذه اللغة منذ أول عهده بالمدارس خالصة من العجمة
ريثاً يعم التعليم فيسمعها من أبيه وأمه فصيحة لا شوب فيها ، وأول درجات
الوصول الى هذا التطور في تعليم اللغة يجب ألا يتكلم المدرسون والمدرسات
جماعات المتعلمين ، من حدائق الأطفال الى آخر مراحل التعليم ، بغير اللغة
الفصحى . وهذا يسود منذ الآن إذا حُظِر على أصحاب التعليم التكلم باللغة
الدارجة ، وأريد الضعيف منهم في العربية على حضور محاضرات في
بعض فصول السنة ليسد بما يتعلمه بعض عجزه ، ولا يرقى من المدرسين
في درجته إلا من أبان عن كفاءة في اتقان التخاطب والتكاتب بهذه اللغة ،
ولو كان معلم تصوير ورياضة بدنية . ويكتفى بتعليم اللغة الاجنبية من أول
سني الدراسة الثانوية ، ولا يضير الأطفال تأخرهم في تحصيلها وهم في أشد
الحاجة إلى احكام لغتهم أولاً .

ثم إن الواجب على الحكومة أن تُعنى باصلاح لغة دواوينها تُنقيها من كل غريب ودخيل ما أمكن ، وتشدد في كل ما ينشر ويعلن الا باللغة الفصحى ، ولا تسمح بصدور صحف وكتب باللغة العامية ، وتمنع دور التمثيل والسينما والراديو من نقل كلام لا تكون الفصحى سُداه ولُحمته ، هذا على أن تتوخى السهولة في التعبير الى الحد الاقصى .

والحق ما قالته اللجنة من أن أدبنا محتاج الى كتب تلائم طور الشباب وما أصابت شاكلة الصواب في قولها أن الواجب ان نترجم هذه الكتب عن اللغات الاجنبية ، والترجمة لا تنفيد في هذا الباب كثيراً لانها تنقل لنا أوضاع أمة تخالف أمتنا بروحها وثقافتها واجتماعها وحياتها وتاريخها وأدبها فالأولى اذاً أن نأخذ بأساليب الأجانب ونطبقها على لغتنا ونستمد من أدبنا ما يهذب ويعلّم وما اخال أنه يصعب على أرباب الاقلام منا ، متى أخذت وزارة المعارف بأيديهم ، أن يضعوا لنا شيئاً ما يلائم طباعهم من الكتب والرسائل ، ويجري مع مستواهم العلمي والأدبي ويجب اليهم أدب قومهم المملوء بكل طريف ممتع .

إذا تحقق هذا الاصلاح لا تنقضي ثلاثون سنة حتى تكون الفصحى في كل لسان ، وترسخ ملكتها في قلوب العامة والخاصة ، ويسمعا الناس في البيوت تكلم بها السيدة خادماتها ، وفي الشارع يتخاطب بها الرجل المثقف مع معاملة . وفي الحقل يتفصح بها المزارع وفلاحه . وما دام امتزاج الشعوب العربية بعضها ببعض يزيد يوماً فيوماً ، وهذا الراديو تصل موجاته الى الوف من الكيلومترات يحمل ضروب النباتات والأصوات وينشر كل المعاني فان هذا الاصلاح يتم على أيسر حال وفي زمن قريب ، كما تم للعربية أن نهضت في الحسين السنة الاخيرة نهضة ما كان يرجى بعضها فاصبحت على الألسن والأقلام عذبة سائغة ، ولو راعى الخواص اليوم الاعراب في كلامهم بعض المراعاة لرجعوا بها الى قرون المجد العربي ، ولا نهزمت العامية أمامها بصنعهم آخر الدهر .

اني ما زلت اسمع من زمن طويل من الغرباء ويتابعهم المقلدون من

ابناء العرب ان اللغة العربية صعبة جداً وأن لغات الأجانب اسهل وأقل
كلفة ، ومعظم من يقول بهذا القول هم ممن قضاوا سنين طويلة في تلقف احدى
اللغات الأجنبية ، وصرفوا وكدهم في أخذها عن أهلها بأساليبهم المستحدثة
السهلة، وما أعطوا العربية بعض عنايتهم، وما منحوها كلهم لتمنحهم بعضها ،
وهم لو صرفوا بعض ما صرفوه من الوقت في تعلم لغتهم لكانت درجتهم أرقى
بكثير من درجتهم في تلك اللغة التي هبأ مدرسوها لها جميع ضروب الرغبات .
اللغة العربية ، ولا نكران للحق ، واسعة بمفرداتها ، لكن الجمهور
الذي يحاول ان يكتب ويخطب فيها ، وان يستظهر من الفاظها مقداراً
لاغنية عنه لكل من يدرس لغة من اللغات ، وهو لا يزيد على خمسة
آلاف لفظة ، هذه اللغة لا تكلف ، من تصح عزيمته على تعلمها من المشقة ،
ما تكلفه اللغات الأجنبية لكل راغب في تعلمها ، حتى ولو كان من صميم
ابنائها . هذا على شرط الاستغناء بعض الشيء عن القواعد والاتجاه إلى
الطرق العملية في تدارسها ، والسير على طريقة اهل العصر الحاضر في تعلم
لغات العلم الحديثة ، وحذف ما يقال له علم البيان والبديع ، فإن الناس
كانوا يبرزون في منظوم هذه اللغة ومنشورها وهم خاؤون من معرفة المعاني
والبيان وهذا البديع المريع .

وبعد فقد ثبت بالاخبار في كل الاعصار والأمصار ، ان العمل هو
الطريقة المثلى في اتقان اللغات ، ورأينا الجاحظ سيد البلغاء يعلمنا في
كتابه البيان والتبيين بالشواهد لا بالقواعد ويقول لطالب النحو في كتابه
رياضة الصبي : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه الا بقدر ما يؤديه
الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب
كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشيء إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو
مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردد عليه من رواية المثل
والشاهد ، والخبير الصادق ، والتعبير البارع » وأستدلنا بذلك أن الشكوى
من تطويل النحو قديمة يرد عهدها الى القرن الثاني وان مثل الجاحظ
بعلمه وعقله يردّها ويدعو الى الاكتفاء باليسير من هذا العلم اه .

هذا ما كتبه عملاً بإشارة احد جهابذة وزراء المعارف المصرية هي الدين باشا بركات ، والى الآن لم ينفذ سوى اشياء قليلة منه لاتوازي بعض رغبات اللجان وأرباب الاختصاص ، وما اكثرها واكثرهم في مصر ، والزبدة أبدأً قليلة لاتوازي بعض ما ينفق من المال ، وما شغلت به اذهان الرجال ، كأن الشرق كتب عليه ان يقول ولا يفعل .

الطبيب هيبب الله

قيل ان ربح سورية كل سنة من الحشيش ثمانون مليون ليرة سورية (ثمانية ملايين جنيه مصري) هذا والقانون يحظر زراعته والاتجار به وظهر أن من أعيان الزراع من يزرعونه ويجعلونه تجارتهم يساعدهم على ذلك ما لهم من النفوذ في البر والمدن ، ومنهم من جمعوا منه ثروات وما تعففوا عن تجارة ضارة بالعقول . وكانت مصر وسدت مكافحة الحشيش والتخدرات عامة إلى رسل باشا مدير الأمن العام فجارها حرباً عواناً وأبان عن غيرة على مصلحة المصريين وهو يعرف أن من رجال امته من يهربون الحشيش الى مصر مغتربين فرصة وجودهم في الخدمات العسكرية والمدنية . ولقد خطب رسل باشا في مؤتمر الافيون في سويسرا مرة أن وزيراً سورياً يزرع الحشيش ويتجر به وقد كتبنا الى المفوض السامي في سورية ولبنان نلفت نظره الى مايجني فاعل ذلك على الانسانية فلم نأخذ جواباً ، والغريب أن الجاني مازال في منصبه . وأغرب الغريب أن يجيء رسل باشا الى مقر خصمه ويضطر أن يمد يده اليه يضافحه . وفي السياسة قد يضافح المرء قاتل أبيه ويبسم لمن يبيت له المكائد . والانكليز جد حراس على حرية التجارة وقد عهد أن سلحوا بالسلاح اللازم جماعة هم حلفاؤهم في الظاهر بواسطة تجارهم وما وجدوا في ذلك حرجاً كما حاربوا الصين لأنها حرمت تجارة الأفيون فاستحلوا قتل مئات الألوف من الخلق في سبيل رواج تجارتهم .

السكوت من ذهب

ظلمت أودي إيجار مزرعتنا كل سنة الى ان ايقنت ان المطالب بالوقف لا يحق له اخذ شيء منا مادامت أرضنا اميرية تدفع خراجاً وعشراً . وما دام ماسمي وقفاً هو اقطاع ليس الا . ولما امتنعت عن الاداء امتنع اهل القرية عن تسديد ما كانوا يغرمونه ايجاراً سنوياً اذا قطعوا خطباً من أرضهم . وعلمي أحد اصحابي وكان مارس القضاء الشرعي كثيراً أن أقول كلما دعيت الى المحكمة الجملة الآتية : أرضنا أميرية ندفع عنها الأموال والعشور ، ابتاعها أبي بماله ، وبأيدينا سندات تملك ، وما أبيعها من خطبها هو مما غرسه أبي وغرسه أنا . « فكان صاحب الوقف اذا قرؤاله ما كتبت تغيب طلعتة عنا عشر سنين ثم يعود فيطالب بوقفه في صورة أخرى ، ونزده بكتابة تلك الجملة الذهبية في سجل المحكمة .

وقدر الله ودخلت في السياسة فطبقت فيها بعض ما استفدته في مدرسة الحياة من التجارب . واتفق ان بدا لرئيس وزارتنا أن ينحني وينحني وصيفاً لي فلم ير أنجع من أن يضع علينا من الوزراء من ينش بمهارته ماتكنه صدورنا نحوه ، فما رأيت احسن من أن أنسج على منوال تلك الجملة التي تعلمتها من المحامي الشرعي وانقذتني على ايجازها من تعجيز المطالب بالوقف ، فكان جوابي كلما سئلت عن الرئيس جملة سهلة لطيفة وهي ان الرئيس تفضل واستدعانا الى معاونته في وزارته فله الشكر على ثقته بنا ، فاذا رأى أن يستعيز عنا باناس اكفاً منا فانا مستعد للاستقالة لافرج كرسي الوزارة لغيري لأنني أريد نجاح الرئيس وبنجاحه نجاح بلادنا ، وارجع الى بيتي وانصرف الى شؤوني الخاصة .

وأما زميلي فكان يطلق لسانه في الرئيس وأبيه ويذكر افضاله عليه في معاونته بالمال ليصل الى الحكم ، ويتبع ذلك بسباب وقذف ليس من شأن

من يشتغل بالعموميات ان يعود لسانه التقوه بمثلمها، ويذكر أموراً تسقط من قالها قبل ان تستط من قبلت فيه . كنت ألقى هذا الدرس الوجيه ست مرات في الأسبوع ، والازمة الوزارية دامت مدة ، وما غيرت فيه ولا بدلت ، وكذلك كان من صاحبي ماغير شيئاً ولا بدل . وانتهت الأزمة باخراجه من الوزارة متهماً بأمور ربما كان منها بريئاً ، نسبت اليه ليوضى أهل الحل والعقد بتنحيته ، وأنا بقيت في الوزارة ، وكان المظنون اني اقرب الى الافالة .

وبهذه الألعبوية عرفت حكمة ما حفظته في الكتاب (سلامة الانسان في حفظ اللسان) وكررت درساً في اخلاقنا أحببت نقله الى أبنائنا ، وثبت لي ان من الأمور مايجل بعضه بعضاً لتشابه الاشياء ومنها مايقاس على غيره وان الاعتماد على الالجاز في معظم المواقف ادعى الى السلامة ، والمكثار عرضة للعتار ، وربما كان في الثثرة خرم يدخل منه الخضم فيربح ، والمرء مأخوذ باقراره .

الالقباب والرتب والادوسمة

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم
قلّ الدراهم في كفي خليفتنا
من الكئسي ومن الألقاب أبواباً
ماكان يرضى به للحش بواباً
هذا فأنتفق في الأقوام القابا
(أبو بكر الخوارزمي)

الحش (لامؤاخذة) مثلثة ، المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين .
القاموس المحيط

كان مما اخترعه بنو العباس (١) أيام ضعفهم اطلاق القاب على من كان مقبولاً في دولتهم ، وجرت أكثر الدول بعدهم على طريقتهم حتي إذا

(١) راجع ماكتبناه في الالقباب والرتب في الجزء الثاني من كتابنا (الاسلام والحضارة

العربية) ص ٢٦١ - ٢٦٣ و ص ٢٩٩

كانت الدولة العثمانية عكست في اعطاء الرتب والاوزمة والألقاب غلواً لم يسبق له نظير ، فدخلت مسألة التشريف في طور من الهزل غريب ، والأمور تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وربما كانت نافعة اذا جرى الاقتصاد فيها ، ولا تلبث أن تتوسع في النهاية وتكون منها مضرة ، وعلى الألقاب والاوزمة تصدق هذه القاعدة . وظل العثمانيون على هذه الطريقة في رفع الناس وخفضهم ، يعدلون في مصطلحاتهم ويزيدون وينقصون ، حتى إذا كان عهد عبد الحميد الثاني بلغ أمر الرتب والألقاب حد السخف فزادت الاخلاق فساداً وشغل الناس بالعبث وألقيت بينهم المنافسة في أمور لا نفع فيها .

وورثت مصر هذه العادة الضارة من دولة العثمانيين وراجت في أيام الحديوي عباس حلمي الثاني رواجاً مضحكاً حتى كان لها سماسة يجتمعون جعلات كبيرة ممن يحرص على التشرف بها ، ولا يزال نرى في قلوب المغرمين بهذه الأمور في مصر بقايا يرثى لحال من أصيبوا بها . أما مملكة شرقي الأردن الصغيرة فأوغلت في منح لقب الباشا حتى حازه عشرات من أهل الطبقات الثلاث وعد من حسنات العراق والشام (سورية ولبنان وفلسطين) الغاؤها الألقاب وقضاؤها على الرتب وقد اخترع بعض حكوماتها اوسمة تجود بها على الاجانب وعلى من ترضى عنه لخدمة أسداها لوطنه . ويجنح بعض العقلاء في الدولة المصرية اليوم الى الغاء الرتب والألقاب على أن لا يبقى فيها إلا رتب الجندي لتنجو مصر من مصطلح يفسد التربية ويعلم الناس التحيل والزهد في الكرامة بما لا ينطبق مع جلال مدينة هذا القرن وترقي عقول أهله .

ولقد دخل التفاخر بالألقاب والرتب والاوزمة في بعض ممالك الغرب أيضاً في دور سخافة عجيب حتى صرنا نرى الممالك التي لا تعرف الألقاب كسويسرا مثلاً أرقى بأخلافها من فرنسا واسبانيا وقد أوغلنا أي ايغال في هذا الشأن . وهكذا الحال في جميع الدول الجارية على قوانين قديمة

بالية يعبت ولاة أمرها بعقول رعاياهم ويشعرونهم بامور تليق بالاطفال
لا بالرجال .

بعد كتابة هذا اطلعت على بلاغ عام نشرته حكومة الجمهورية السورية
على دواوينها واليكه بنصه :

جرت العادة ان تضاف الى الأسماء ألقاب أعجمية ولما كان من
المستحسن صرف النظر عن هذه العادة نرجو الرجوع الى استعمال كلمة
السيد بدلاً من كل ما يقابلها من الألفاظ الأخرى ودمتم .

رئيس مجلس الوزراء

سعد الله الجابري

وكان الاكتفاء بلفظ السيد قرره مجلس الشورى السوري بعد خروج
الأتراك من ديار الشام بأشهر قليلة فاستراح أهل البصيرة من هذه العادة
وبقيت الحجاز ونجد واليمن الى اليوم على عادة العرب في اغفال هذا
الضرب من التشريف .

ذكرت وأنا أكتب هذا كتاباً خاصاً اطلعتني عليه أحد وزراء العدل
في عهد الانتداب جاء من قاض جر كسي الجنس في حمص أطلق فيه انواع الألقاب
على وزيره فكان يقول له تارة فخامتكم ودولتكم ومعاليكم وسعادتكم
وعزتكم ورفعتمكم ، وطوراً يجليه بالألقاب المصطلح عليها في تلقيب
رجال الدين فيقول له سماحتكم فضيلتكم غبظتكم نيافتكم سيادتكم بحيث
لم يبق لقباً من الألقاب الا منحه لمخاطبه . فان كان هذا القاضي لا يعرف
الفرق بين هذه الألقاب فهو أبله لا يصح أن يقضي بين المتخاصمين وان كان
يريد الهزء بصاحبه فهي جرأة منه يستحق عليها الترقية في نظري لأن هذا
شيء جدير بالهزء ولا أقول انه غير مؤدب بل أصفه بأنه فكه مداعب .

شاعر المهجر

أقامت وزارة معارف سورية برعاية رئيس جمهوريتها حفلة تكريم في الجامعة السورية يوم ٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ودعتني الى الاشتراك فيها فقلت ما يأتي :

الى ضيف سورية العزيز .

الى الشاعر الاجتماعي الكبير ايليا أبو ماضي .

إذا شهدت الحكومة والشعب هنا يحرصان كل الحرص على الاحتفال بك فذلك لأنك أهل لكل تعظيم وتكريم . وكل من قرأ شيئاً من شعرك العذب أو اطلع على أفكارك العالية منشورة يعجب بك ويعدّ ما يقام لك في كل مكان من بلادك هو بعض ما يجب لك عليها فأهلاً وسهلاً بالعربي المخلص أهلاً بالرجل الذي بيّض الوجوه ورفع الرؤوس . وانا لترجو أن تطيل مقامك بين أظهرنا ليتسنى لك الاختلاط بكل الطبقات فتحقق بنفسك مبلغ اعجاب السوريين بك وما أنت في الحق مفخرة السوريين فقط بما بذلت من جهد للنهوض بهم بل أنت مفخرة من مفاخر العرب في عصرنا ولذلك كان من الانصاف أن يكتب الى جانب جوازك الذي تحمله لتجتاز الحدود (جنسيته : عربي) فقط .

أحييك وأحيي بشخصك الكريم مئات الألوف من اخواننا المهاجرين الأعزة ممن تركتهم وراءك وهم يتلهفون شوقاً لوطنهم الاول وقد اثبتوا في مواطن كثيرة حرصهم على قوميتهم وتناسيهم بوطنيتهم وعريبتهم . ولطالما استحلّيت ممن أسعدني الحظ بالاجتماع اليهم المهم من ان من أولادهم من حرموا معرفة اللغة العربية لقلّة المدارس ورأيتهم كيف يعنون في شمالي اميركا وفي جنوبها بتأسيس معاهد لتلقين لغتهم ومنهم من كان يرسل ولده

الى الديار الشامية ليحكم فيها لغة ابيه وامه . كل ذلك حتى لا يقطعوا
صلاتهم بأهلهم ووطنهم وهم قادرون على ان يبقوها مطردة دائمة .
ايها الأستاذ العظيم .

متى عدت بالسلامة الى اهلك وراء البحار قل لهم ان سورية ولبنان
اليوم غيرهما بالأمس وان النظام الجمهوري قائمٌ فيها على مايجب انصار
الديمقراطية وان حركة الأعمال الزراعية والصناعية سائرة سيراً لم يعهد لها
مثله في الماضي ، قل لهم ان عشرات من المعامل أنشئت في عهد الحرية
على مثال ما في الغرب منها وان الناس يعملون ويكسبون ويغنون وينعمون
بما انت به الحضارة الحديثة ، فأقاموا الدور المنجدة والقصور المشيدة والمصانع
الجميلة والمرافق العظيمة بما لا يقل بعظمته عما عند الغربيين منها ، قل لهم
ان قبس المدينة سرى الى البوادي سرايته الى الحواضر ، وان السكان
يتمززون ما حملت من مباحج ويتذوقونها لا يخافون الا انفسهم ويعيشون
بسلام كلهم . قل لهم ان الوطنية اتت على ما كان في بعض الأزمان
من عصبية جاهلية وان كل وطني اخذ يدرك ان اجتماع القوى المتفرقة
اجدى من عمل فردي ضعيف ، قل لهم وانت خير رسول ان بلادنا هذه
تتسع لابواء عشرة ملايين من الأنفس على الأقل وان الربح من استثمارها
واستثمارها لا يقل عما يربحه المجدد في خير الأقاليم . حدثهم أن عندنا أراضي
كأراضي الرحبة شرقي الصفا مثلاً تعطي حبتها مئة حبة من غير ما حرت
ولا كرت وان مناخ أرضنا يصلح لمعظم حاصلات الأرض وشجرها وان
هناك أنهاراً عظيمة يمكن استخدامها للري على أيسر سبيل . وكل ذلك
يحتاج الى رؤوس اموال اذا اجتمع بعض مالدينا منها هنا ببعض ما لدى
اخواننا في المهجر كانت منها ما يأتي بالعجائب . ورابطة المال من أقوى
روابط البشر .

يا أخي إيليا :

أكثر الناس لا يعرفون من بلادهم الا ما نظروه في الخريطة وتأملوه
في كتب الجغرافيا ، معلومات لا تشبع من يريد كنه الأشياء وان يتعرف

الى حقيقة الواقع فهل لك أن تقترح تأليف لجنة من مهاجري الشمال والجنوب على أن يكون فيهم الزارع والصانع والتاجر والمهندس والكيميائي والطبيب ليروحوا الى سورية ولبنان في الربيع القادم ويبحثوا بأنفسهم عما في أرضنا من خيرات مدفونة تعوزها العناية حتى تغني من يستثمرها . وأنا على ثقة أن مثل هذه الرحلة يأتي منها خير كثير ولا يقوي حب أرض في النفوس أكثر من رؤيتها ودرس خصائصها وميزاتها .

قالت العرب : أرسل حكيماً ولا توصه . وقالت أيضاً : أرسل حكيماً وأوصه ونحن نقول بالمثل الثاني نرسلك الى العرب في الأميركتين معتمدين على وطنيتك الباهرة ونفسك الحساسة الشاعرة ونوصيك وان كنت في غير حاجة إلى توصية أن تصدق اخوانك الحبر وقل لهم طالت غربتكم ووطنكم في أشد شوق اليكم حياتهم الله وبياهم وجعل التوفيق حليفك في حلك ومرتحلك .

مؤون

حدث ان اجتمعت الى احد رجال الدولة العثمانية اتحدث اليه في أمر يهمني فراح يتكلم ويحاول اشغالي بمحدث تافه من مثل البحث عن صفاء الجو وجودة الموسم ، فرأيت أن أسأله في موضوع قريب من موضوعي كأن أسأله عن شخص في قصته شبه من القصة التي أحاول الوصول الى معرفتها وذلك على سبيل الهزل ، فتبدر على لسانه كلمات تنفعني في تلمسي ما أبغي الوقوف عليه ، واضفت الى قوله اشياء من عندي وتم الحبر المطلوب ونشرته في الجريدة فقامت قيامة محدثي واستغرب كيف وصلت الى معرفة ما يعده من الأسرار التي لم يطلع عليها انسان . وربما عاد على كاتم أسراره فقرعه على كشف ماستره بزعمه عن الشمس والقمر .

الصحافيون من اقدر الناس على استقصاء الأخبار اذا نوا كشفها ، وأنا لم استعمل هذا الاسلوب مع الوالي الغبي الا مرة واحدة غفر الله لي .

بعض الناس لا يجب أن يسمع مدحه ويعد مادحه متزيدياً مهما اعتدل في مدحه ، وربما فاتته بعض نواح ترفع قدر صاحبه الى اكثر مما قال فيه وانا خلقت من الكارهين للمدح لعلمي بعدم فائدته للمدوح ولا للسامعين والقائلين . وما فتىء بعض من يحسنون الظن بي يريدونني منذ اعوام على الرضا باقامة حفلة لي يذكرون فيها ما كان حظي من المشاركة في خدمة الآداب وأنا أجيهم ان هذا لا يليق وانا حي ومن بعدي انتم احرار لتقولوا ما يرضيكم .

* * * *

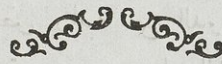
كان لي صديق من الأعيان على جانب من الوفاء والرزانة متوسط الذكاء ، وكان كتوماً جداً يؤمن بقاعدة (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) عقد عقده على ثيب حسناء وهو في سن الشيخوخة دون أن يستشير أحداً من أصحابه وفيهم من لا يخفي عنه ما يعرف من سيرتها اذا استشاره . فرأى صاحبي من المهارة أن يكتم كل ما يحاول اتمامه حتى عن أصدق أصدقائه ، ولسان حاله : اذا أنا لم ابادر الى الاقتران بمن ظفرت بها افلقت مني واستمتع بها غيري . وكانت زواجه العامل الأكبر في خراب بيته في ماديته ومعنوياته .

* * * *

قد يغفل المرء أو يتغافل عن شيء إذا حوسب عليه يخرج بعد الحساب خاسراً ويكون من ذلك عبث بالحق البين وقصور بما يوجهه العدل والانصاف . حدث أن ألقى صديقي الأمير شكيب ارسلان محاضرة في دار المجمع العلمي العربي في نهضة الأدب في الشام على العهد الأخير عرض فيها بذكر من قاموا بكبر هذا الأمر من الصغار والكبار وكنت حاضراً فلاحظ بعضهم أن الأمير لم يذكر المجمع وهو من أعضائه ، ولم يقدر ما كان له من يد في نهضة العلم العربي . وقالوا انه كان من باب اللياقة ان يذكر صديقه رئيس المجمع ولو بكلمة .

ولهل سياسة ذلك العهد والكتلة الوطنية مسيطرة ومن اعضاءها من
يكرهني وهي تبغي ان تأتي بالأمير لرياسة المجمع دعته الى هذا التغايب ،
وقلت لمن أبدى تلك الملاحظة : دع هذا ورجح حسن الظن ، وما ضرك
لو قلت ان الامير نسي فقط ، وانا لا أعتقد انه ممن يغمطني حقي ، وقد
صدقته الود طول عمري . وما أعجب بأحد من ارباب الاقلام اعجابي به
وربما لم يخدمه احد من معاصريه كما خدمته (راجع فصل وطنية الامير شكيب
في الجزء الثاني من المذكرات) واذا جنحت الى التوسع في التحليل فقل
ان شكيباً بلي بصحة بعض الزعائف ، بسائق من سلامة صدره ، يوسع
لهم في مجلسه كما كان منه مع رجل لازمه ملازمة الكلب لاصحاب الرقيم
مدة مقامه الاخير في دمشق فكبر له أناساً وصغر له آخرين ، وعادت
وشاياته على الامير بالضرر اما هو فلم يخسر اكثر من بيع ضميره ولطالما
باعه لمن يساومه ومن لا يساومه .

كثيراً ما قلت لشكيب اني أحبه اكثر مما يحبني فكان يتسم لقولي
ويستحي ان يجيبني .



الدواء الناجع

تلوث ارباب السلطة التنفيذية في الشام ومصر بالرشوة فذهب وقار الحكومات واحترق المحكوم عليهم من عيνοهم واهماوا النظر في أمرهم ، ويستحيل ان تكون عقلية شرطي كعقلية قاض مثلاً والقاضي تعلم في الجملة والشرطي او الدركي اقرب الى الأمية والعامية . ومن دهاء بعض الشرطة والدرك انهم جد أمناء لكل حكومة تتسلم زمام الحكم ، ولكل حزب يسيطر وتنتشر دعوته . والداهية الباقعة منهم قد يخدم عدة احزاب من باب لا ترسل الساق الا بمسكاً ساقاً . اما في مسائل الرعية فيعملون على الهوى ويسلبونها كأنما يأخذون من مالهم ، ويحكمون في أهل بيتهم . ومنهم من يسأل ارباب المصالح جبرة ان يمنوا عليهم بشيء لأن رواتبهم لا تقوم بأودهم واود عيالهم ، ومنهم من يرتقون الى اعلى من ذلك فيساومون على الجعالة ، يسلبون ماوسعهم السلب . ولطالما ضاعت الجرائم بدرهيات يدفعها المجرم لمن بيده التحقيقات الأولية التي عليها يبني الحكم ولذلك لم ينقطع دابر الأشقياء لأن ارباب الشحنة يغضون الطرف عنهم أحياناً ، ومن المتهمين من يحمل للدركي والشرطي حصته من الغنيمة ، وبهذه الشركة السرية بين الشقي ومن يقبض راتبه من الدولة لمطاردته ومطاردة امثاله ضاعت الحقوق وزالت الهيبة ومن رجال الامن من اذاقرت الاحوال وكسد عندهم سوق الانتفاع من الناس يخترعون مسائل لأصل لها او يجسمون مالديهم من الوقائع ليملاؤا جيوبهم من جيوب الأبرياء .

ولا دواء فيما نعلم لهذا الداء الا تفتيش كل ديوان وكل شعبة من شعب الادارة وتنفيذ تقارير المفتشين الأمناء من دون اهمال ولا امهال وبذلك ينزل معدل الفساد ويستريح الناس باخراج كل من يسرق من الخدمة على ان لايعين أحد مكانه وهذا يقتصد مبلغ عظيم يضم الوفر منه على مشاهرات

ارباب الرواتب الصغيرة فلا تتضخم الموازنة ولا تبقى معذرة لمن يسيئون الاستعمال من العمال بدعوى قلة رواتبهم .

ربما يقول بعض من يحبون السلامة ان هذا الرأي خيالي لايتأتى تطبيقه لما يحدث منه للحكومة من الاتعاب وربما كان منه مايجل بالامن ونحن نعتقد ان افراداً فاسدين ويعرفون انفسهم أنهم فاسدون تستغني عنهم كل حكومة تحب الاحتفاظ بكرامتها واذاتم هذا الاصلاح تصفق الرعية وتغيبط لانها متبرمة بالفاسدين وتلعن أبداً من يخرجون عن جادة الحق ولا يمنعها من اهلاكهم الا تكريم مايلبسون من بزة والخوف مما يحملون من سلاح .

ونلخص بعد هذا - (وقد سبقت لنا هذه المعاني في هذه المذكرات) دعوتنا في كلمات : صرف المأمورين المستغني عنهم ، تقطيش دقيق على الخائنين وطردهم من الخدمة بلا هوادة ، التوسعة على ارباب النزاهة من الموظفين واعطاؤهم مشاهرات جيدة .

وهذا الاصلاح يحتاج الى بضع سنين حتى يتم على مايجب وتظهر منافعه من السنة الاولى وهو النجع دواء .



غزاة عظيم

ارادني صديقي العلامة ابو عبد الله محمد الزنجاني من علماء ايران عليه
رحمة الله ان اكتب الى العالم الكبير الميرزة محمد علي خان فروغي رئيس
وزارة ايران والى العالم الميرزة علي اصغر خان حكمت وزير معارفها اطلب
اليهما عمل فهرست لمكتبة قصر كلستان في طهران وقال لي ان كتابتي
اليهما تؤثر اثراً محموداً لانهما يعرفانك حق المعرفة ويستمعان لاقتراحك .
فتجاسرت وكتبت اليهما فجاء جواب العلامة فروغي رحمه الله بالعربية وهذانه:
حضرة العلامة الاستاذ الأكبر دامت معاليه

تناولت كتابكم الكريم الحاوي حسن ظنكم بي وعواطفكم الجميلة نحوني
ونحو بلادتي فأرجوكم أن تقبلوا فائق شكري وامتناني على ذلك ويحسن
بي أن أحيط علمكم الشريف أنه قد سبقت أيضاً الى السمع ذكرى فضائلكم
وما تبدلونه من الخدمات الصادقة للعلم والاسلام فأرجو الله أن يؤيدكم لذلك
ويبقيكم ذخراً للعلم وأهله .

أما ما اقترحتموه من وضع فهرس للخزانة الملكية بقصر « كلستان »
فقد بوشر بالعمل منذ زمن ونرجو أن يتم أمر التنظيم قريباً والشروع في طبع
فهرس يتضمن ما احتوت عليه الخزانة من المؤلفات واذا طبع فانكم ستشرفون
عليه ان شاء الله . هذا ما لزم وفضلوا في الختام بقبول جزيل سلامي .
والغالب أن حوادث الحرب الماضية وما لقيته ايران المحبوبة من ارهاق
الدول المحاربة آخر انفاذ هذا المشروع النافع وعسى أن يكون الأخلاف على
ما كان الأسلاف عند حسن الظن بهم ،

الوطنية العربية

ما عهدنا طائفة الروم الارثوذكس الا متضامنة مع السواد الاعظم من سكان البلاد الشامية في كل نازلة وهاهي تقدم برهاناً آخر على عروبتها ووطنيتها في المسألة الصهيونية بلسان بطيريكها العلامة الكسندروس طحان فقد نشر بياناً في قضية فلسطين دل على شعوره وشعور طائفته . وبما قال مخاطباً رجال الدين والدنيا من ابناؤه :

لم يفت علمكم ما من به المولى سبحانه على جميع البلاد التابعة روحياً لكرسينا البطريركي الانطاكي من نعمة الاستقلال بعد الاستعباد والهناء بعد العناء فأضحت بلادنا تملك امر نفسها يسوسها ابناؤها البررة الاخيار . غير ان هذه الحالة الطيبة التي متع الله بها امتنا العربية وكنا نأمل دوامها قد تنغصت بالقرار الجائر الذي صدر في الآونة الاخيرة بتجزئة فلسطين الارض المقدسة الى منطقتين يهودية وعربية - التجزئة التي يقصد منها خلق دولة يهودية مستقلة في بلاد عربية عريقة في القدم - والذي يحمل في طياته خطراً مبنياً على مقدسات الشعوب العربية المسيحية والاسلامية في فلسطين العزيزة ويكون جواً دائماً الاضطراب ربما ادى الى تعكير السلام العالمي لما لتلك المقدسات من الاحترام العميق عند اصحاب الاديان مسيحيها ومسلميها وقد كنا نرجو قبل صدور هذا القرار الجائر ان يتورع مصدره من العبث بحقوق اولئك الشعوب الذين لم يأتوا امراً يستوجب التهجم على بلادهم التي مرّ على سكانهم فيها عدة قرون وهم فيها آمنون متضامنون . ولكن خاب الامل ووقعت الواقعة فداهمتنا ايام عصيبة هي اعظم ما حل بالبلاد العربية من محنة سوداء لم نجد معها مناصاً من ان نهب الى الدفاع عن حقوقنا وصيانة حرمة مقدساتنا . واي شعب من شعوب الارض كلها تتوقد في صدره جذوة الدين لا يبذل النفس والنفس في سبيل الذود عن معابده

ومساكنه وحرماته التي هي اثنان ما يملكه في دنياه ؟ وما كاد القرار الجائر ينتشر خبره المؤلم في الاصقاع العربية حتى قامت التعديت الصهيونية على حياة السكان وعلى معابدهم وبيوتهم ومتاجرهم بصورة فظيعة تنبئ عن مهالك مبيتة للرجال والنساء والاطفال ليخلو الجو لمثيورها فيمعنوا في امتلاك الديار كما يشاؤون .

ولم تتقاعد الشعوب العربية الذين أخذوا على حين غرة ورأوا الخطر المدهم عن الذود عن نفوسهم وعن كل ماله شأن في حياتهم الدينية والاجتماعية اندفعوا يحمون ذمارهم ويدافعون عن حرمتهم غير ضازين بكل ما لديهم من عزيز في سبيل تحرير فلسطين العريضة .
واذ كنا أبناء الكرسي البطريكي الانطاكي تؤلف جزءاً من البلاد العربية فمن واجبنا أن لا نتقاعد عن المبادرة الى المساهمة الفعلية في الجهاد القائم أمامنا للدفاع عن فلسطين المقدسة والى التضامن مع اخواننا العرب بكل ما نملك من قوة وعزيمة ماضية لنصرة الحق وخذلان الباطل .

سرقه الآثار

زارني في داري الدكتور عبدالرحمن الكيالي وزير المعارف والعدل في وزارة السيد جميل مردم بك الكتلوية (نسبة للكتلة الوطنية) وقال لي انه اتصل به من مصدر وثيق ان الأمير جعفر الحسيني مدير دار الآثار يتجر بالعاديات بصورة غير محللة اي يسرقها فتأثرت لهذا الكذب الصراح وقلت: ان الأمير يقل من يضارعه في نزاهته من عمال الجمهورية ولو كان يستحل أن يسيء استعمال وظيفته لعد اليوم من كبار الاغنياء، واذا أنا سرقته فيكون جعفر قد سرق . وسراق الآثار والمتجرون بها هم يتهمون الاستاذ الحسيني بهذه التهمة الشنعاء لانه سلم بعضهم الى القضاء لمحاولتهم اخراج آثار سورية الى خارج الحدود .

ولعل الكيالي حاول الصاق هذه التهمة بالامير يوم حاول مع رئيس
حكومته ان يهديا أيضاً أحد المهريين من الارمن المتأمركين الاسدين الرخامين
الرابضين الى اليوم في المحل المنسوب اليها (ارسلان طاش) من الجزيرة
ومنع المفوض السامي يومئذ اخراجهما من ارضنا بعد ان نشر خبر هذه
الهبة العظيمة في الجريدة الرسمية . فبدا للكيالي ان ينتقم من الامير جعفر
باتهامه بهذه التهمة الدنيئة ووقع في نفس الكيالي بعد المنع ان يقنع مدير
دار الآثار بالتوسط لدى الحكومة المنتدبة حتى تغض الطرف عن الاسدين
وتأذن باخراجهما من سورية فأبى .

ولما لم يستطع الوزير الكيالي ان ينال من الامير جعفر اضمر له الحقد
هو ورئيس الوزراء وانضم اليهما مؤخراً رئيس الجمهورية فما شئ صدورهم من
الامير جعفر الا اقصاؤه عن دار الآثار فاحيل الى لجنة تأديبية جزاء أهليته
واستقامته . ومن طبيعة الكتويين انهم يشق عليهم مشاهدة أرباب النزاهة
في الحكومة لانهم يحاولون أن يكون الناس كلهم كاسنان المشط في الاستواء
هذا مثال من ذمة من طالما زعموا ان الوطنية وقف عليهم وعلى من
يرضون عنه احتكروها لانفسهم وباعوا واشتروا باسمها ، وكان أهم موادها
التزييف والظلم .



العلم يعني

كان الأدب العربي الى أواخر القرن الماضي لا يدر على صاحبه ما يسد به الرمق لأن الولايات العربية كانت تحت الأحكام التركية غارقة في الجهل ، والأترك ليسوا من العربية في ورد ولا صدر ، ومصر ما كانت في درجة من الحضارة تعرف قدر لغتها . فكان بعض المتأدبين يجعلون من الأدب حلية يظهرن بها اذا كفوا مؤنة العيش ، ومنهم من اذا برّح بهم العوز ينظمون القصائد في مدح الأكابر والحكام فيجيزونهم اجازات ضئيلة . وكان في مدرسة اللعازارية بدمشق استاذ العربية اسمه أمين الحلبي تعرفت اليه عندما كنت أختلف الى ذاك المعهد أتلقى الآداب الفرنسية فكان لفرط غيrote على أدب العرب كثيراً ما يعذلني على ولوعي بادب الفرنج واهمالي الأدب العربي ويذكر لي ما في هذا من البدائع التي نخلت منها آداب الفرنسيين .

ثم انتقل صاحبي الى بيروت وحرر جريدة الأحوال مدة والغالب أنه سئم المراقبة على الصحف يومئذ وما كان صاحب الجريدة عليه من التعصب الذميمة وملّ أيضاً العيش من شق القصة على غرامه بالعرب والعربية وهاجر الى جنوبي افريقية فاشتغل بالتجارة واغتني في سنين قليلة .

ومن حال صديقي الاستاذ أمين الحلبي تستخرج مسألة روحية تمازجها حالة اقتصادية ذلك أنه لو لم تشد منافسة البوتستانت والكاثوليك في ساحل الشام في القرن الماضي لما ظهر الرعيل الأول من علماء العربية . أنشأوا المدارس لنشر مذهبهم وعنوا بتدريس العربية فظهر الأعلام من خدامها أمثال بني اليازجي وبني البستاني والخوراني والأسير والأحدب وغيرهم .

الصحف والكتب

يقول غستاف لبون ان الصحف والكتب تؤثر في نشوء الآراء وفي سرايتها تأثيراً عظيماً ولكن دون تأثير الخطب . وتأثير الكتب أقل من تأثير الصحف لان الجمهور قلما يقرأها ومن الكتب ما استهوى العقول فأدى الى اهلاك ألوف من البشر كما وقع من كتب روسو فانها كانت توراة تشبع بها زعماء الارهاب ومثل ذلك كتاب « بيت العم توم » الذي ساعد كثيراً على نشوب حرب الانفصال الدامية في اميركا ، وقد أثرت رواية روبنصن كروزي وقصص جول فرن تأثيراً عظيماً في عقول الشبان وفتحت لكثيرين طرق الكسب . وقوة الكتب كانت شديدة عندما كان الناس يقرأون قليلاً فان تلاوة التوراة في زمن كروم مثل أنشأت في انكلترا عدداً كبيراً من المتعصبين . وفي العهد الذي كتبت فيه رواية « دون كيشوت » كانت قصص البطولة ذات تأثير سيء في العقول كلها حتى لقد اضطر ملوك اسبانيا أن يحظروا بيعها أما اليوم فان تأثير الصحافة أشد من تأثير الكتب . وقد ظهر في الصحف اليومية في كثير من الحوادث الخطيرة لعهدنا شيء من الاستهواء والاغواء ، وتبين الآن أن حرب الولايات المتحدة مع اسبانيا كان النافع في ضرامها بعض الصحف ولو فرض وهذا الفرض غير عسير التحقيق ، ان صاحب مصرف متوسط الثروة ابناء جميع صحف مملكته يصبح سيدها الحقيقي يعلن الحرب ويعقد الصلح على هواه . وقد رأينا المالين يتعاون القسم الخاص بالبورصة في جميع الجرائد آملين أن يعلنوا عن مشاريع من شأنها أن تأتي على الثروات التي جمعت من التوفير لترجمها . وما من حكومة تجهل هذه القوة القاهرة للصحف وغاية ما يحلم به السياسي المحترف أن يتخذ لنفسه جريدة منتشرة تنطق بلسانه وقد كان من وزارات الامبراطورية الالمانية أن حببوا للرأي العام معظم اعمالهم

بواسطة صحف غزوها بأموالهم فاستألت لهم الرأي العام . ان سرعة تصديق القراء لما يقرؤنه في جرائدهم عجيبة من العجائب .
هذا رأي الحكيم غستاف لبون في الكتب والصحف وهو كلام لا يصدق على الاقطار العربية المتمدنة وقراء الصحف ما برحوا قلائل وقراء الكتب أقل بكثير من قراء الصحف . ثم ان القراء عندنا يسيئون ظنهم بآرباب الصحف ويزعمون أن الصحافة تضلل العقول وتكذب وتخلق وتسير مع أغراضها وأحزابها ، ساءت سمعة الصحف فرميت بما رميت به وكانت الحكومات هي التي جنت عليها ، تنفق عليها وتفسدها بالمال لتقوم لها بدعايات ملفقة ، ومن أحسن ما تم في عهد الثورة الاخيرة في سورية الغاء نحو ثمانين صحيفة والاكتفاء بعدد قليل فقط . وبما أبقوا عليه من الصحف المحترمة يرجى أن تتحسن منازع الصحف وأن تصدق ولا تتحامل ولا تخلق وأن تحمل للقراء كل ما يفيدهم .

أما الكتب فهي في بلاء لا يشبهه بلاء لاعراض القوم عن تناولها الا مكرهين ، فالكتب المدرسية تؤلف للدارسين ولجيل خاص من الناس ، ومهما سمت درجتها لا يتناولها الجمهور ، وعلى الجمهور وما يتغذى به من الافكار المعول الأول . والجمهور عندنا يتغذى كثيراً بالقصص والروايات ومنها ما لا يفيد في دين ولا دنيا وكتب الدين مقصورة على طبقة بعينها لا تتعداها الى غيرها وأكثر رجال الدين يستعيرون الكتب اذا حفزتهم الحاجة الى مطالعتها وقل فيهم من يطيل النظر فيها .

بقيت طائفة من الناس تحب كتب الثقافة وهي ضئيلة لا يعول عليها في نشر الكتب لأن عددها الى اليوم لا يتجاوز المئات واذا وصلت بعض الاسفار الى أن يطبع منها ألوف فهذه من الكتب التي ألفها آرباب النفوذ أو من يحسنون عرض بضائعهم على القوم بأساليب لهم تفردوا بها . والمؤلفون في هذا الصنف من الكتب الشريفة لا يستطيعون أن يكونوا مؤلفين وتجاراً . وما برح الوراقون يربحون من الكتب أكثر من المؤلفين .
ومن أجل هذا نقول ان الكتب والصحف لم تبلغ المبلغ الذي كان

يجب لها في الشرق العربي ولعلها تصل الى ما يرجى منها من التأثير بعد جيل أو جيلين لأننا أخذنا نكثر من نشر المعارف ولا سبيل الى رواج الصحف والكتب بغيرها ولا بد من قضاء الوقت اللازم لنضج الأعمال واثارة العقول . قال أحد سفراء اميركا وهو من هواة الكتب ان لأرباب الملايين في أميركا خزائن كتب جميلة والبلد لا يعد مثقفاً ثقافة حقيقية الا اذا كان فقراؤه يقننون الكتب .

الصدقة والسياسة

اعجبني كلمة قالها الدكتور عبد الجبار جوهر من نواب المعارضة في مجلس نواب العراق : اذا كانت السياسة هي الاشتغال للصالح العام فالسياسة شيء والصدقة شيء آخر ، اذا تكلمت بالسياسة لا ارى امامي صديقاً واذا قابلت صديقاً نسيت السياسة . وانا أحس بان هذه القاعة - قاعة المجلس العراقي - محراب سياسي للامة فالكلام فيها بأدب والمعاملة بالرفق ، ومن احترم هذه الندوة احترم امته فاذا تطرقت الى النقد في السياسة والنقد مرّ ، فارجو الايعضب علي احد واذا غضب فلا أبالي .

وصاحب هذه المذكرات جرى على هذه الخطة ففرق بين الصدقة والسياسة وقد لايجيد عن قانون الصدقة لخدمة السياسة ولا يتخلى عن واجبه في النقد مراعاة للصدقة . قال لي بالامس احد خلاني الاعزة لقد بالغت في المذكرات في الثناء على صاحبك محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية الاول ، فقلت له هذا ما عرفته فيه بعد طول العشرة ، وما ذكرته شهد الله الا بما فيه واشرت الى ما حمد منه والى ما انتقد عليه . وصاحبك اللذان جاء بعده هل قاما بحق هذا المنصب الجليل اكثر من صاحبي هذا ؟ ماذا كان من صاحبك الثاني وهو بالاجماع لم يضر ولم ينفع على ما انطوى عليه من اخلاق حسنة وعفة عن المال . وهل في مقدورك ان تنكر ان الثالث ساقنا بسوء سياسته

وفساد طريقته الى الخراب حتى آل امره الى ذاك المصير المحزن .
هذه هي عينات رجالنا لم تتعلق الأقدار بان يتولى هذا المنصب العظيم
ارقي كعباً منهم او ان الحظ حظهم فبلغوا درجة من الظهور كان غيرهم
احق بها واهلها . انا يا صاح أصف المترجم لهم بما يتراءى لي منهم في مرآتي
وبما يحكم عليهم به عقلي ورويتي فأخطيء وأصيب ، وقد يكون صوابي عند
نفسي اكثر من خطائي . وليس لي من المقدرة ان اخلع على من اذكرهم
حللاً من الثناء ففضاضة براءة ولا ان أعريهم بما ثبت لهم من الصفات
فأشوهها وأسودها ، والحب لا يؤثر في تصويري لهم فالرئيس الثالث احترمه
منذ اول نشأته واقيم له بعض العذر فيما كان يأتي على يده فلما تولى زمام
الامة واصابه الغرور فارتكب ما ارتكب من خرق القوانين والسير بسيرة
الظالمين نفضت يدي منه . ومن طبعي ان انفر من يباين الحق ويظلم الخلق
وكنت ازهد في صداقة من يدوسون المصلحة العامة من اجل مصلحتهم الخاصة
ولو كانوا اقرب الناس الي .

كنت اود لو صحت عزيمة صاحبي الناقد ورماني بالثشيع للرئيس الاول
أن يكتب سيرة صاحبه الأخير او سيرة الرؤساء الثلاثة وهو من اقرب الناس
اليهم يعرفهم كما يعرف نفسه وكان عشيرهم ووصيفهم . نعم انا مبتلى بالصراحة
وقد امتدح عدوي واذكر مساويء صاحبي لاتعميني السياسة فأسلب هذا
او اعطي ذاك على هواي وقد اجامل بعضهم الى حد محدود وانا موقن انه
لو كانت له القوة لغمزني غمزة مسمومة وتعذر عليه ان يذكريني الابلججة .
حاولت منذ اخذت أولف وانشر ان اجعل للتاريخ المسكنة التي له عند
الغربيين وان أتوخى في كتابته الحق والارشاد لا الارضاء والعبث فغضب علي
من غضب ورضي عني من رضي فما تضررت بالغضب ولا انتفعت بالرضا ، واعتبطت
كل الاعتباط ان ارضيت ضميري وما باليت . وهذا فيما اظن الفرق بين
ما اكتبه ويكتبه غيري ممن ينظرون قبل كل شيء لمصلحتهم ويهزأون مما
توفر عليه ويعدونّه نقصاً حمائم الله منه !

الرجل العربي

منذ عهد بعيد جاء قريتنا الشيخ محمد الدندراوي الصعيدي ينشر طريقته « الرشيدية » وسارع بعض سراع التصديق من الفلاحين الى تلقيها عنه . وبعد سنين جاءهم ابنه أبو العباس يتولى من القرية ما كان أبوه يتولاه ، وربما كان على شيء من العلم أكثر من أبيه ، قيل انه دخل الأزهر ، فكثير مريدوه وكان على ما يظهر يوصيهم وكلهم أميون بعدم الاختلاط بغير جماعتهم واخترع لهم عمامة جديدة يمتازون بها عن غيرهم وهي عبارة عن طربوش ابيض ثلاث عليه عمامة بيضاء ذات عذبة طويلة واوصاهم ألا يخلقوا لحاهم فطالت حتى ليوتبك بها صاحبها عندما يباشر اعماله الزراعية . ولم يعلمهم ولم يفقههم واكثرهم لا يحسنون تلاوة الفاتحة . وفتن مريدوه بكل حركة تصدر منه ، وسحرهم بسكوته أكثر من كلامه ، وكانوا لفرط اعتقادهم فيه يجوزون أخذ ماء وضوئه وغسله يشربونه ويتبركون به ويرون انه شفاء من الامراض وكانوا اذا ارادوا الاقتراب منه ركعوا وسجدوا وقبلوا الارض ورجعوا الى الورا ومن سعد بتقبيل يده حاز الاجر العظيم . وسمعتهم في ذكرهم وانا في حديقة مجاورة يصرخون ياأبا العباس اغفر لنا ويستغيثون به كما يستغيث المؤمنون بالمولى تعالى .

وما راعنا الا والجرائد المصرية ترمي صاحبنا بانه نبي كذاب ووصفت مقر دعوته في قرية من قرى قنا فكان ماياتيه جماعته هناك عين ماياتونه هنا من مخالفة الشرع . وأصدر العلامة مفتي مصر فتوى في تكفير كل من يقول بما اشتهر عن أبي العباس وجماعته . وعلى الاثر وافي أبو العباس دمشق واجتمع الى قاضيها ومفتيها فأقراه على طريقته وقال انها لا تخرج عن سائر الطرق الصوفية ليس فيها ما يكفر به . والواقع ان دعوى النبوة بعيدة عن الشيخ

القناوي ولكن طريقته دنيوية يكلف بها الداخل لنفقات أكله ورفاهيته ما لا تتسع له جيوب الفلاحين الفقراء . وقد بنوا له بيتاً في دمشق سموه الزاوية وآخر في عين الحُضرة لاصطيافه وكل ذلك من أموالهم وبأيديهم . ولو فقهم وعلمهم لنجا من الملامة لكنه احب ان يسلمهم كما استلمهم .

لما شطر الشيخ القرية شطرين تعذر عليّ وعلى أصحابي من نبهاء أهلها ان أقوم بما كنت أنويه من تعليم أهلها وتمدينهم وجلب المرافق لهم فغلب الجهل العلم وكثيراً ما كان منه ذلك .

الجامعة العربية

انشتت الجامعة العربية منذ بضع سنين وكان بعض المفكرين يتشاءمون منها لأنها مما أوحى به السياسة الانكليزية ، والانكليز خدام منافعهم لو أمكنهم أن يسخروا البشر كله لمصالحهم ما تلكؤوا عن امضاء ذلك ساعة ، وكل محذور مباح في سياستهم .

وكان مما شغل الجامعة عن اتمام ما ألفت له مسألة فلسطين المشؤومة وسعيها مع الحكومات العربية السبع لحفظ حقوق العرب في القطر المنكوب . ومع أن الجامعة وعلى رأسها صديقي الاستاذ عبد الرحمن عزام باشا لا ينقصها شيء من أدوات النجاح لم توفق الى تحقيق ما كانت ترمي اليه من الدفاع عن حقوق الفلسطينيين على ما يجب ، لأن نجاحها ليس مما تملكه الجامعة الجديدة ، فكيف بالنجاح وامام الجامعة دول كبرى اعتادت أن تملي ارادتها في سياسة العالم والعرب منهم وهؤلاء ما وسعهم الى اليوم أن يملوا ارادتهم على أحد .

فاذا لم يكتب للجامعة التوفيق في سياستها على ما كانت يرجى فما أحرأها أن تجدد همة لاتمام الباقي من برامجها ومنه الغاء الجمارك بين الأقطار العربية الداخلة في الجامعة ومنه توحيد الثقافة والنقد والبريد وغير ذلك

ليشعر العربي أنه واخوانه في القاصية والدانية متحد في بعض ما يجمع الدول
من الروابط ويؤلف منها كتلة تمكنها من رفع صوتها وحماية ذمارها .
والرجاء ألا تصاب الجامعة بما ابتليت به أعمال الشرفيين من اظهار
النشاط في بدء كل مشروع ثم الضعف فيه رويداً رويداً حتى لا تكاد تجد
له أثراً يذكر في الآخر ، خلافاً لأعمال الغربيين تبدأ بنشاط قليل ثم يزيد
على مر السنين .

ولا مندوحة من التصريح هنا ان على الجامعة ان تشغل نفسها
بما يدخل في الصميم من برنامجها تأخذ اللباب وتطرح القشور وتبدأ بالفروض
قبل النوافل . واذ قد انقضت مهمة الجامعة في فلسطين او كادت نرى ان
نلفت نظرها الى انقاذ سائر ما دون في جدول اعمالها لتثبت للأمة أنها
تخدم جهدها وأن ما وقع من قصور كان غير مقصود وفي وسعها تلافيه .
جرت عادتي اذا رأيت الخلل في عمل ان ابادر الى اصلاحه بكل
ما عندي من حيلة اما ان اهدمه على أمل ان اجد من البناء الجديد
خيراً اكثر فلا اقول به لأنه من شأن العاجزين والهدامين . ومما اثبتته الأيام
ان من الأوضاع ما اذا زهدت نفسك فيه فغضبت عليه والغيبته لا يتسنى
لك ولا لمن بعدك ارجاعه .

مكتبة

الكتب المقررة

يظهر ان الامم مولعة بالقصص الغريبة ، وما ترتاح اليه كثيراً كتب النقد والرحلات ، ولذلك راج هذا النوع من الاسفار في كل العصور ، وتمثل هنا بكتابين كانا ولا يزال لهما شأن عظيم في الغرب . الاول كتاب الاخلاق للابروبير ، وصف فيه اخلاق من كانوا يختلفون الى قصر لويز السادس عشر فأجاد من وراء الغاية ، وصار كلامه دستوراً يسترشده . والكتاب الثاني كتاب دون كيشوت لسرفانتس صور فيه المجتمع الاسباني في القرن السادس عشر ، صوره بنبلائه وفرسانه وشعرائه وظرفائه وقساوسته وسوقته وباعته وغانياته وعاشقاته وطاهياته بما لم يبق بعده غاية لمبدع . وسخر في جملة ماسخر بالخاصة من فرسان ذلك العهد كما سخر ربلية من رجال القرون الوسطى وكلا المؤلفين ترجمت رواياتهما الى اللغات الاوربية وصادفت من الرواج ما لم تصادفه قصة الف ليلة وليلة في الشرق والغرب .

راج كتاب الكاتب الافرنسي وكتاب الكاتب الاسباني لوقوع الجمهور فيهما على وصف من اتصفوا بهذه الاوصاف والقوم متبرمون منهم حائقون على كبرائهم فنطق المؤلفان بلسانه ورددا نغمته وضربا على سندانه . والكتب من البضائع التي يروجها ذوق من يقتنيها والشعوب يتناولونها مقلداً بعضهم بعضاً بالعادة والعدوى .

وانا لنرى اليوم كتب الساسة المشهورين تصيب رواجاً عظيماً يوم ظهورها ويطلع الطابعون من مذكراتهم مئات الالوف فيغتني اصحابها لكثرة رواجها كما نجد رواجاً عظيماً لروايات المشاهير من المعاصرين فتنقل الى اللغات الحية الكبرى ، وتمثل رواياتهم التمثيلية بعدة لغات ، وكلما مثلت كان للمؤلف الأول حظ من ارباحها . وما برحت تأليف بعض ادباء فرنسا وانكلترا واميركا والمانيا وغيرها مثلاً باهراً من هذا الرواج . وان الغربيين ليتنافسون اليوم

في تلاوة قصص برناردشو أكثر مما يتنافسون في تصفح أي كتاب في الموضوعات السامية . ومن الكتب من يشترك الخاصة والعامّة في تلاوته ومنها ما يكون وقفاً على الخاصة فقط أو على العامة فقط .

قال كليمان فويتيل في جريدة جرنجوار مرة : اجمع النقاد والادباء على ان الكتب الصالحة لاتبقى مجهولة أبداً وان لها من عدل الاجيال القادمة من يظهرها ولا يخفيها ، على حين تتراكم الآثار ذات القيمة التي خانها الحظ في ظلام الدياميس الادبية . وقل جداً في الكتب التي احزرت اعجاب القوم وتمجيدهم ما كان نصيبه النسيان والاهمال . لنقل قولاً حراً من يقرأ الى اليوم كتب فولتير (ماعدا قصصه) ومن يتلو جان جاك روسو (ماعدا اعترافاته) ومن يتصفح شاتوبريان (ماعدا مذكراته عما وراء القبر) ومن ينظر في جورج صاند وتيرس وجيزو وميشله وبالزك وفلوبير . فاذا كان الحال هكذا مع هؤلاء الصدور فما مبلغ كتب غيرهم من المؤلفين في باب الرواج . ألا يصيب كتبهم غبار النسيان حتى تستحيل تلك الكتب غباراً . وعناية الخلف باسفار السلف من الامور الشاذة الموقته وما ارى مئة كتاب افرنسي من كل ما انتج الماضي تعيش الى اليوم عيشة حقيقية اه .

ولا بد ان يتساءل القاريء ويقول ان هذا ما عرفناه عن امة مولعة بالقراءة اشتهرت بتفانيها في الادب وولوعها بالجديد فما هي ياترى الكتب التي خلدت عندنا على مر الدهور ؟ . وارى ان ما خلد من كتب الشريعة خلد على رفوف الخزان اكثر مما خلد في الصدور ، وندر ان يرجع الخاصة منا اليها وهي بكتب الخواص أشبه ، اما كتب الجمهور فمنها ما عتق فسئمت النفوس النظر فيه ومنها ما اصبحت حاجة الناس اليه غير حاجتهم في القرن الماضي الى ما يشبهه فاقضى ان تؤلف له كتب تروقه وتنفعه في آن واحد . واظن اكثر من وهبهم الله ملكة التأليف لا يفكرون كثيراً في هذا الأمر المهم . ولو وضعوا ما يدعوا القراء الى الغرام بالمطالعة لاتي الجيل الجديد على غير هذه الحطة من التفكير . قالوا قل لي من تعاشر لأقل لك من انت ، ونحن نقول قل لي ما تطالع لأقل لك من انت .

يقولُ جداً المؤلفون الذين نبغوا بين اظهرنا حتى اليوم في الموضوعات اللذيذة المفيدة لان نهضتنا في الآداب حديثة العهد ومن اخذوا انفسهم بنشرها قلائل جداً ليس لهم ولا خجل من الحق مكانة المؤلفين الغربيين سواء كان بجودة الانتاج وكثرته وتنوعه او التحيل لاستمالة عقول القراء للاقبال على ما أخرج لهم . ولندرة القراء ندرت الكتب الصالحة ولا تكاد تجد للقدماء الا تأليف معدودة لها طلاب يتداولونها على توالي الاحقاب والمحدثون من المؤلفين يقلدون الغربيين في تأليفهم وهم لم يصلوا الى أولى مراتبهم ايام كانوا في مبدء نهضتهم . وقانا غير مرة ان من رأى مؤلفاتنا في القرن الماضي ورآها الآن ادرك مابلغناه من درجات الرقي الذي نرجو ان يطرد حتى لا نتخلف في ميدان الافكار الحرة والعلم الصحيح .

ذكريات الغربيين

اذكرني احتفال مدينة لشبونة في العهد الأخير بمرور ثمانية قرون على خروج العرب من البرتغال بما للغربيين من الذكريات التاريخية الكثيرة عندهم . يذكر البرتغالي مغادرة العرب دياره بعد أن حكموها نحو ثلاثمائة سنة وما جاروا عليها ولا ظلموها وأتوها كما أتوا اسبانيا بمحاصرة فيها عدل وفيها رحمة لم تشهد جزيرة ايبريا مثلها من قبل . وكان سكت أهل البرتغال عن احتلال العرب أرضهم زمناً طويلاً فلما كتب لأجدادهم التغلب على أعدائهم قام احفاد احفادهم اليوم يرددون صدى تلك الغلبة التي ثلجت لها صدور أجدادهم . وما نسي البرتغاليون وطأة الغريب وعادوا يعيدون ذكرى أتت من تسلسل الفكر فيهم وسعيهم الى كل ما يورثهم المجد والعظمة . بعد خروج الشام من أيدي العثمانيين كنت أضع ورسوائى في الحكم جريدة بأسماء الأعياد الرسمية التي يجب أن تحتفل بها الأمة كل سنة ولفت نظرهم الى الهجرة النبوية فما وافقني زملائي على وضعها في قائمة الاعياد

حتى نبهت أفكارهم الى عظمة ذلك اليوم الذي كان مبدأ كل مجد سجله العرب في الاسلام . فانظر الى الفرق بين الغربيين والشرقيين : البرتغالي يحتفل بدفعه صائل المحتل عن بلاده وهو لا يخاف عودة العرب ثانية والمسلم يتناسى ذكر المحطة العظمى في تاريخه وكان الخروج منها سعادة عظمى له . من عطاء رجالنا من يجب علينا ان نحتفل بذكرهم العظيم لما أسدوا الينا من خير كنور الدين وصلاح الدين ونحن نتناسى جميلهم لاننا بلبنا بعدم تقدير رجالنا قدرهم .

مخبر المسائر

رأت الحكومة الجديدة في سورية ان تعزل نواب العشائر في مجلس النواب عن نواب المدن والقصبات لان للعشائر مطالب اذا جرت مناقشتها بينهم تكون اقرب الى التفاهم . وكان نواب العشائر مغبونين في الماضي مع رصفائهم من اهل الحضر لأن لهجة هؤلاء غير لهجاتهم واكثر ما يعرض في مجلس النواب مما لا يدركون الغاية منه وليس لهم الرفع ايديهم مع جماعة حزبهم فقط وفي الغالب انهم لا يدرون على ما وافقوا وعلى ما خالفوا . وقد يصعب تمدين العشائر على قرب منازلهم من الحضر الا بعد ان يتعلم ابناؤهم وتكون نسبة من خرجوا من الأمية فيهم اكثر ممن انغمسوا فيها ، وذلك في مدارس سيارة تنتقل بتقلهم . وهناك مطالب لهم لو تحققت لاصبحت بادية الشام قرى عامرة وذلك باعطائهم الاراضي الموات يستثمرونها على الطرق الحديثة ، وتحفر لهم آبار ارتوازية يستقون منها وتلشأ مستودعات في الأماكن اللازمة من البوادي يدخر فيها العشب اليابس والعلف لأيام الشتاء وتشاد لهم بيوت من الحشب يأوون اليها في الأيام الباردة الى غير ذلك من ضروب الاصلاحات وعندئذ يقتربون من الحضارة ويتفاهم اهل الوب مع جيرانهم من اهل المدر .

كثرة الكلام

قال احد ساسة الاجانب في حفلة حضرها في الشام وقد رأى بدوياً يعرض نفسه ليخطب القوم والظاهر من حاله انه من العامة : ان اهل هذه الديار مولعون بالخطابة كأهل كندا فقد رأيتهم اذا اجتمعوا الأمر يحاول كل من في الحفل ان يخطب قومه سواء كانوا في حاجة الى سماع قوله أم لم يكونوا . خلق الانسان مولاً ولا علاج للملح الا تنويع الاساليب والابداع فيها والجديد محبوب والقديم مما يزهده فيه على الأكثر . ومن لم يرزق طبيعة مؤاتية للخطابة أو الكتابة او الشعر كيف له ان يدعيها ويطمح الى التأثير في الجماعة والخطابة صعبة المنال لانها ابنة البديهة والعلم الغزير ، ويتعذر على من اعتاد صف الكلام فقط أن يؤثر في العوام فضلاً عن الخواص . ومن تثرر وما عرف ما يجب أن يقول كان كلامه كهذيان المحموم ومن قال كلاماً لا يحصل له كان الخرس أولى به وأجدر .

كان المتشاعرون الى عهد قريب يزجون بأنفسهم في غمار كل نادٍ ومجتمع ويفرضون على الناس التصفيق لشعرهم البارد فلما ظهرت الحاجة الى الخطابة وأصبح لنا مجالس نيازية ومواقف لا بد من التكلم فيها قام من قام في انفسهم انهم خطباء ابناء وادعوا ما ادعاه المتشاعرون في الماضي من التفرد بمجال الكلام وانهم اذا لم يقوموا هم بهذا الواجب لا يرجي نجاح الامور . أما رجال الدين فبعد أن خانتهم قرائتهم في خطب الجمهور على البديهة عادوا الى تلاوة من وضعوا لهم الخطب في دواوين بحسب عصورهم واغراضهم يقرؤها في المناسبات فلا تحدث تأثيراً في النفوس لانها لم تكتب لمن تلقى على مسامعهم .

غلظة كبير

لما اصدر الاستاذ محمد علي علوبة باشا كتابه مبادئ في السياسة المصرية انتقدت عليه في مجلة المجمع العلمي العربي قوله لا ارى الحاجة ماسة الى مايقول به البعض من التفكير في موسوعة عربية تجمع بين دفتيها جميع المعلومات الانسانية مدنية وعلمية وفقهية ورياضية وكيميائية ذلك لان الموسوعة بهذا الوضع تتطلب نفقات طائلة ووقتاً طويلاً والعلوم متجددة متقدمة اه .

فقلت في نقده وعلى مصر من الآن القيام بمثل هذا المشروع المفيد للامة العربية جمعاء فاذا كان النقص يبدو فيه بما يتوالى من تقدم العلم السريع فان الطبقات الثانية ستجيء امتع بالطبيعة . أما النفقات اللازمة فلا تعد شيئاً بالقياس الى ثروة مصر واسرافها في انفاق المال ، ثم ان جميع الدول العربية تساهم في انشاء هذه الموسوعة ونشرها والامر متوقف على الشروع والشروع ملازم . وكتاب كهذا افيد لمصر من كثير من المطبوعات التافهة والاموال الطائلة التي تصرفها في الدعاية . والاختصاصيون الذين سيضعون اساس هذا العمل الخطير غير قلائل في مصر وغير مصر .

هذا ما قلته وأضيف عليه هنا أن صدور هذا الرأي الضعيف يستغرب من عظيم من علماء مصر وساستها وفي تضاعيف هذا الكلام من ضعف الثقة بالنفس ما لا يلائم همة صديقي الباشا وهو المجلي المعروف بنشاطه الممتاز وكان مثال العالم المصري الحازم الموفق الى أبعد حدود التوفيق .
وإذا كان الأمر كما يقول ان العلوم تتجدد وتتقدم كل يوم فمعنى ذلك أننا يجب أن نقف حتى تقف حركة العلم وعندها نأخذ ما نشاء ونطرح ما نشاء من العلوم والآداب وسواء عمدنا الى الترجمة أو الى التأليف وهو الأولى في معلمتنا العربية فان ما سينشر من ذلك للناس يفيدهم جداً وإذا أحسننا بنقص أو عدم اجادة في وضع هذا التأليف فان ذلك يصحح في

الطباعات التالية ، وأي كتاب صدر تاماً من أول نسخة أو طبعة . ويعلم الباشا ان الأمم الصغرى التي أصدرت الانسكلوبيدات كانت أحط من العرب اليوم لما أصدرتها فما زالت تتعاورها بالتصحيح والتنقيح حتى تمت على ما تريد . ثم قوله ان المعلمة يستأزم وضعها وقتاً طويلاً وهذا لا يهمننا كثيراً فان التجويد في الاعمال كان أبداً يستدعي زمناً لينضج على ما يجب وهذا عمل جماعة لا عمل فرد يخشى أن يموت قبل أن يتمه ، أما القول بان وضع المعلمة يحتاج الى نفقات طائلة فالوزير العظيم ادرى مني بما تحتمله خزانه مصر للانفاق في هذه السبيل وأمة تنفق على البذخ وتسرف في التوافه اسرافاً عجيبياً لا يعز عليها أن تبذل في طريق يشرفها كثيراً .

أستاذن حبيبي الباشا ، وأنا المعجب به وبجياته الحافلة بجلائل الاعمال أن يسمح لي ان افاتحه بان ما قاله بشأن تأليف المعلمة العربية لا يستشف منه الاضعف همينا عن معاناة الأمور العظيمة ، اننا نطلب المجد رخيصاً ولا نتخذ له أسبابه .

ذكرني هذا الرأي المنتقض من كل جانب بما قاله لي مرة أحد رصفائي في الوزارة وهو يريد أن نعدل عن ارسال شاب موسيقار موهوب الى الكونسرفتوار في باريز ليتقن فنه على الاصول الجديدة ويعود فنوسد اليه النظر في دروس الموسيقى في مدارس الحكومة : أراك تحرص على ارسال هذا الموسيقار ونحن في غنية عنه وعن درسه لان عندنا فلاناً العواد - المحترف الشيخ الهرم - اذا احتجنا الى من يطربنا نستدعيه فيضرب لنا بعوده مقابل ريال واحد ولا نتحمل باهظ النفقات على هذا التلميذ ، وأنا بالطبع سكت لأن هذا الكلام لا يستحق ان يتعنى المخاطب الاجابة عليه .

اما كلام الباشا فله وزنه والمبالغ التي ستصرف على هذا الكتاب العظيم ويعدها هو خسارة ستصرف في مصر على أبناء مصر وفي اعطاء رزق لهم ومن فوائده ايضاً القاء الرغبة في نفوس طلاب العلم بان ما يشتغلون به في شبابهم سيكون لهم منه ربح ان أحبوا الانصراف الى العلم ولا اريد ان ازيد على ذلك فالوزير المصري اعرف مني بما هنالك واعرف مني بما يبذله الغرب من الأموال في خدمة العقل والعلم ونحن نعد ما يبذلونه اسرافاً .

احسان واحترار

شاهدت صديقي العلامة فيليب طرّازي في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) يطوف طول النهار ازقة بيروت ويقدم بنفسه خبزاً ولبناً وطعاماً لمنكوبي المجاعة ، وكانوا بحالة تتفطّر لها الأكباد عراة جياعاً لم يبق على اجسامهم الا الجلد والعظم .

وكان بعضهم يستغرب كيف يحصل صاحبي الكريم على هذا القدر العظيم من الحبوب يطحنه ويخبزه ويوزعه وهو متوسط الثروة لا يعد من كبار الاغنياء ويضيف الى ذلك التبوع سراويلات واقمصه يعطيها من لا ثياب له تستر عورته . وكان يتناولها من ثياب بيته وفرشه حتى لم يبق في داره شيئاً اسمه قماش ويضم اليه ما يمكنه ابتياعه من الخازن .

تلك حسنة من حسنات طرّازي شاهدتها بأمر عيني في أثناء الحرب المذكورة . وكثيراً ما كان يبذل المساعي وينفق المال لاجل معالجة المرضى ودفن الموتى المساكين وينقل صغار الفقراء الى المأوى ويعتني بنظافتهم وطعامهم حرصاً على حياتهم . زد عليه ان فريقاً من الادباء تعودوا الاختلاف الى بيته فكان يرحب بهم كأنهم هم اصحاب البيت وهو ضيفهم .

وبعد الحرب عني الاستاذ الحبيب بانشاء دار المكتب اللبنانية عام ١٩٢١ وصرف عليها من ماله ووقته وصحته . وهو اليوم يصنف التآليف المفيدة وينشرها خدمة للآداب والعلم . ولم يجب ان تحلو شيخوخته المباركة من نفع أمته فأجرى الله الحخير على يده في الحرب والسلام وفي شبابه وكهولته وشيخوخته .

وشاهدت شاباً من أكبر أعيان الروم في بيروت اشترك فيما قيل مع احمد جمال باشا قائد الجيش في الحرب العامة بالحجوب يأخذ مقادير عظيمة بالاسعار التي يعينها لنفسه . ولعله اشاع انه شريك جمال باشا ليلقي الرهبة في نفوس

المعتزين على هذه التجارة المحرمة زمن الحرب . وقد عرض عليّ مرة ان يعطيني مايلزمني من الحنطة ، لانه رآني من جماعة الباشاولي جريدة منتشرة فقلت له : ان عندي في الدار من الجبوب مايفيض عن حاجتي وعندني في انبار مزرعتي مقدار لابأس به يزيد عن بذاري ومؤونة عملي .

وما هي الا شهر حتى هلك شريك الباشا بالتيقوس بعد أن طعن في مروته وتمزق ماجمعه وما اسف عليه انسان .

وكانت في بيروت خلال هذه الحرب أسرة مسلمة من قدماء التجار اتفق ان كان في مستودعاتها بضائع عظيمة ارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً ، وأضافت الى مستودعاتها ماتسوقته من مدن الشام من البضائع . ثم بدا لها ان توظف الاموال التي جنتها في احتكار القوت لان الربح منه مضمون ووافر ، فاحتكرت كل مايحظر بالبال من اصنافه حتى الترمس نقل الفقير وغذاؤه ، وهو من أدنى المأكولات .

ومن جملة ماتدرعت به لاكتساب المال ان ملأت مركباً من الاحجار وضمنته عند احدى شركات الضمان على ان فيه بضائع ، واوعزت الى النوتي أن يغرقه في ظهر البحر فأغرقه ، وعادت على الشركة تطلب منها ثمن المركب المغرق فأرسلت الشركة غواصين اكتشفوا الحيلة التي دبرها المطالبون بضمن السفينة .

وما ان عقدت الممدنة حتى هبطت أسعار البضائع التي جمعها اولئك المحتكرون هبوطاً ربما فاق ذلك الصعود ، وافلست الأسرة عن مليوني جنيه عثماني ذهباً . وبلغت بها الحاجة أن أصبح أفرادها لا يصلون الى القوت الضروري الا بالاستخدام في اعمال حقيرة ، واستد الدائنون من هذه الاسرة اجهزة نساءً وحليهن ، ومنهم من مات قهراً لم تبق عليه عين لانه طالما ابكى العميون باجاعة القوم بل باهلاكهم .

وهذا ايضاً اراد ان يرشني ولكن لابلجوب كما كان من شريك القائد العام بل بدعوتي الى داره مع احمد جمال باشا والح عليّ بالحضور

بواسطة عزيز عليّ (مختار بك بيهم) فأبديت قبول الدعوة ، وقلت للوسيط اني مازلت اهبط بيروت منذ ثلاثين سنة ، وانا اعرف صاحبك من زمن بعيد فلماذا لم يدعني على الاقل الى تناول أكلة حمص بطحينة في قهوة الحاج داود على البحر (وهي قهوة متواضعة والأسعار فيها متهاودة) والآن يحاول ان أجيب دعوته وهو مادعاني الا ليظهر أمام الباشا اني صديقه ومن حملة عرشه ، وقلت : في جيبي دراهم من فضل الله وطعامي في الفندق ينتظري .

* * *

قصّ عليّ اصحابي ما كان من هؤلاء الأغنياء من الشراهة في جمع الثروة وما تأذى به الفقير من تحكّمهم في قوته فكتبت سلسلة مقالات في جريدة الشرق نعت فيها على المحتكرين سيئاتهم فوقع ما كتبت الموقع الحسن عند الحكومة وعند الأهلين وشكري عليها والي بيروت عزمي بك وبعث همتي على متابعة الكتابة في هذا الموضوع لأعوانه على حل رابطة المحتكرين ، وكان يفهم من مقالتي اني انتقد الوالي واثبت عجزه عن حل الاحتكار ، ولما رأني جاهرت باعلان حملة على المحتكرين لم يسعه الا استحسان ما كتبت واستزادني من الكتابة .

كتبت في بيروت

آغا خان ونظام حيدر آباد

الأول زعيم الطائفة الاسماعيلية في الهند ومن أعظم أغنياء الارض لا يتقدم عليه في غناه إلا نظام حيدر آباد الدكن فهذا أغنى رجل في العالم قيل انه يملك اربعمائة مليون جنيه استرليني .

ولا يزال زعيم الاسماعيليين يأخذ الزكاة من طائفته ، أما النظام فقد ضرب منذ زمن طويل ضريبة على كل من يدخل عليه ولو دخل عشرين مرة في اليوم ، والضريبة عبارة عن جنيه ذهبي واحد وريال فضة ملفوفين في منديل . ويعيش الزعيم الشيعي كأنه ملك من ملوك الف ليلة وليلة ليس في الملوك اليوم من يدانيه في بعض بذخه وسرفه . أما الأمير السني فيظهر التنسك والتكشف ويقم الصلوات ويזור المرضى ويمشي خلف الجنائز كأنه أمير من أمراء الاسلام في الصدر الأول .

مرض آغا خان بأخرة فلما أبلّم لم تحدته نفسه أن يتصدق على الفقراء كما جرت عادة الكبراء في مثل هذه الحال بل أعد رحلة الى مكان سحيق دعا اليها من واسوه في مرضه من خلان الصفا ، ولم يلبث أن جاء الريفيرا على طائرة مائية وكان من أهم ما شحنته صناديق الويسكي ثم استقل طائرة جوية الى افريقية قاصداً الى الادغال المعروفة بجنة الحيوان من المناطق الجبلية في مستعمرة كينا البريطانية وهناك كانت تنتظره ائقاله في أربع عشرة سيارة ضخمة تنقل الخيام والأسرّة والأغطية والثلاجات والفرش وادوات الاستصباح بالكهرباء والماعون وأواني المائدة والشاي والشراب ويحمل في جملة ما يحمل صناديق النبيذ المعتق والشبانيا والويسكي وفي هذه القافلة ٨٠ خادماً منهم ٦٠ من أهل افريقية و٧ طهاة من الأوربيين وبينهم زوجته الفرنسية وماشطها واحد ابناؤه ، وقدر لرحلته العتيده خمسة وعشرين مليون فرنك قابلة للزيادة لا للتقصان .

زعيم ديني يسرف هذا الاسراف ولا يتخرج من أن يقبض الزكاة بافكار
شيعة ويتنعم هذا النعيم على حساب أتعس خلق الله ومنهم نموذجات تؤلم
القاوب في سلمية وجبال العلويين من الديار الشامية . آغا خان اليوم في
الثامنة والسبعين من عمره لم يترك باباً من أبواب المرح الا وجهه ولسان حاله
الذنيا زائلة ومن لم يغنم فرص الحياة فاته نصيبه من الدنيا . أما نظام
حيدرآباد فما أثر عنه كصاحبه أن ندت يده بشيء المسلمين وهو المسلم
الحنيف القانت !

الجهل في القريم والهربت

سبحان الله كيف تبدل العقليات وتجهل جماعات وتتعلم جماعات ، كان
العلم منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين ومحتكراً في أبناء
الأشراف عند الغرناطيين والرومانين وخصوصاً باعداد من الشبان المنتخبين
عند الهنديين واليونانيين حتى جاء العرب بعد الاسلام وأطلقوا حرية التعليم
وأباحوا تناول العلم لكل متعلم فانتقل الى اوربا حراً ، ومع هذا أتت
عليها بضعة قرون وهي ترسف في جهالتها ، والعرب ينفحون العالم بعلمهم
وعلمائهم ومكتشفاتهم وليالي الجهالة الجهلاء تعم الغرب بظلماتها .

ذكر روبرتسون الانكليزي في مقدمة تاريخ شارلكان أنه وجدت عدة
قوانين ووثائق صادرة عن أعيان من أصحاب الدرجات الرفيعة يستبان منها
انهم كانوا لا يعرفون كتابة اسمائهم ولا توقيع ما يوقعون ، ولذلك كانوا
يصنعون صورة صليب على الوثائق التي يكتبونها تكون بمثابة توقيع لهم .
وكان الكونت هريو رئيس المحكمة وأعظم القضاة في القرن التاسع لا يعرف
كتابة اسمه وكذلك دوغسلين رئيس الجيوش الفرنسية واعظم رجال الدولة
واكبرها في القرن الرابع عشر أمياً ايضاً . قال روبرتسون ولم يكن
هذا الجهل مقصوراً على العوام بل كان اغلب القسيسين ارباب الرتب العالية

لا يستطيعون كتابة اسمائهم على القوانين التي كانوا يقررونها في مجالسهم ،
ويسأل كل من يطلب ان يتقلد منصباً او وظيفة هل يعرف ان يقرأ الانجيل
والرسائل ويفسر معناها ولو كلمة كلمة من غير نظر الى تفسير الجملة ا ه .
وانقلبت الحال بعد قرون فغرق الشرقي المسلم في الجهل وتقدم الغربي
المسيحي الى ساحات العلم ، وعاد المسلم العربي بعد ذلك السبات العميق
يذكر ماضيه ويحاول استرجاع بعض ما كان له فيه ويعتمد على الحكومات
في تعليم أبنائه وبناته على الأكثر ، وما برح المسلمون مقصرين عن جيرانهم
المسيحيين في البلاد الاسلامية في انشاء المدارس الابتدائية الأهلية (راجع
تقرير معارف الجمهورية السورية عن سنة ١٩٤٦ لوضعه صديقنا الدكتور
جميل صليبا) ، وكان في تلك السنة عدد المدارس الاسلامية (٦٥) وعدد
المدارس الكاثوليكية (١٠٠) وعدد الارثوذكسية (١٠٧) وعدد
البروتستانتية (٢٢) وعدد الاسرائيلية (٤) فليس توزيع المدارس الأهلية
على المذاهب المختلفة موازياً لعدد افرادها ، فعدد الطوائف المسيحية مثلاً
اقل من عدد المسلمين بخمس مرات ولكن عدد مدارسهم يزيد على عدد
مدارس المسلمين الأهلية بثلاث مرات ونصف من مجموع سكان يبلغون
في الاحصاء الرسمي ٢,٩٤٩,٨١٥ ونعتقد انه ينقصه بضع مئات من الألوف
خصوصاً والمشهور ان عدد اعراب البادية في هذه الجمهورية لا يقل عن مئات
الألوف ، وفي هذا التقرير ان نسبة مجموع التلاميذ في سورية كلها الى
مجموع السكان ٥ بالمائة اي انه يقابل كل الف من السكان (٥٠) طالباً
فقط ، وهذه النسبة معادلة لنصف النسبة الطبيعية لأننا نقدر عدد الطلاب
الذين هم في سن التعليم الابتدائي في سورية بـ ٩٠ في المائة من مجموع السكان
اي ان عددهم يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ تقريباً فاذا كان عدد تلاميذ المدارس
الابتدائية الرسمية والاهلية والاجنبية معاً ١٥٠,٣٥٠ كان عدد الاطفال
الذين لا يتعلمون في المدارس ١٤٩,٧٥٠ تقريباً ، فنصف الأطفال اذاً يتعلم
في المدارس فقط .
أما تعليم البنات فما زال يحتاج كثيراً من العناية ، فقد جاء في هذا

التقرير أن عدد مدارس البنين في عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ (٦٠٧) وعدد مدارس البنات (١٣٠) وعدد المعلمين (١٨٠٢) وعدد المعلمات (٦٩١) وعدد التلاميذ (٧٣,١٣٧) وعدد التلميذات (٢٦,٤٦٦) .

أما في لبنان فنسبة المتعلمين فيه أرقى من سورية فقد سألنا أيضاً صديقنا الدكتور صليبا عن معارف لبنان فاجابنا بما يأتي :

كان عدد المدارس في لبنان خلال العام الدراسي ١٩٤٦ - ١٩٤٧ كما يلي :
المدارس الرسمية في جميع الدرجات ٦٣١ ، المدارس الأهلية ٨٧١ ،
المدارس الأجنبية ٣٠٦ . المجموع ١٨٠٨

وكان عدد تلاميذ هذه المدارس (١٨٠٣٥٨) طالباً وطالبة منهم :
٥٣١٩٠ طالباً وطالبة في المدارس الرسمية و ٧٧٠٥٧ في المدارس الأهلية ،
٥٠١١١ في المدارس الأجنبية .

والمدارس الرسمية تنقسم الى قسمين : ابتدائية تكميلية ومسلكية ،
وليس في لبنان مدارس ثانوية رسمية . والبيان الآتي يوضح عدد المدارس
وعدد التلاميذ في التعليم الرسمي .

٦٢٣ في المدارس الابتدائية التكميلية تلامذتها ٥٢٤٢٢ ، و ٨ في
المدارس المسلكية تلامذتها ٧٦٨ .

والمدارس الأهلية تنقسم كذلك الى قسمين : ابتدائية وثانوية وأعدادها كما يلي :
٨١٥ المدارس الابتدائية الأهلية وتلامذتها ٦٤٧٦٩ ، و ٥٦ المدارس
الثانوية الأهلية وتلامذتها ١٢٢٨٨ .

ان تلاميذ المدارس الرسمية موزعون على مختلف الطوائف وفقاً
للجدول الآتي :

المسلمون	٣٥٣٨٩	طالباً وطالبة
المسيحيون	٢٣٥٥٣	= =
الدروز	٤٠٧٩	= =
الاسرائيليون	٢٩	= =
طوائف أخرى	١٤٠	= =
المجموع	٥٣١٩٠	

م (١٢)

والبيان الآتي يوضح لنا أيضاً توزيع المدارس الأهلية على الطوائف المختلفة :

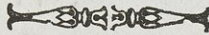
عدد المدارس		
المجموع	الابتدائية	الثانوية
١٢٩	١٢٢	٧
٧٠٧	٦٥٩	٤٨
٢٢	٢٢	٠
١٣	١٢	١
٨٧١	٨١٥	٥٦

اما عدد البنات في المدارس الرسمية المختلفة فهو (١٢٦٩٩) وعددهن في المدارس الأجنبية (٢٦٦١٩) .

وليس عندي احصاء هن في المدارس الاهلية

عدد سكان الجمهورية اللبنانية بلغ في عام ١٩٤٦ (١١٦٥٢٠٨) منهم (٥٩١٦٦٦٠) رجلاً و (٥٧٣٥٣٩) امرأة ،

ان نسبة عدد الطلاب في جميع المدارس الى مجموع السكان هي ١٥٪ تقريباً وهذا يدل على ان الأمية تكاد تكون غير موجودة في الشبان . ذلك لأن النسبة الطبيعية للتلاميذ في سن التعليم الابتدائي لا يزيد على ١٢٪ وهي توجب ان يكون عددهم بالنسبة الى مجموع السكان (١٤٠٠٠٠) على الاكثر في حين ان عددهم في المدارس الاهلية والرسمية وحدها (١١٧١٩١) . واذا كان في لبنان اميون فهم من الذين تجاوزوا سن التحصيل الابتدائي او من ابناء القرى الفقيرة النائية .



كلام جديد

نشر حزب البعث العربي منشوراً أماًط اللثام عن تعليل ثورة الشعب الأخيرة بقوله :

تزوير الانتخابات ، وفساد الحياة النيابية بشراء ضمائر بعض النواب واستعمال الضغط والارهاب مع البعض الآخر لمنعهم من حق المناقشة ، ومناوأة الاحزاب المعارضة وتسخير الدولة لخدمة انصار الحكم واحزابهم المصطنعة والتعطيل المتكرر للصحف المعارضة بقصد الجأها الى التوقف وانغلاق الاموال على الصحف الاخرى وقتل ضمائرنا حتى تصبح ادوات مسخرة للسلطة ، وجعل الاذاعة التي هي ملك الأمة بجمع هيأتها بوقاً محتكراً للسلطة القائمة وأداة لتضليل الشعب ، وجعل وظائف الدولة وفقاً على الأنصار بصرف النظر عن الكفاءة والأخلاق ، وتحويل الميرة من مؤسسة تضمن الحيز للشعب بأيسر ثمن ، الى مؤسسة تضمن لكبار المزارعين أوفر المزايا وللموظفين من انصار الحكم اذخهم الرواتب ، والاستهتار بقضية رئيسة كقضية النقد ومعالجتها بالكذب والمغالطة والمماطلة ، وتحميل الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة اكبر قسم من الضرائب وخاصة الضرائب غير المباشرة التي تسبب الغلاء الفاحش في أسعار المواد الغذائية والضرورية للحياة ، وحصص القطع النادر ورخص التصدير والاستيراد بفتة محدودة من التجار المتحالفين مع رجال الحكم ممن اصبحوا يستأثرون وحدهم بعظم الثروة ، وفتح باب الرشوة والسرقة والخيانة لكبار الموظفين في الادارة والجيش دون مسؤولية او محاسبة ، والاستئثار بالسياسة العربية والخارجية ودفعتها في طريق الانفصال والانانية الشخصية والتآمر مع الاستعمار ، وأخيراً سد الطريق سداً تاماً في وجه اي امل في الخروج من دائرة هذا الحكم الفاسد وفي امكان تبديله او اصلاحه ، وذلك بطغيان السلطة العليا على السلطات جميعاً وتعطيل

الحكم الدستوري بالفعل رغم قيامه في الشكل ، تلك هي المفاسد التي ثار الشعب عليها وناضل من اجل القضاء عليها ه .
وليت هذا الحزب وهو مؤلف من رجال علم وأدب وقانون يتولى الامر بضع سنين لنرى ما يحقق من منهاجه لخير هذه الجمهورية الفتية .

الاونيسكو

الاونيسكو او منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة . جمعية جرى التفكير في تأسيسها سنة ١٩٤٥ في لندن وسرى الى الولايات المتحدة الاميركية ودخل فيها ثلاث واربعون دولة ، توت بريطانيا العظمى دعوة المؤتمر التحضيري الاول في لندن ، وفي باريز سنة ١٩٤٦ عقد المؤتمر العام الاول وعقد الثاني في المكسيك سنة ١٩٤٧ والثالث في لبنان سنة ١٩٤٨ وقد اجتمع المؤتمر في بيروت في السنة الماضية واختار الاونيسكو محل اجتماعه كل دورة في بلد من بلاد الدول المشتركة فتارة يجتمع في بلدة شرقية وأخرى في بلدة غربية .

وبرنامج الاونيسكو مطول يتناول معظم مايدخل في موضوع العلم والثقافة ومن اعماله ترميم البلدان التي دمرت في الحرب وتبادل الاساتذة والخبراء والطلبة بين الدول والاتصال بالجمهوريين عن طريق الصحافة والمذياع والسينما ودور الكتب وتعليم الأميين وترقية الجامعات واصلاح الكتب المدرسية وبسط العلوم الى غير ذلك .

كل هذا يقصد به ان تتفاهم الشعوب وتتعارف من طريق العلم والثقافة حتى ترتفع الحرب بشرورها عن رؤوس العالم . وفي دستور الاونيسكو « ان الحرب تولد في العقول والواجب ان يقوم اساس الدفاع عن السلام في العقول أيضاً » . قال مندوب الولايات المتحدة : « اني على ثقة ان منظمة الأمم لن تنجح اذا فشلت الاونيسكو واعتقد انه ليس في وسع مؤسسة

سياسية او عسكرية ،هما بلغ من قوتها ان تفرض السلم الا اذا قام الى جانبها ما ينشر المحبة والتفاهم بين شعوب الارض ، وهذه هي مهمة الاونيسكو» وقال مندوب ايطاليا : « والكفاح من أجل السلم من طريق الفن والعلم والثقافة باعتبار ان هذه السبيل هي الاداة الناجعة لتعليل اسباب الاختلاف بين البشر انما يعني اعطاء هذه القيم معناها الحقيقي بنقلها من عالم المجردات الى عالم المحسوسات بغية انشاء عالم نرغب في ان يكون اكثر انسجاماً وتفاعلاً وتعاوناً » . وطلب مندوب البرازيل في المؤتمر الى جميع الامم ان تجدد العزم في تطبيق مبادئ الاونيسكو الذي اتشيء على انتقاض حروب وآلام متصلة رافقت الانسانية منذ الحروب الصليبية في الشرق الى الحروب العالمية الاخيرة في الغرب . »

فكرة الاونيسكو فكرة كل عاقل في البشر ولكن التنفيذ يصعب على ما يظهر .

رجال الوزارات

ما هم رجال الانتداب على سورية ولبنان بانتقاء الكفاة المناصب بقدر اهتمامهم بتقريب من كان قلبه مربوطاً بهم وكانوا ممن يحسنون مصانعتهم ، كان فيمن اصطفوهم الأكفياء وكان فيهم دون ذلك . جعلوا من سمسار صعاوك وزيراً للمعارف واتخذوا من مستخدم صغير في الاستخبارات ومن مطرود من شركة ماكنات وزيرين . وأكثرهم لم يتخرجوا في مدرسة وكان منهم رؤساء وزارات لا يحسنون فناً من الفنون ولا يتكلمون لغة من اللغات . كان هذا أيام الانتداب فما عذرنا اليوم في تولية الجهة الفاسدين أرقى المناصب ، ونعتر عن خطانا بان الحق على الحزب الذي اختار الوزير فولى بلا خجل (الحاج حمدو) وزارتين وهو عاجز عن ادارة ديوان صغير ولا تمرن في أقل وظيفة ادارية أو سياسية خالي الذهن من معرفة القوانين والفنون ويزيد الى ذلك فساد ذمته .

نكتة ذكرتها وأنا أكتب هذا الفصل : كان على عهد الانتداب في دمشق مدير داخلية ماهر في القوانين والادارة أخذ مرة يناقش مستشار البلدية وهو افرنسي في فتح شارع فكانت براهين المستشار براهين الجاهل الذي يتكلم سقيماً ورعياً وبراهين المدير براهين العالم العارف بصناعته . وما قاله المستشار للمدير ان هذا الرأي الذي تبديه سعادتك لا يمكن تطبيقه فناً ، فأجابه المدير ومتى كنت يا صاحبي تعرف الفن ؟ أما كنت أنا على عهد الترك قائم مقام في يافا وكنت أنت بها صاحب حانة وكنت ارسل خادمي الى حانتيك فابتاع منها ما يلزمي من الأشرطة ؟ فملكك وصنعتك هذه ماذا يحق له أن يدعي من معرفة الفن .

ويصدق هذا الشاهد على بعض من تولوا الوزارات في عهد الانتداب وبعده . ومنهم من يضيفون الى غباوتهم قلة امانتهم وقلة الامانة على ما يظهر من مستلزمات الجهول . ومثل ذلك يقال في (ابو كعود) وهو وزير ابتليت به هذه الامة منذ نحو خمس وعشرين سنة وليست له مزية من المزايا الا الاحابيل التي تعلمها ، هذا ان كانت الاحابيل تعد مزية يوم وزن الرجال . ومن أعظم العار أن ينقل هؤلاء الوزراء المنحطون من وزارة الى وزارة كما ينقلون هم أنفسهم من حزب الى حزب كأنهم اعلاق نفيسة لا يستغني عنها قصر ولا ندوة ، يرتكبون التزوير ليوسدوا اليهم أشرف الأعمال وهي النيابة ، وكأنهم من الدعائم في كل بناء اذا نسل حجر من الاساس تداعى وانهار . كان من جملة النقمة على احدى الوزارات المنحلة أن من أفرادها من

كان يتناول رواتب ومخصصات من عدة وزارات ورياسات خلافاً للقانون حتى بلغ راتبه فيما قيل ثلاثة أضعاف راتب أعظم رئيس ، ولسان حال من ابتدع هذه البدعة « من أحببناه أغنيناه ورفعناه ومن أبغضناه حرمانه ونكبناه » وبدون العدل ينقض كل بناء وتضمحل أعظم أمة .

لا يحسن اتقاء الوزراء الا بالبحث عن ما ضيهم وحاضرهم فمن ثبت لنا ولغيرنا ذكاؤه وأمانته وكفاءته نصبناه والافتشنا في الطبقات الأخرى فهي ما خلت قط من الصالح الذكي ، وملايين من الخلق منها انحطوا لا تخلو من عشرين

وثلاثين رجلاً يصلحون أن يديروا بالعدل أمور دولتهم ، ولا نعود الى تجربة من جرّب ففي أمثال العامة « من جرّب الجرّب كان عقله مخرباً » ونحن لا غضاضة علينا اذا بدلنا من لا يصلح بمن يصلح ، نعتبر الصفات التي تتطلب من الوزراء ولا نعتبر كثيراً مجزية الوزير ، فالجزبية ما كانت يوماً من الأيام عنوان الكفاءة ومقياس الاخلاق ، ولكم شهدنا وزراء لا يحسنون حل أقل مسألة من مسائل وزارتهم ، وكان جلّ اعتمادهم على الضعاف من رجال دواوينهم يصرفون لهم أمورهم لانهم من جماعة (حاج حمدو) و(أبو كعود) ولو فحصتهم ما وجدت مداركهم تعلو عن « أجير شيخ حارة » أو « فراش قديم في ديوان » .

وأقول في الختام لمن بأيديهم البت في الامور : لا تعتمدوا بعد الآن على أجهل الوزراء وأعظمهم ولا تغفروا بكلامهم وهم على الكراسي فاتم الذين كبرتموهم في الانظار ولولا الكراسي لكانوا سألبة كلية ، أما هم فسيان عندهم رضي الناس عنهم أم غضبوا ماداموا آمنين على ما في جيوبهم ورئسهم ورضياً عنهم .
(كتبت في خريف سنة ١٩٤٩)



عشرة المنماطين

قال لي والدي في معرض تفضيل جيله الأول على جيله الثاني متلهفاً على مافات من سالف ايامه وهكذا اعتاد معظم الشيوخ : كنا خمسين رجلاً جمعت بيننا الصداقة وألفت بين قلوبنا العشرة وتقارب الجوار ، وكان اكثرنا من طبقة التجار فخرجنا من المدينة للاصطياف في قرية الهامة من جبل سنير. نزلناها أول يوم عيد الفطر وغادرناها خامس يوم عيد الاضحى اي صرفنا فيها شهرين ونصفاً . وكان نظامنا تاماً في كل أمر من أمورنا ، لم يلبس أحدنا نعل غيره ولا تخالفنا في شيء وكان أحدنا ينزل الى المدينة مرة في كل اسبوعين ينظر في أمور مخزنه ويحيب على ماورد عليه من رسائل في البريد . فقلت له : وكيف كنتم تصرفون هذا الوقت الطويل ؟ قال : كنا نقضيه في العزف على ماكان لدينا من أدوات الطرب ، وكانت الموسيقى والغناء والانشاد ورقص السماح من أهم ما كنا نلهو به ، ثم نلعب الالعاب الرياضية المألوفة وفيها قفز ونط وحرقة ، وتناقش في ايراد القصص والحكايات وحل الالغاز والمعميات وفي ضروب من الهزل والدعابات . وكنا اذا صلينا نطيل الصلاة واذا جلسنا الى المائدة نطيل الاكل ، وهكذا يمر الوقت بدون أن نشعر . فقلت له وهو يفاخر بفرط أدب معاصريه : ان كسلكم وعدم حسابكم للمستقبل وقناعتكم بالقليل كانت مما جلب علينا الويلات ، فغدونا نسرع لنلحق العاملين المتقدمين ، ولا نزال بعيدين عن الغاية . ومما قلت له ولو كتب لي أن أكون شريككم في هذه النزهة لدخل الملل على قلبي من اليوم الاول وتددتني اقضي العمر الثمين في تافه الملهمات اللذة تتوقع منها ولا فيها للنفس سلوى .

ولو كان يجوز التوسع في الحديث مع والدي لقلت له : ولماذا لم يصحب كل منكم عماله يكتري لمن داراً فيأنس الرجال بالرجال والنساء بالنساء

ساعات معلومة من الليل والنهار ، اذا لم يبح قانون تلك الايام اختلاط الرجال بالنساء ، ولو فعلتم لكانت الأسرة تصطاف كلها وتستفيد بالعشرة ، ومعظم جماعتنا الى اليوم لا يفكرون في بنات حواء ، قتلتهن الأثرة وحب الذات . وفاتني أن أسأل أبي يومئذ وهل كان في جماعتكم واحد يستطيع أن يقرأ لكم في كتاب ويشرح لكم ما غمض عنكم حله وفهمه ، وبذلك كنتم تمضون ساعتين مفيدتين من كل وجه . والغالب أن هذا الطلب كان في غير محله لان كل هذا الجمع هو ممن تغلب عليهم الأمية فكانوا بذلك متماثلين ، ولهذا تمت ألفتهم ولم يشد عنهم عقل عن عقل ولم تحدث أحدهم نفسه أن يميزها عن اخوانه بشيء على ما جرت عادة المتصاحبين ، وأعتقد الى هذا ان هؤلاء المصطافين لو كانوا ممن يقرأ ويفهم ما يقرأ ما أضاعوا شهرين ونصف شهر من حياتهم في مهازل لا تعود عليهم بغير تقطيع الوقت سدى .

وزنت أحاديث المجالس بميزان النقد ، وقارنت بين أمس واليوم ، فاستبان لي أن البون شاسع بين الآباء والأبناء وأكثر منه بين الأحفاد والأجداد ، فما كان يرضي الأسلاف من الأحاديث لا يرضي أبناءهم وما كان يُعد من مباحج الحياة يحسبه أهل العصر مضية للوقت بل سرفاً وسفهاً . ومن أجل هذا نرى بعض البيوت الى اليوم خالية من الكتب على غنى أصحابها لأن صاحب البيت الأول ما كان يقرأ ولا يكتب فخرج ابنه على غراره الا قليلاً هذا والكتاب مها كان نوع تأليفه أعظم محدث ومسلي وليس الكتاب بالعزيب المنال بعد انتشار الطبع هذا الانتشار ، وكانت الكتب بالامس مخطوطة يعز وجودها وهي في موضوعات مملة لا تستسيغها كل الاذواق والكتاب اليوم منوع الابحاث جهم الفوائد ، يروح عن النفس ولا يدخل الملل عليها مها طالت عشرة المرء له .

معلمة الاسلام

او دائرة المعارف الاسلامية أو الموسوعات الاسلامية أو الانسيكلوبيديا الاسلامية من أجل التآليف والاعمال التي قام بوضعها علماء المشرقيات في الغرب وأصدرتها مطبعة بريل في ليدن من بلاد القاع في ثلاث طبعات ألمانية وانكليزية وفرنسية وانفقت على تأليفها وطبعها ونشرها جمعيات علمية ودول غربية واشترك نحو خمسين عالماً غريباً في هذا التآليف النفيس ولم يشترك فيه غير عربي واحد وتركي واحد وهندي واحد واميركي واحد وما آزر فيه اسباني ولا برتغالي مع كثرة الموضوعات التي كان يفرض أن الاسبان والبرتغاليين يعرفونها عن بلادهم معرفة احاطة ، وقد وقع الكتاب في أربعة مجلدات ضخمة مع ملحق صغير ضم ما ظفر به الباحثون من المعارف عن ديار الاسلام ورجاله وما الى ذلك .

وتعلقت همه بعض الشبان في مصر بنقل هذه المعلمة الى العربية فاجادوا في ترجمة بعض مقالاتها وكبوا في ترجمة الآخر . وتتوقف الاجادة في النقل على ان يكون المترجم ممن احاط بالموضوع احاطة تامة . وكان الواجب أن تشرف على الطبعة العربية لجنة من كبار الاساتذة فنعجبوا العمل واستسهلوه فسقطوا ، على مساعدة وزارة معارف مصر لهم . ثم بدا لهم ان يعلقوا على بعض مقالات المعلمة بأقلام فئة من الأدباء والعلماء ما ارادوا به اصلاح بعض النقص الذي جاء في الاصل فأحسنوا في اكثرها . وقد وهم بعض المعلقين أن تطلبوا من مؤلفي المعلمة ان يكتبوا معلمتهم من حيث النظر الاسلامي لامن حيث نظرهم هم .

وكنت لاحظت على ادارة هذه المعلمة اشياء كتبت بها الى صديقي العلامة هوتسما الهولاندي رئيس تحريرها منها أنه فات المعلمة ذكر كثير من رجال الاسلام المتقدمين والمتأخرين ومن هؤلاء من هم احرياء ان يترجموا لهم بأطول مما ترجموا وان في بعض المقالات نزعة من التعصب لا يليق ظهورها في صفحات

مثل هذا الكتاب كمقالات البلجيكي لامنس والروسي غرانشكوفسكي ومقالات هوار الفرنسي الموجزة ايجازاً محلاً اليق بها ان تكون فهرساً من ان تنشر في معلة يقصد بها التقصي - فاعتذر عما وقع وارادني على ان اتولى كتابة بعض المقالات في المعلة فلم أجب طلبه ذلك لان معظم مقالاتها سبقتي اليها بعض علماء المشرقيات وقد صدرت في جيل غير جبلي .

فات هذه المعلة ترجمة كثير من القدماء والمحدثين من رجال الاسلام ومنهم عبد الحميد الكاتب واحمد بن يوسف الكاتب واحمد بن يوسف المعروف بابن الداية وعمرو بن مسعدة وعبد القاهر الجرجاني وعلي بن عبد العزيز وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو هلال العسكري وأبو أحمد العسكري وصالح بن جناح وابن الحناط الكفيف وابن خاتمة الاندلسي وابن عنين وابن الصيرفي والوهراني وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف وعمارة بن حمزة وابن طولون الصالحني وابن عبد الهادي وغيرهم من المتقدمين .

وترجمت المعلة لمحمد بن عبد الملك الزيات وابن العميد ترجمة مختصرة من قلم كليان هوار سابق الحلة في اقتضاب التراجم التي لم يظهر عليها ادني بحث وتعب ، يكتب مثلها اقل الطلبة بتصفح اي كتاب من كتب التراجم القديمة . وفات المعلة من المعاصرين ترجمة الشيخ طاهر الجزائري واحمد تيمور باشا واحمد زكي باشا والسيد محمود شكري الآلوسي واحمد القباني (أبو خليل) والسيد محمد عابدين والسيد محمود حمزة والسيد عبد الرحمن الكواكبي واحمد شوقي بك وحافظ ابراهيم بك ومحمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري وامثالهم من العظماء والمأمول ان تنظر ادارة نشر المعلة الاسلامية نظر تمحيص اكثر مما نظر فيها ومحص ، وان يعاد طبعتها طبعة جديدة مضافاً اليها النقص الذي ظهر في بعض فصولها وان تضم اليها التراجم التي اغفلت . واذا عرضت هذه المعلة على كبار العلماء منذ الآن سدوا بعلمهم نقصها وحذفوا ما كان فيها نابياً عن الحق مغموساً بالتعصب والرعونة ، و اضافوا الى صفحاتها ما اكتشف من آثار العرب ومخطوطاتهم منذ صدر الجزء الاول اي منذ أربعين سنة .

اضر الله على علم

ادركته شاباً مكباً على النسخ والجمع في دار الكتب ، وزهو الشباب
وزهو المعرفة مائلان فيه ، اصابه العجب لتقدمه ابناء طائفته بمعرفة اللغة
العربية وكان تخرج بأعظم علماء النهضة . واشتهر منذ بدأ بنشر اجات
ومقالات في بعض المجلات الادبية حشاها بمغامز في الاسلام والعرب لا تقل
بسفاهتها عن مطاعن لامنس اليسوعي . اما مزيته فكانت في انه لم يقصد
من الادب التكبس به وجعله حلية له وزينة ، ثم واسطة للتشفي ممن
فطر على بغضهم من المسلمين ، كسب عطف المتعصبين من اهل نحلته وفقد
عطف السواد الاعظم من قراء العربية .

وحاول في عهد الانتداب الافرنسي ان يظهر التوبة بما اجترح ويتقرب
من رؤساء العلماء والادباء في بلده ليجعل منهم سائماً للوصول الى مظهر
علمي كان يطمع فيه ، فما عاروه انتباهاً وكانوا اذا نسي احدهم او تناسى
ماضيه الاسود ذكره به اخوانه وذكروا له قلة انصافه فيما خاض عبا به من
الاجات العربية . وما زال وهو اليوم في عتبة التسعين على كثرة اجتهاده
بعيداً عن النور الذي يسير بين ايدي العلماء محروماً الذوق الادبي لانه
عاشر الكتب واصطحب الرهبان وهؤلاء لا يدركون من امور المجتمع والبيوت
شيئاً يعتد به . قام والقحة سلاحه بمجمات غير رشيدة على الاسلام وعبث
بتاريخه وآخرة المعتدي الفشل . وأي اعتداء افظع من ان يحمل كاتب
على دين يعد اشياعه بمئات الملايين واي سلاطة ان يحاول بعد الهرم تلافي
مباقات ولكن الصيف ضيعت اللبن .

المؤيد والمقطم

حوالى سنة ١٩٠٧ قصدت في القاهرة صديقي الدكتور يعقوب صروف احد صاحبي المقتطف والمقطم لأزوره في مكتبه فلم اسعد بلقياه ولقيت شريكه الدكتور فارس نمر فسلمت وسلم ثم قال كلمتكم : انا استغرب ان يجرر مثلك في جريدة المؤيد . وقلت ولم لأؤازر فيها وهي اوسع الجرائد المصرية انتشاراً واهم الصحف الاسلامية في العالم . والغالب انه بدرت مني كلمة في الثناء على المصريين واشرت الى مطالبتهم بالاستقلال فاغتاظ وقال انهم لا يلبقون للاستقلال وان أقل جاويز انكليزي ارقى من اعظم رجل مصري . فتألمت لجرحي هذا الجرح وقلت له على البداية : لا يمدح السوق الا من ربح ، تقول ذلك لانك تتبع من الانكليز هذه البضاعة ، وتشم أهداً ابناء مصر . وكدنا نتهاك وتتضارب لولا ان دخل علينا داخل فقطعنا الحديث وانتهى المجلس على هذا القدر من التشاحن .

واذكر اني دخلت ذات اليوم على الدكتور صروف في وقت الظهيرة فشاهدته يقرأ التجربة الاخيرة من المقطم ويحذف مقاطع منها وكلمات . فلما انتهى من النظر فيها التفت الي بكلمته وقال : مادري كيف نجوز شتم المصريين في جريدتنا ونحن نعيش بين اظهرهم ؟ . وصروف يجرر المقتطف ونمر يجرر المقطم ، وكان صروف رحمه الله الى الاعتدال يغلب عليه جلال العلم وتؤدة المحققين والمفكرين ،

اكرام الغريب

قال لي أحد شركائي في الزراعة انه كان في ضيافة أحد معارفه في قرية من قرى الغوطة وسهر عنده جمهور من اهل القرية كان بينهم رجل من وجوهها . فلما كاد المجلس يتقوض في المزيع الثاني من الليل قال هذا الصدر : أوصيكم يا اخواني بالغريب ، اكرموه ما استطعتم ، وابدلوا جهدكم لادخال السرور على قلبه ففي ذلك فوائد لكم ولقريتكم . فقلت للراوي : وأنا سألت ذات يوم معلمي عن رجل من ابناء البيوتات في بلدنا وكانت له نسبة الى العلم : اراكم ترفعون من شأن فلان وهو على ما بلغني قليل العلم لا يستحق هذا الاكرام . فاجاب ان للرجل مزية جميلة يجب لاجلها احترامه . ذلك انه دأب من سنين طويلة على اكرام الغرباء القادمين علينا يكرمهم ويدعو اصحابه لاكرامهم يزورهم الجوامع والمدارس والمزارات المقدسة والمصانع الاثرية ويعرفهم الى صفوة الفقهاء والوجهاء فيعود الغريب الى بلده شاكراً مغبوطاً بما رأى ووعى . قال : اليست هذه مزية تستوجب اكرامه ؟ فقلت لو كان لي يد في وضع موازنة الدولة لخصت لبضعة اشخاص من ارباب المكانة مبلغاً عظيماً ينفقونه بمعرفتهم على اكرام الغريب وتحسين سمعة البلد فيعود ذلك على الحكومة والشعب بمنافع سياسية واقتصادية .

عقول مخربة

سمعت دعياً من ادعياء الفهم يطعن على أحد كبار العلماء لعدم عنايته
بثيابه وهندامه ويعد ذلك منقصة فيه ، والمطعون فيه ملاً الدنيا خيراً والطاعن
لامزية له الا مصانعة كل صاحب قوة ، هو يتذرع بمسألة لاتقدم ولا تؤخر
في عظمة الرجال . وفي الامثال الافرنجية الناس كالمداخن فالمدخنة التي يكثر
دخانها ليست ذات هندام حسن في العادة . وكأن القادح يحاول ان يتدرج
من حكمه على أعظم عظيم في قومه ليشير من طرف خفي الى ان بزّة اهله
هو كانت جميلة وهم جهلة ساقطون ليس لهم الا المظاهر البراقة وابنهم
السخيف لا يؤثر الا الجميل الثياب ولا يحفل بما تحتها من خزي وخبث . في العالم
من يحلو لهم ان يجر كوا السنّتهم بمعنى وبلا معنى يبدون الكراهة مما لا يدركون
سره ولا يلتئم مع أذواقهم كأن اذواقهم المعيار الاكبر في الحكم على كل شيء .
وسمعت من يخرق ويقول أي فائدة لنا من العلم ونحن كنا أسعد حالاً
قبل عهد علمكم هذا أيام كان آباؤنا أميين وكانت أشغالنا موفقة وكنا نكسب
وننعم من دون أن نتعب في تحصيل العلم ويتبجحون بان من الجهلاء من
وصلوا الى مناصب في الدولة وهم أجهل من قاضي جبّل ويقولون ان أناساً
جمعوا ثروات طائلة وهم لا يقرأون ولا يكتبون ويزيدون على قولهم ، أنتعلم
حتى نصير كفلان اشتغل بالعلم الذي تدعون اليه طول عمره وما اغتنى كما اغتنى
جاره الأمي ، وبماذا تجيب مثل هذا الغبي وعقله بهذا الضيق الذي ترى .
انكم مها بلغتم في تحاملكم على من لاتساوون قلامه ظفرهم لا تعودون
بغير الخزي في محاولتكم اسقاطهم ومن تتطلبون اثبات فضائلهم بالطعن
في أفضل الفضلاء هم أجهل الجهلاء .

المسلمون يتعلمون

كان أبناء الاغنياء على عهد ازدهار الاسلام يأخذون العلم في بيوتهم على أيدي المؤدبين ، وكان الفقراء يهرعون الى المساجد يتلقون فيها ما تطمح اليه نفوسهم من الآداب عن علماء ما قيدوا انفسهم الابواجبهم الديني ، وما قصدوا الا نفع قومهم . وكان للمدارس في فارس والعراقين والشام شأن عظيم في نشر العلم الاسلامي والمدارس الكبرى في نيسابور والري والازهر والزيتونة والقرويين مكانة ليست للمدارس التي أنشأها الافراد . وعادت مدارس العجم عامة بأعظم الخيرات على الاسلام والعربية سواء منها الصغرى أو الكبرى وظل نور المدارس الجامعة التي ثبتت على محن الدهر يسطع العصر بعد العصر ، حتى اذا كان القرن الماضي وبدأت نهضة مصر أخذت العلوم الاسلامية التي كانت تفتش من الجوامع ينضم اليها ما تنتجه المدارس الحديثة فيتساند القديم والحديث ، ولمصر ميزة خاصة بأزهرها كان العامل الاكبر فيه كونها بقيت دولة أو شبه دولة وساعدها أيضاً غناها وتوسطها بين الاقاليم الاسلامية وكونها ابنة مدينت عظمة تسلسلت فيها قروناً . واثبتت مصر بعد زوال دولة الترك عنها أنها ذات كفاءة للعلم وفيها كان على الدهر بقايا منه في كل زمن وما لبث العراق والشام في العهد الحديث أن طلبا الى مصر انجادهما بمدرسين مصريين يلقنون ابناءهما على الطريقة التي تقدم المصريون فاقتبسوها من الغرب ومزجوها بما كان عندهم من بقايا العلوم القديمة ، وقد بلغ عدد المدرسين المصريين في الاقطار العربية خمسمائة استاذ يدرسون في الثانوي والعالى ، وانتهى عدد الطلاب الوافدين على وادي النيل لدرس الشريعة والعربية والعلوم الحديثة الى ثلاثة آلاف فيهم الصيني والجاوي (الاندونيسي) والهندي والافغاني والقافقاسي والتركستاني والعراقي والشامي والمغربي وغيرهم من العناصر الاسلامية .

ومذ بدء النهضة تتجلى العناية بنشر العلوم على الطريقة الحديثة في

المدارس المدنية أكثر من المدارس الدينية حتى لقد ضعفت في بعض الأجزاء العلوم الشرعية ، وعلى نسبة الرغبة في الجديد كانت الزهد المحسوس في القديم ، وكان للحكومات يد في هذا التبدل عاون فيه الطلاب وآباء الطلاب لأن السواد الأعظم منهم يطلبون علماً يكسبون به معاشهم وعلوم الدين لا يعيش بها طالبها إلا في ضئيل خصوصاً بعد أن جعل القول الفصل للقوانين الغربية في معظم الإصقاع الإسلامية ، وما نجت من هذا التجدد إلا اليمن والحجاز ونجد والإمارات العربية في الجزيرة .

في خمسين سنة تطور العالم الإسلامي تطوراً ملموساً وكان أحباب الإسلام يتوقعون أن يتقدم خطوات أوسع من التي خطاها وتعذر ذلك لتوقف الاضطلاع به على بواعث ، منها ما هو مفقود ومنها ما يحتاج إلى الزمن فيصقل ما يصقل ويرذل ما يرذل . (وستلو القاريء الفصل الذي كتبناه في النهضة الشامية الأخيرة في مكان آخر) ويسرنا ان كانت العراق والشام أسرع الأقطار إلى الأخذ بمذاهب الترقى لما كان متصلاً فيها من الصفات الصالحة لتلقف العلم . وكان هذان القطران أكثر الأقطار انتفاعاً بنهضة مصر ، وامتازت العراق عن الشام بأنها ما ابتليت ببلية التقسيم كما ابتليت الشام فسلب عنها لبنان ثم شرقي الأردن ثم فلسطين ثم لواء الإسكندرونة ، وكانت وحدة العراق السياسية عوناً لها على الوحدة العلمية .

وعلى شدة العناية بنشر التعليم في مصر ما زال من يقرأون ويكتبون أقل بكثير من كوفحت أميتهم وأنشأتهم المدارس وقد أخرجت مصر هذه السنة من الأمية البغيضة أربعمائة ألف ، وأعدت العدة لمكافحة خمسمائة وخمسين ألفاً من قابل ، ولا بد من قضاء جيلين حتى ترفع غشاوة الجهل المطبق عن عيون البنين والبنات في مصر وغير مصر .

عرش غريب

صاحب هذا العرش « انطوان دي طونين » من پريكو (فرنسا) ذهب سنة ١٨٦٠ الى ياتاغونيا في اميركا الجنوبية وكان فيها قبائل من الزوج صعب على حكومة الشيلي اخضاعهم لسلطانها فتقدم ودخلهم وجمع شملهم وعاهدهم على ان يدافع عن استقلالهم ونادى بنفسه ملكاً على ياتاغونيا واروكانيا ومنح مملكته دستوراً مأخوذاً من الدستور الفرنسي . وفي السنة التالية قضى الجيش الشيلي على هذه المملكة المستحدثة ولم يرض الملك اوريلي انطوان الاول ان يتنازل عن الملك ولا ان يعترف بهزيمة ، فسجنه الشيليون اشهرآ ثم رحلوه الى فرنسا فمات تاركاً وصية ذكر فيها من يخلفه في الملك فكان لوالده ان يتقلده اولاً ثم لاخوته وفي الدرجة الثالثة يجيء ابن عمه واذا أبي الاب واولاده تقلد هذا الملك قبل ابن العم الا أنه لم يرحل للقبض على زمام مملكته واكتفى بتأسيس مفوضية لياتاغونيا واروكانيا كان يبيع فيها القاب الشرف وطوابع بريد المملكة ونقوداً رسم عليها شعارها فنجحت هذه التجارة ونصب الملك قناصل لمملكته ونال بعضهم براءات بمناصبهم ولا سيما في ايطاليا وغدا قناصله يدعون الى المقابلات الدبلوماسية .

قال راوي هذا الخبر « اندريه موروا » : وهكذا كان الزهو البشري لمن يحسن اللعب به متبعاً لاينضب لربيع يدر على ثاني ملك لياتاغونيا واروكانيا يعيش منه في باريز وما يعيش الا من غلة مملكة موهومة . وقد انقرضت هذه السلالة الملكية بوفاة هذا الملك ولكن براءات الشرف ونقود المملكة مازال عشاق الجماميع يتطلبونها . قلنا وبعض عروش الشرق الحديث لم تخل من غرابة في تأسيسها وسياستها وهي سخيفة بالقابها وبزاتها ومصطلحاتها .

باسم الدين

شهد العصر الذي نحن فيه ما لم يكده يشهده العصر الذي سبقه من تبدل واختلاف وكان دور الانتقال ذا الوان واشكال يشبه ذنب الطاووس بجماله وسخام القدر في اسوداده . كان أهله متباينين في صفاتهم تباينهم في سحناتهم وغلب الشر الحخير فيه واصبح الرياء والكذب من معتاد الازياء . والقانون الطبيعي يجري على رقاب الناس كافة لايفلت منه أحد حتى من باعوا واشتروا باسم الدين .

قال لي صديق عاقل ان المطران فلان جمع حتى الآن مئة وخمسين الف دينار جناها من ابناء طائفته في اميركا وطائفته هنا كما تعلم كثير فقراؤها وهو لايجود عليهم ببعض مايجب عليه لهم فقلت : أيقن يا صاحبي ان ماله سيذهب ويبقى عليه ائمه وعاره . فقد عرفت المطران ... - وكان يتعبد الله ببعض المسلمين في الغيبة ويدهن لهم في الحضرة - جمع باساليب رجال الدين عندكم اربعين الف ليرة عثمانية ذهباً وهاجاً ثم بدا له في آخر أيامه ان يعطيها لاحد ذوي قرباه ليشرها له في مصرفه فما هي الا اشهر قليلة حتى افلس المصرف وتبخرت ثروة المطران في جملة ماتبخر فيه ، ولم يعيش المسكين بعدها إلا قليلاً وراح أسفا على مالقي من نصب في بيع الغفرانات ومنح البركات . واعرف شيخاً داس على الامة ستين سنة وجاز على العامة وبعض الخاصة تدليسه وجمع مالاً كثيراً من طرق شتى ومن دول رأت استمالته فما ان دلي في جفرتة حتى استولى اولاده على ارثهم وبددوا ما ورثوه في الطرق التي يبذر فيها المستهترون اموالهم وفي أقل من أربع سنين اضمحل الارث ونفذ القانون الذي يعاقب على الشر وبه يعاقب الشيخ والمطران لمخالفتها روح دينها .

بتمزيق اموال الاشرار تغتبط نفوس الاخيار .

الاخوان المسلمون مأرُون

« تألفت منذ سنوات جماعة اتخذت لنفسها اسم « الاخوان المسلمون » وأعلنت على الملأ أن لها أهدافاً دينية واجتماعية دون ان تحدد لها هدفاً سياسياً معيناً ترمي اليه ، وعلى هذا الأساس نشطت الجماعة وبثت دعايتها ولكن ما كادت تجد لها أنصاراً وتشعر بأنها اكتسبت شيئاً من رضا بعض الناس عنها حتى أسفر القائلون على أمرها عن أغراضهم الحقيقية وهي أغراض سياسية ترمي الى وصولهم الى الحكم وقلب النظم المقررة في البلاد .. وقد اتخذت هذه الجماعة في سبيل الوصول الى أغراضها طرقاً شتى يسودها طابع العنف فدربت أفراداً من الشباب أطلقت عليهم اسم الجواله ، وأنشأت مراكز رياضية تقوم بتدريبات عسكرية مستترة وراء الرياضة ، كما أخذت تجمع الاسلحة والقنابل والمفرقات وتخزنها لتستعملها في الوقت الذي تتخيره ، وساعدها على ذلك ما كانت تقوم به بعض الهيئات من جمع الاسلحة والعتاد بمناسبة قضية فلسطين وأنشأت مجلات اسبوعية وجريدة سياسية تنطق باسمها ، وسرعان ما انغمست في تيار النضال السياسي متغافلة عن الاغراض الدينية والاجتماعية التي أعلنت الجماعة انها قامت لتحقيقها ...

« الجمعية ليست جمعية دينية بالمعنى الذي يفهمه الجمهور وانما هي جمعية سياسية دينية اجتماعية تنادي بتغيير القوانين وأساليب الحكم الحالية وان الخطب الدينية لا تفيد في توجيه الجمهور الى تفهم غرضها الحقيقي وأن الوسيلة لبلوغ هذا هو اثاره الجمهور بطريقة طرّق مشاعره وحساسيته لاعقله وتقديره . »

هذا ماورد في بيان الحكومة المصرية بعد ان قيل ان هذه الجمعية ارتكبت اجراماً كثيراً من قتل ونسف واحراق وآخر كل ذلك اغتيالها رئيس حكومة مصر محمود فهمي النقراشي باشا الذي أمر بكل جمعيتهم ثم اغتيال أحد الاخوان رئيس جمعيتهم لان اخوانه شعروا بانهم سيدل الحكومة

على ما لدى الجمعية من سلاح وعتاد وقذائف فيما قيل وقد ظهرت أوكار للجمعية كثيرة في القاهرة وغيرها من الاقاليم فيها من العتاد والسلاح ما لا يوجد عند دولة عظيمة . لاجرم ان جمعية الاخوان المسلمين من اعظم اماكن من الجمعيات السرية في مصر وغيرها من بلدان الشرق العربي وحق للناس أن يببالغوا في تقدير مكانتها . هذا وقد سرت دعوة هذه الجمعية الى من يحبون التقليد على العياء فدخل فيها كثيرون ممن يتحمسون للدين في الشام وغيرها ولما كشف أمر جماعتهم في مصر تواروا وعمدوا الى التقية والبراءة من عمل اخوانهم في وادي النيل .

الاشتراكية في مصر

الاستاذ عبد الرحمن البيلي بك من وزراء مصر ومن رجال المحاماة فيها رزقه الله الغنى فأحسن التصرف به ، واخرجت منه التجارب والدرس اشتراكياً معتدلاً ، لامن الصنف الذي يدعو الى الاشتراكية باللسان وهو في ذاته من أقسى ارباب الأموال . هو يشارك فلاحيه في نعمته مشاركة لاتنقص من ماله ، وتزويد في ربيع مزرعته . هو من طبقة تنظر الى المستقبل بعين البصيرة وتدرك ان الغني اذا لم يعطف على الفقير فالعاقبة عليه وخيمة . وآخر ما ذكرت الصحف من اعمال هذا الدراكة ان اتخذ من يوم النصف من شعبان من كل سنة يوم برّ وجعل من برّه تزويج خمسة شبان من ابناء قريته على نفقته الخاصة يقدم لهم هدية العرس من ماله وهي مسكن صحي لطيف مع جهازه وادواته وفرشه وبقرة حلوب . يعمل هذا ويقول نحن في عصر جديد يجب ان تكون فيه محبة الزارع للمالك هي الراية الشرعية التي تنضوي تحتها القلوب .

لاجرم ان الاستاذ البيلي هو المالك الحقيقي للارض بما يصنع من خير لمزارعيه ينفعهم وينتفع بهم وسيقطف هو واولاده ثمرة ما تجود به

على الفقراء يتمتع بما يتمتع هو به وينقلهم بحمائل صنعه الى حالة من العيش لو حصل عليها جمهرة ارباب الزرع ما كان الفرق كثيراً بين فقير وغني ولما خشي الاغنياء غدرات النظم الجديدة وويلاتها . وبعد فقد دعا النائب المشار اليه الى المذهب الاشتراكي وقال ان الدول الكبرى ومنها بريطانيا العظمى أم الديمقراطية وحصنها الحصين تدعو الآن اليها وان بريطانيا انتدبت مائة وخمسين عالماً من اكبر علماء الاقتصاد والاجتماع لدرس ما يمكن ان تنتهي اليه المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها العالم من سنين فقالوا لا بد ان تؤدي يوماً الى انقلاب عنيف لاسيما الى تفاديه الا اذا عدلت الانظمة الاقتصادية في العالم بحيث تضمن للناس جميعاً مستوى من الحياة يتفق مع القواعد الانسانية وتمحي هذه الفوارق الهائلة بين مستوى المعيشة عند الاقلية الموسرة والاغلبية التي لاتكاد تظفر بعيش الكفاف .

قال ان ثلاثة ارباع المصريين اي اثنا عشر مليون من الفلاحين والعمال وصغار الزراع يعيشون في فقر مدقع يفتك بهم الجوع والمرض اي ان اثني عشر مليوناً من المصريين لا يجدون حتى عيش الكفاف بل لا يجدون جرعة من الماء الصالح للشرب وان اجور العمال في الزراعة قد بلغت من التفاهة حداً يهبط بهم الى مستوى الحيوان او ما هو دونه بكثير ، وان الثروة الزراعية في مصر موزعة توزيعاً عجيباً فبينما تجد ملاك الأراضي يقرب عددهم من مليونين ونصف مليون تجد ان من هذا العدد نحو مليونين لا يزيد متوسط ما يملكه الواحد منهم على عشرة قراريط في حين ان اصحاب الملكيات الكبيرة لا يزيد عددهم على اثني عشر الفاً يبلغ متوسط ما يملكه كل منهم مائة وسبعين فداناً أو يزيد اه .

وما زلت أقول للمصريين ان في مصر تسعة عشر مليوناً يشقون ابدأ لينعم بتعبهم مليون من السكان وانه من السخف أن يصرف مليون جنيه على فتح شارع في القاهرة أو الاسكندرية للتباهي ولا يصلح ماء شرب الفلاح ومسكنه ولا تعنى الحكومة بتعليمه لتخرجه من البهيمية الى الانسانية .

هذا وقد ذكرت الصحف المصرية أن صاحب الدولة ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزارة سيتقدم الى البرلمان ببرنامج اشتراكي ، فاثبتت مصر بذلك أنها سائرة في نظام حكمها مع الزمن وكل ذلك بفضل بعض رجالها الاعاظم ووحيمهم أمثال عبد الرحمن البيلي بك .
وآخر ما قرأته للاستاذ البيلي بك في جريدة المصري اثناء كلامه على ضريبة الاطيان الجملة الآتية : وفي سبيل هذا الهدف رأيت ان أتناول موضوع الضريبة على الأطيان من وجه آخر يربط بينها وبين ما تقتضيه حياة الغالبية العظمى من أبناء البلاد وهم سكان الريف - من نهضة ترتفع بهم الى المستوى اللائق بكرامة الانسانية والذي يجعل منهم مجتمعاً سليماً وكياناً وطنياً منيعاً واذا قلت سكان الريف فانما أعني مصر باجمعها اذ هم يمثلون ٨٠٪ من مجموع السكان وتقوم على اكتافهم وسواعدهم النهضة الزراعية والصناعية والثقافية والعمرانية ، ومن بينهم ينبت القادة وجنود الوطن وعدته في الدفاع وفي النشاط التنفيذي والمهني وفي كل ميادين العمل ومدارج الكفاية البشرية ، وبناء مصر الحديثة الناهضة يقوم على دعامة أولى هي النهضة بالريف وتهيئة وسائل الحياة الكريمة لساكنيه وفي هذا الميدان ينبغي أن تتجه جهودنا جميعاً وفي كل بقعة من بقاع الريف وكل قرية من قرىه يجب أن تتوفر المرافق العامة الانتاجية والاجتماعية والصحية والثقافية والعمرانية الخ .



ميرت النعمة

قال لي مدير التملك : منذ خروج هذا القطر عن الحكم العثماني لم يسجل احد من الاعيان ملكاً جديداً على اسمه الا ما كان من التناقل في الملك الواحد بين الاسرة ، ومن يسجلون الاملاك على اسمهم من جديد هم من الباعة والطبقة الوضيعة ممن يلبسون الثياب الزرق ويتبلغون في يومهم بليوة سورية أو ليرتين .

سائي هذا النبا لان في اغتناء هذه الطبقة وخروج الاملاك من ايدي من كانت تنتقل بين طبقتهم اجيالاً اي فقر الاغنياء واغتناء الفقراء ، ثورة لاتحمد كثيراً لان فيه قطع ارزاق ألوف من الخلق كانوا يعيشون من الطبقة العالية التي افتقرت وهي على الاكثر من الطبقات التي تنفق دخلها وحياناً اكثر من دخلها لتعيش عيشاً رغيداً وتظهر بمظهر لائق بين أهل حياها ومن تعاصروهم ، أما الأغنياء الجدد فانهم اشحاء ، وبالشح جمعوا ما جمعوا على الاغلب لاينفقون الاجزاء ضيلاً من ريع املاكهم ، والمدنية لا يقيمها الا الاغنياء والطبقة الجديدة منهم تؤخرها بجمودها وبجلها .

والسر في انتقال الثروة هذا الانتقال الفجائي كون الجدد عملوا وما جمدوا وغامروا واقدموا والاغنياء الذين ورثوا غناهم تناسلوا كثيراً وتفرقت املاكهم ثم اسرفوا وما حملوا الى بيوتهم مالا جديداً وجمدوا وما تلمسوا الطرق الموصلة الى الغنى مكثفين بالتوظيف ، والتوظيف قلما أغنى صاحبه ، ومعظم الموظفين يعيشون ويموتون فقراء مهما سرقوا وارثشوا .

من عادة الثروات التنقل وفي هذه الحرب اغتنى بعض التجار واشباههم غنى فاحشاً ومنهم من حدثتهم انفسهم بالتوسع في معاشهم وبادروا الى تعليم اولادهم يحاولون أن يظهروا للاعين على ما كان يظهر اهل السعة سابقاً واخذنا نسمع باسماة اغنياء ما سمعنا بهم من قبل ، وكانت من الطبقة الدنيا قبل عقد واحد من السنين . ومنها من حاز الغنى بطرق غير شريفة وظل بعد غناه يزور ويفش لا يرد جماحه شيء .

طبقات الوزراء

عمل الوزير عظيم لا يضلّطع به الا من جمع الى العلم قمريناً والى السياسة خلقاً . ويتخرج الوزراء عندنا في مدرسة الاحزاب والمحافل والاندية وأروقة المجالس النيابية ومن كانت لهم دراسة خاصة وتجربة سابقة هم الصدور المقدمون . والاحزاب قد تختار نوابها وتعيد الاختيار وبالعكس . والنائب قد يصل الى كرسي النيابة بكفاءته وفي الاكثر بجزوته وواسع حيلته ، ومعظمهم يطلب رضا المحافل الماسونية ، وما زال مغروساً في العقول ان الماسونية قوة لا يستهان بها يصل منتحلها الى المناصب وبها يحمي نفسه من القوانين وسيطرة الرؤساء . المستوزرون الا من كان على شيء من عزة النفس يتحسسون المرجع الفعال في تنصيبهم فيتقربون اليه بما يقنعه بحسن بلائهم ويحمله على استدعائهم في حالة شغور المنصب وعندنا ان من تقلد الوزارة مرة حق له ان تكون له الأولوية أبداً ، والعامل الاكبر في تكرر مجيء الوزير الى الحكم ان يرضى عنه من بيده تعيينه والامة تختلف درجة حظوته عندها وفي الاغلب انها لا ترضى كل الرضى عن الرجل مادام قابضاً على السلطة فاذا اعتزل أو أقبل برد حقدتها عليه ، وربما عادت فاختلفت له المحامد . وما برح الرأي العام في ديارنا يتحرك بحركة الاغراض لا يعرف الثبات والاستقرار ، والمرضى عنه اليوم مغضوب عليه غداً ، والناس أبداً اقرب الى الطعن المبرح فيمن كان لهم نصيب من الحكم منهم الى المدح المعقول .

ورأينا بعض من اختارهم السلطة المنتدبة للوزارات في سورية ولبنان من الاكفاء لمناصبهم وكذلك من جاؤا بعدهم على عهد الجمهورية ، وتولى الوزارات من تنقصهم أشياء كثيرة واهم ما كانت تعوزهم الاخلاق ومنهم العجزة الذين لا يستطيعون ان يحلوا مسألة واحدة بأنفسهم وقد اعتادوا الإسيروا الاتحت يد من سيرهم ، وغرامهم ابداً بقضاء مصالحهم الخاصة وقلم

مسنات الأزهر

مها قبل في خلل طريقة التعليم في الأزهر وهو خلل دام الى الثلث الأول من القرن الرابع عشر من الهجرة فانه خرج رجالاً خدموا الشريعة ونشروا اللغة العربية . نشأ في اواخر القرن الماضي عالمان جليلان شامي وعراقي درسا في الأزهر واحكما ما درسا ثم صار كل منهما شيخ رواق الشوام وشيخ رواق البغداديين فلما ارتويا من العلم رجعا الى وطنهما يجددان فيه ما عفا من رسوم الشريعة . عنيت العلامة الشيخ عبد القادر القصاب من جبل قلمون في الشام والعلامة الشيخ حسين العزى من عرب سقي الفرات ، وكلاهما قعد لاقرء الناس في عودته الى بلده ، فخرج الأول وعاظماً وفقهاء وتخرج بالثاني في العلوم الدينية كثيرون في ارجاء الفرات ومن انبغهم اليوم الشيخ سعيد العرفي واتم هذا التلميذ ما بدأ به استاذه من بث روح العلم في أبناء تلك الديار وكانت بلده دير الزور في جهلها كالبادية او اجهل من بادية قبل ان يقوم فيها ذاك الأزهرى العظيم . ولولا عمل هذين العالمين لاضمحل الاسلام في هذه الاصقاع العظيمة ، فانظر الى فضل جامع الأزهر واعجب بما بثه وبيته من الأنوار في القاصية والدانية .



عذرا قبيح من ذنب

لما بدأت الجيوش الالمانية في الحرب الأخيرة تتوغل في الاراضي المصرية أيقن الانكليز بالخطر الداهم اذا استولى الالمان على مصر ، فلم يروا لتلافي الفاجعة احسن من اكرامه ملك مصر على القبول بتوسيد الوزارة المصرية الى مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصري أكبر الاحزاب المصرية سواداً . دعا الانكليز الى المطالبة بمثل هذه الوزارة لانه سمع في بعض المظاهرات من ينادون (الى الامام يارومل) ورومل قائد الجيش الالمانى في افريقية ، ويستثم من هذا النداء ان مصر تحب استيلاء الالمان على مصر وربما عاوتها للوصول الى غرضها لتنفض يدها من يد بريطانيا العظمى وتمتتع باستقلالها تماماً .

فجاء القائد الانكليزي الى سراي عابدين بدباباته يفرض النحاس باشا على صاحب التاج فرضاً فأثر جلالته ان يرضى بالوزارة المقترحة لئلا يكون من رفضه سبب لحدوث فتنة تهرق فيها دماء المصريين . وهكذا انفض الأمر بسلام وما عاد يسمع في الشوارع « الى الامام يارومل » الانكليز على تهديدهم قد يسيئون الى من يرون في اساءته فائدة لهم ثم يعودون فيعتذرون ، وكذلك كان حالهم مع صاحب مصر عاملوه هذه المعاملة الحشنة لا كراهه على ما لا يجب وتقدموا ليعتذروا .

لون من الوان السياسة لاتقدر دولة مهما بلغ من سلطانها ان تقلد فيه بريطانيا العظمى .

الكل مسؤلون

اعتاد بعض أرباب الزراعات العظيمة في غوطة دمشق ان يأدبوا كل سنة مآدبة كبيرة في مزارعهم يوم ضمان المشمش او القنب أو الكرم او الزيتون وغيرها من الاثمار والغلات فيجتمع لديهم مئات من فلاحي القرى ومن ينضم اليهم من الصعاليك وهم في ظاهرهم من الضمانة وفي الحقيقة انهم يحضرون السوق ليطعموا من طعام صاحب المزرعة ويتسلوا برؤية من حضر وسماع أقوالهم . وجاءت هذه الطائفة هذا العام الى سوق عقد في مزرعة كبير لبيع مشمشه فما ان رأى الحضور الطعام يقدم على السماط في القدور والاواني والصواني حتى أخذوا يلتهمون الطعام بشراهة ومنهم من كانوا يمدون ايديهم اليه قبل نوبتهم ويحملون منه في عبايهم واكمامهم بل في سطول يحملونها ومنهم من يتعمدون أذى من ينتظر نوبته في الأكل او من تقدم فأكل . وافسد بعضهم ماوضع من الطعام بالقاء التراب فيه ثم أخذوا يتضاربون ويتشامتون ويكسرون الصحف والاطباق والزبادي والكؤوس فأبانوا بما اجترحوا عن دناءة وهمجية فطردهم المتولون تنظيم الضيافة قبل أن يتم الآكلون أكلهم . وقد انكر أعيان الفلاحين هذه السلاطة وخرجوا من وقوع هذه القحة في بيت يجب على الأمة ان تحترمه . فقلت لهم لاتعجبوا وتصدروا حكمكم بهمجيتهم واجشوا قليلاً في اصل هذه العلة وما كان الداعي الى تأصلها ، ولم لم يفكر المفكرون في استئصالها ، فان أرباب الاملاك لم تحدثهم أنفسهم يوماً في حمل النور الى الفلاحين يرون ما يرون من خرق وسفه ساعة مايقع ثم يعلقون باب التفكير فيه . فلو قد بدأوا بتعليم أهل الزرع والضرع منذ أوائل هذا القرن لجا مناهجهم جيل مهذب يستحيل ان يرتكب مثل هذه الرعونات ، ولو بحثنا في درجة تهذيب المجتمعين ذاك اليوم لرأينا من ارتكبوا هذه الفظاظة غارقين في الأمية من فرقهم الى قدمهم

ومن ظهوروا والأدب باد عليهم كانوا بمن درسوا في الكتاب شيئاً هذب
أخلاقهم . نحن نريد شعباً راقياً يخلقه الله لاجل خاطرنا خلقاً دون أن نسعى
أدنى سعي لتهديبه وتعليمه . ولو كانت أهمتنا مصلحة غيرنا كما أهمتنا مصلحة
لأتى منا الشعب المهذب الذي نرجوه .

الأعيان مقصرون ، والمشايخ مقصرون ، والمدنيون مقصرون ، والقرويون
مقصرون ، وكل مستنير العقل مقصر ، والجرم في الآخر يقع على الجاهل
المسكين الذي لا يدرك عقله أكثر مما تدرك دابته ، نحاول ان نتمتع دون
أن نتعب وان يعامل الجاهل بالقوانين الدستورية مع اعتقادنا أن مئة سنة
لا تكفي لأن تخرج من متوحشي هذه الأمة شعباً يفهم ماله وما عليه .
كثيراً ما كانت قرينتي رحماً الله تقول لي : إلام تهتم بأمر الفلاحين
هذا الاهتمام ، تشفق عليهم وتحاول رفع الظلم عنهم ، وتعمل على فتح
طرق وكتاتيب لهم ، وما هم الا نماردة لو أعفت الدولة ظهورهم من ضرب
العصى والسياط لما استطعت أنت على مكانتك أن تذهب الى مزرعتك
آمناً على روحك ، فكل ظلم ينالهم يستحقونه ويستحقون أكثر منه ،
ولولا الاستبداد بهم ما استقام لكم أمر معهم .

فكنت أجبها اني أتحمل كل هذا العناء ليستنير عقل الفلاح وينشأ
منه جيل أصلح من الجيل الحالي للحياة ، يدرك أن مصلحة مناط تدينه
وان لا سعادة له الا بتعليم الذكور والاناث من أولاده التعليم الأولي ،
وانه لا تحسن حاله بدون الصدق في عمله والبعد عن الرذائل .



هل رمضان والعيد

كل سنة تحدث ببلدة في بلاد الاسلام من أجل اثبات هلال رمضان وشوال وذوي الحجة ، والمحاكم الشرعية حتى بعد ارتقاء علم الفلك واتقان المراصد الفلكية ، لاتزال مصر على اثبات الهلال بالعين المجردة لاتعتمد على الارصاد لأن الماضين ما عرفوا اثبات الالهة بهذه الطرق الجديدة فلا بد من شهادة شاهدين ، وقد يكونان من العُمص العُمص ، يشهدان أنها رأيا القمر ساعة ولد فيتناولان ما جرت العادة باعطائه من جعل لمن يشهد هذه الشهادة وعندها يصوم المسلمون أو يفطرون .

وتناقش أصحاب الفتيا في هذه المعضلة ففريق يقول بروية العين في الاثبات وآخر يوافق على رصد القمر في المراصد ويؤكد أنها أقرب الى الثقة ، وألقوا في هذه المعضلة الخطيرة كتباً ورسائل ، وظل كل فريق مصرأ على رأيه . وقد قبلت مصر سيدة العالم الاسلامي في الشرع نظرية المراصد وانقذت بلادها من الفوضى ، ولا تزال الشام متعنتة لايغنيها ان جعلت من مسألة الروية مهزلة يضحك منها الأجانب .

حقيقة نحن جامدون الى حد السخف لانزع القديم البالي بالسرعة الواجبة ، ولا ننزع الى الجديد النافع بدون جدال لا طائل تحته .

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق

قال احد ارباب المدارك ان لدمشق طابعاً خاصاً في طبيعتها وروحها ومرافقها لاتشبه المدن الداخلية ولا المدن الساحلية . وهذا الكلام يصدق على هذه العاصمة منذ فتحها العرب المسلمون . وانتقلت دمشق في أيام بني أمية من حاضرة صغيرة الى عاصمة كبيرة يمتد حكمها مسافة تسعة اشهر في اوربا وافريقية وآسيا . عاصمة تهوي اليها افئدة ملايين من الشعوب لابد ان يكون خلفاؤها قد هياؤا فيها اسباب الراحة والنعيم لمن ينزلونها واصبحت في مئة سنة سيدة المدن والعوام في الارض كلها .

وما لقامه الامويون في دمشق من اعمال العمران تعذر على السفايح والمتصور من خلفاء العباسيين ان يقضوا عليه كله يوم فتح العباسيين . وكان الرشيد والمأمون يختلفان اليها في الاحايين ويعجبان بأثار بني أمية فيها . ذلك لانه كان في فطرة الدمشقيين الاحتفاظ بمصانعهم وعادياتهم على ما تبين من تاريخهم في القرون التالية فان جامعهم أو جامع بني أمية وهو أعظم جامع في الاسلام خرب بالحريق والزلازل مرات وأهل دمشق يعيدونه كل مرة الى سابق حاله وكذلك المدارس التي أنشئت من القرن الخامس الى القرن التاسع وهي لاتقل عن مائة وخمسين مدرسة لتعليم القرآن وفقه الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي عدا الرباطات والخوانق والزوايا والتكايا والمستشفيات ودور الزمنى والمجذمين وكانت كلها تدار ادارة حسنة ويدرس فيها اعظم العلماء ولها اوقاف دارة ، فلما جاء العثمانيون في القرن العاشر اخذ الخراب يدب فيها ولم يغادروا دمشق الا وفيها ثلاث مدارس خربة لاغير .

وبقدر ما احب الدمشقيون اهل الدول الذين رتعا آمنين في ظلهم كبعض العباسيين والسلاجوقيين وفي مقدمتهم الرشيد والمأمون وطغتكين ونورالدين وصلاح الدين ابغضوا الفاطميين الذين اعماهم التعصب الديني وعاملوا الدمشقيين

بالقسوة والجبروت ، وفي ايامهم خربت دمشق وضاحتها . وكان عهد المماليك خيراً وشرأ ، خيراً في ايام عقلاء ملوكهم مثل المنصور قلاوون وشرأ في عهد بعض من خلفوه وتقدموه حتى اذا جاء الاتراك العثمانيون اصبحت دمشق من اول عهدهم ثن من سوء ادارتهم حتى اضمحلت اضمحلالاً كادت تشبه به قرية كبيرة فيها جوامع عظيمة وبقايا هندسة نشأت بفضلها قصور ومصانع في الماضي .

وما كانت معاملة الفاتح سليم الأول العثماني دمشق اقل قسوة من معاملة تيمورلنك التتري لها قبل قرن ، والاتراك كتيهور وجنكيز وغازان اميل الى تخريب مايستولون عليه منهم الى عمارة . فقد اخذ تيمورلنك من دهشق جميع ارباب الصنائع وحملهم معه الى سمرقند . ولما استولى العجم على دمشق قبل الاسلام كان اول ما فكروا فيه ان ساقوا امامهم ارباب الصنائع نقلوهم الى فارس كما حملوا وحمل الفاتحون ومنهم سليم الاول ما كان في هذه المدينة العظيمة من النفائس والعاديات وجميع ما يحمل من انواع الثروة المنقولة .

ومن دواعي خراب دمشق تسلط الاعيان على سياستها في معظم القرون ولخوف الدولة من ولايتها تسارع ابدأ الى عزلهم حتى لا يتحدتهم انفسهم بالاستقلال . هكذا كان شأن المماليك وهكذا شأن العثمانيين بعدهم ، فالوالي الذي لا يقيم في ولايته اكثر من سنة واحياناً شهراً او شهرين يستحيل عليه ان يعرف البلد الذي تقلد حكمه اشهراً قليلة مهها بلغ من ذكائه وتجربته فضلاً عن ان يفكر في اصلاح يدفع به الظلم ويقيم العدل . والوالي العاقل يشارك الاعيان ومعاول التخريب تشتغل من كل جانب .

ولولا ان في طبيعة الدمشقيين حيوية عجيبة في الصنائع والنجارة لاصبح اهلها بادية لكثرة ما تقوا من الشدائد . ولقد اثبتوا في جميع الادوار انهم في صنائعهم آية وان الاتقان دأبهم ، وصنائعهم منوعة تبدأ من هندسة المباني

وتنهي بالفرش والآنية ، وتجارتهم كانت منذ القديم تمتد من الشرق الى الغرب واذا ساعدتهم الاحوال السياسية ووقفت الحروب حقبة من الزمن ارتاشوا واغتنوا واذا اختلفت الحال ضنوا باموالهم وخزنوها في صناديقهم . وكانوا الى اواخر القرن الماضي اذا أمن التاجر شريكه وقد يكون بدوياً نجدياً يسلمه ألوفاً من الدنانير بدون سند وينتظره اعواماً حتى يتم تجارته على مايجب ، فالثقة كانت على اتمها بين التجار بعضهم مع بعض وبين التجار والمستهلكين . وفي كل بلد نزله الدمشقي للتجارة اغنى في سنين قليلة هذا اذا كان على استعداد لمعاطة التجارة ولائم جو الارض التي حل فيها صحته وفي الامثال العامة (اعرج الشام وصل الصين)

في قارة افريقية مستعمرة بريطانية غنية اهتدى اليها الدمشقيون ووافوها متجرين وكان سبقهم الى الاتجار فيها جماعة من تجار الانكليز فرأى الدماشقة ان البريطانيين كان من عادتهم اذا خرجت البضائع من البحر ضموا عليها خمسين في المائة ربحاً وخمسة في المئة قيمة ما تقرضه الفيوان منها في السفن ، فارتأى الدمشقيون الاكتفاء اولاً بربح خمسة في المئة فما عم التجار الانكليز ان عادوا الى بلادهم وتركوا الدمشقيين يتجرون في المستعمرة وحدهم . ولهم من ذلك حكايات تدل على صبرهم وحسنتهم وكذلك يقال في نساءهم فان المرأة الدمشقية لاتبالي بالهجرة ، هاجرت في عصرنا الى الهند واليابان والعراق وسائر الدول العربية وهاجرت الى أوروبا والى أميركا وحيث حلت تظهر شخصيتها ، وهي مقتصدة تعنى عناية فائقة بزوجها واولادها وتصرف من وقتها ساعة في عمل الخير وتتصدق على الفقراء ولا تخرج عن قواعدها في الاقتصاد وتتجمل أبداً . واذا ساعدها الحال تتكرم على الضيفان واذا تأخرت حال زوجها ، وهي تشاركه في كل شيء ، قبضت يدها حتى عن شراء ثوب تترين به امام جاراتها وأهلها . وللدمشقيين والدمشقيات في المهجر روابط متينة ليست لهم اذا كانوا في البلد الذي خرجوا منه ، ولذلك تحوهمم الاجانب ويمتازون على كثير من الشعوب المهاجرة ومن هؤلاء من يعتمدون عليهم في حل مشاكلهم وتعميد الطرق أمامهم للاتجار والاعتناء .

وفي الحرب الاخيرة ظهر اقتدار تجار دمشق وكانوا استعدادوا لدخول ميدان المضاربات منذ أكثر من سنة ولهم أموال أودعوها مصارف الدول الكبرى كالمهند وانكلترا والولايات المتحدة وغيرها فسيطروا على التجارة في قسم عظيم من بلاد الشرق القريب واغتنوا اغتناءً ماشاهدوا ولا شاهد أجدادهم بعض بعضه ، فلما وضعت الحرب أوزارها هبوا بدافع من وطنيتهم ودينهم يعطون بما كسبوا حق الوطن وحق الله فأعطوا الدولة أموالاً استعانت بها على الظهور بمظهر دولة عظيمة وأعطوا حق الله بأن أنشأوا مستشفيات ودور احسان وعبادة وتعليم . وأنشأوا الى ذلك معامل تلي النمط الغربي من كل صنف حتى كادت بعض أراضي غوطة دمشق تشغل بالمعامل والدور التي أنشأوها لنزول العاملين فيها وأنشأوا من أربابهم القصور الفخمة وأدخلوا مدينتهم في طور عاصمة غربية كبرى ومن زار دمشق اليوم وكان زارها منذ عشرين سنة لا يكاد يعرفها .

ولدمشق في باب العلم أيام غرر كانت محجاً لطلابه منذ عهد الصحابة الى يوم الناس هذا ، وعلمهم كان الكتاب والسنة أو علوم القرآن والفقه والأصول والكلام والحديث ثم اللغة والأدب والطب والتاريخ والفلك والرياضيات والمهندسة وغيرها ، وكان المشتغلون بعلوم الشرع والأدب أكثر عدداً من المنصرفين الى علوم القدماء أو ما نسميه العلوم العصرية ، ومن كان يظن ان دمشق كان فيها الى أواخر القرن التاسع أربع مدارس طبية ومدرسة هندسة ، واشتهر من أبنائها رجال في جميع الفنون ومنهم من اشتهروا شهرة عالمية كابن تيمية ، وهو في الاسلام كلوثيروس في النصرانية ، وامتازت دمشق بكثرة محدثيها كما امتازت بكبار مؤرخيها ، والعلاقة بين الحديث والتاريخ معروفة ، خرج منها مؤرخون ومحدثون من العيار العالي لم تخرج مثلهم مصر ولا غيرها ، خرج منها ابن عساكر وابن خلكان والذهبي وابن كثير وابن أبي أصيبعة والصفدي وابن فضل الله العمري وابن القلانسي وغيرهم . وهذان الأخيران كانا من رجال السياسة ولهما مكانة عظيمة في دولتي الفاطميين والمماليك . وخرج منها شعراء عظماء

كفتيان الشاغوري وابن حيوس وابن عنين واضرابهم ، وما خلا عصر من عصورها من شعراء مجيدين ومؤرخين محققين وأطباء ماهرين ومهندسين بارعين ، وقلّ فيهم الفلاسفة كما قالوا في مصر . وما خلت دمشق في كل عصر من رجال قوالين بالحق من علماءها يجرؤون على الملوك ويردونهم الى صراط الشرع ويضيقون عليهم الخناق في التحديد من الجباية حتى لا يرهق الناس بأسرافهم ، ومنهم العز بن عبد السلام والنووي ، وكان السلطين والولاة ترتجف أعصابهم منها يخشونها كخشية الله ، ولما مات العز بن عبد السلام قال الملك الظاهر بيبرس : الآن ملكت وفي حياته ما كنت آمن على نفسي لأنه في مكنته ان يخلعني كل ساعة لما له من منزلة في قلوب الناس . وكثير من العلماء من كانوا يقفون موقف المرشد الناصح مع الملوك لا يلتوون في الحق ومنهم من رضوا أن يكونوا تحت جناح أرباب السلطان لتسلم لهم مظاهرهم وديناهم .

وفي العهد الحديث أنشأت دمشق مجمعا علميا وجامعة وأصلحت التعليم بكل فروعه وأخذت روحها تسري الى الديار الشامية كما كانت منذ القديم . وقد أصدر جمعها وجامعتها ورجال التعليم تأليف عظيمة في الفنون المختلفة ووضعوا الفاظا لمصطلحات العلوم وادخلوا كتب التدريس في الابتدائي والثانوي في طور جديد لا يقل بمكانته عن كتب مصر . ومن تلاميذ هذه المدارس من تخصص في العلوم اخذوها من فرنسا وسويسرا وبلجيكا والمانيا وانكالترا والولايات المتحدة وغيرها وانبغت دمشق مئات من الاخصائيين ما كان لهم فيها اثر قبل ثلاثين سنة ، وحضانة العلم ثلاثون سنة كما قال نابغتنا عبدالرحمن الكواكبي .

ومن اخلاق الدمشقيين انهم يستسلمون لرؤسائهم على الاكثر ويعطفون على الفقير ويكرمون الغريب ، واحقادهم ضعيفة بالقياس الى غيرهم من الشعوب ، وسرعان ما يقلدون في اقتباس ما يقرهون من الحضارة ، ويتأدون مع الكبير وقد يصدرون عن رأيه ، ويجبون الطرب ويفهمون النكبة ولهم في باب الهزل يد طولى ويوم الجدم بمن يفاخر بهم ، ولهم استعداد

خاص لتلقف اللغات الغربية وهم شعب اقرب الى الدين منه الى الاحاد ،
ويعيش اهل الطبقة الوسطى عيشاً قريباً من عيشة اهل الطبقة العليا . والطبقات
عندهم ثلاث لا يكاد احد ابناء طبقة تحدثه نفسه بالتسلق الى مساواة واحد
من طبقة اكبر منه . والمواطنون على اختلاف اديانهم يتحابون كما يتحاب
اهل الدين الواحد ، وفي الوطنية كلهم سواء لا تخرج الاقلية عن رأي الاكثرية .
ويعجبني من دمشق انها تتخيل الى اليوم انها في حكم بني أمية مسؤولة
عن كل ما يحدث في العالم العربي اذا نزلت كارثة بمسلمي الصين كانت في
مقدمة من يؤاسيهم وان حُلّ بلاء ابن مراكش ولم تمد اليه يد المعونة خجلت
من قصورها ، وهي في الثورة اول من يرفع علمها وفي السلم الكل في الكل ،
فاذا كانت الحال تدعو الى الوحدة السورية ترفع صوتها اول الصارخين
وفي الدعوة الى الوحدة العربية تنادي اول المنادين وفي الدعوة الى الاتحاد
الاسلامي هي أمها وابوها وفي كل دعوة جديدة تتقدم لالتأخر وتتحمل من
الاعباء ما يفوق طاقتها وتقوم بواجبها وبأكثر من واجبها كما كان منها في
الحرب الفلسطينية فاحتضنت اللاجئين اليها من الفلسطينيين كما تحضن ابناءها وبناتها .
هذه دمشق وانا عندنفسى اني ماوصفت الا ما شاهدت وما حدثت
الا بما علمت وقلت فيها ماقلت برئياً من التعصب والعصية .



اعمال الاداريين

على رجال الادارة تتوقف سعادة كل بلدة ، وهذا في نظر من ينظرون في الأمور الى أبعد من أنوفهم ويعتقدون أن العناية يجب أن تصرف في الريف كما تصرف في المدن ، والريف مادة المدن وتحسينه كمال النهضة . وما يكتب له أن هذه الطائفة من الاداريين لا يعرف أكثرها وظيفته ، ولا تحدته نفسه أن يجود عملاً يعود بالخير على من يديرون شؤونهم ، ويعذر بعضهم على فتورهم ذلك لانهم لا يقيمون طويلاً في منصبهم فاذا بدأ الواحد بعمل لا يهتمه ويحيى من بعده يجربه على ما جرت به العادة ، والعلماء من رجال الادارة يتمون أبدأ ما بدأوه مثل صديقي مصطفى الشهابي وعارف النكدي فقد بنى الأول دار كتب حلب ودار كتب اللاذقية مدة ولايته عليها وأقام الثاني ميتين للذكور والاناث في السويداء في جبل حوران ووقف عليهما أملاكاً بناها مجدداً هذا الى ما أحياء من وقف الامير السيد في عبيه من عمل لبنان وما بنى من المدارس والخوانيت والمصانع المال لايعوزنا وإنما الذي يعوزنا حسن التصرف به ، وتدييره التدبير المثمر وانفاقه في المنافع والمصالح .

عبدالله النكدي

رأي عادل

جاءني وأنا في الوزارة استاذ من جامعة شيكاغو تصحبه قرينته وترجمان مؤتمن من أصحابنا فاستقبلته في داري ، وعرفت أنه يقصد من زيارته ارشاده الى مصادر يأخذ منها مادة لكتاب موضوعه (الانتداب) فقلت له هل اجتمعت الى الامير شكيب أرسلان ؟ قال : حاولت ذلك فلم أوفق ، وقيل لي انه شخص لا قيمة له ، فقلت له لقد غشك من قال لك ذلك فان في يد الرجل الذي أسقطوه من نظرك توكيلاً موقعاً عليه من سبعة وثلاثين الف رجل من أبناء سورية على ما بلغني ، وأنت اذا لم تجتمع اليه ولم تأخذ من أفكاره يصدر كتابك تافهاً ، فشكيب أقدر منا كلنا على معاناة هذه المسائل . ثم التفت اليه وقلت له : أذكر لك على سبيل النكتة ، ان عالماً كبيراً من علماء الدين عندنا (البطريك الكسندروس طحان) . جاءه جماعة من الشبان المعنيين بالسياسة - قبل أن توافي اللجنة الاميركية المعروفة بلجنة كراين أرض سورية ولبنان تسأل اهلها عن الدولة التي تودان ان تنتدب عليهما - وطلبوا اليه ان يرشدهم الى الدولة التي يختارها لذلك ففكر قليلاً ثم قال : من الطبيعي ان نقول فرنسا ، ولكن لي رأياً خاصاً أرجو ان لا تنشروه عني وهو انه اذا كان الانتداب لاميركا نعلف هي البقرة ونحن نأكل لبنها ، واذا كان لانكلترا نعلف البقرة وننقسم درّها معاً ، واذا وسد الانتداب لفرنسا نحن نعلف وهي تتناول خيرها .

فلما سمعت العقيلة قرينة الاستاذ الاميركي كلامي هلت وشفقت كأنها في دار تمثيل وقد أعجبتها القطعة التي مثلت ، وزوجها بالطبع اهتز طرباً ، والتفت اليه وقلت له : اكتب هذه النكتة في كتابك الجديد ولو كلفني خروجي من الوزارة .

بقايا الطرق

في مصر والشام بقايا من عادات الطرق هي مجموعة بدع مسمومة تراكتت بفعل قرون الجهالة وعدّها الجاهلون من الدين ، وكانت الاناضول مهد الطريقة المولوية انتشرت قروناً في أرجائها على العهد العثماني فلما أبطلها الكماليون مع ما أبطلوا من الطرق عدّ العقلاء ذلك من حسناتهم . بيد ان هذه الطريقة مازالت قائمة خارج الجمهورية التركية وطريقتها عبارة عن رقص وتواجد وغناء وناي وتعارات الى امور ينكرها الشرع يأتيونها في مجالسهم بل في مراقصهم .

ومن الظريف اني ما سألت فقيهاً عن حكم هذه البدع الا انكرها وطلب الهداية لمن يمارسونها فاذا قلت له فلماذا لا تجهر بانكارها زاغ مني وولى ، كأن انفاذ أحكام الشرع مما لا يدخل في برنامج المشايخ ، ودأب هؤلاء فقط أن ينافقوا من يخافون ومن لا يخافون .

مسكين شرع محمد بن عبد الله يعذب به علناً في أرقى بلاد المسلمين أمام من وكل اليهم بحسب الظاهر القيام على خدمته لا يتكلمون ولا ينصحون ، والبدع تنخر العقول وتنحر الارواح ولا تجدها ولياً مرشداً .

~~بقايا الطرق~~

الفقراء و كسوتهم

من اجل ما قام به الكهاليون خلفاء العثمانيين الاتراك من ضروب
الاصلاح سوق كل من يدعي العلم من ارباب العمام الى دخول الامتحان
ليتميز الجاهل من العالم . وقد وسدوا للعالمين المناصب الدينية وساقوا
الجاهلين الى الأعمال الصناعية والزراعية ، وحظروا عليهم طلب العيش من
طريق لم يخلقوا للسير فيها . وقام البهلويون بمثل ذلك في فارس وعزلوا
من ارتضوا علمهم في ناحية لا يتعدونها لينقرضوا مع الزمن . وكان
لهذه الطغمة في ايران وتركيا مواسم في الدجل والشعوذة تذكر فلا تشكر .
والظاهر أن الشام تعذر عليها سوق دجاجلة الدين الى الفحص فرأت
أن تخص العلماء الحقيقيين بزي خاص فصعب عليها أيضاً انفاذ ما ارتأت ،
ذلك لأن حكومتنا تحاول ارضاء كل الناس وبهذا الاسلوب يستحيل
قيام الاصلاح .

وما بوحث فوضى كسوة الرؤوس ماثلة في أرضنا وكلها لا تناسب اجواءنا
في صيفها وشتائها ، فمن طربوش الى بيويه الى قالبق الى سدارة الى كوفية بعقال
وكوفية لاعقال لها الى قبعة الى عمامة بيضاء أو خضراء أو سوداء الى عمامة
مزر كشة (أعباني) الى غير ذلك من الكساوي المضحكة .

اصلاح كسوة الرأس واجبة والواجب قبلها اصلاح الرؤوس ، وذلك
يكون بعزل الجهلاء عن العلماء ، والتوسعة على طلاب العلم وتوسيد المناصب
الى ارباب الكفاءة والنزاهة ، وحرمان الجهلاء من أوقاف الجوامع والمدارس ،
وترفيه ارباب الوظائف الذين يقيمون الشعائر بالفعل ، وحبس أموال الاوقاف
عن الجهلة الذين لاصفة لهم الا ان يأكلوا ويشربوا على حساب قدماء المسلمين
بلا عمل يقومون به ولا مزية ظاهرة يمتازون بها . ولو قشقت اوقاف المسلمين
في كل صقع اسلامي لشوهد الاسراف في امتاع الجهلة بأموالها ولتوفر من
ذلك اموال كان الأجدر بها ان تنفق على التعليم لا على من كان وجودهم
ضرباً كله على أهل الاسلام .

السواد الاعظم

زرت بعض السنين مع اصدقائي امير الشعراء احمد شوقي والاستاذين احمد فهمي العمروسي وعارف النكدي ضريح أمير العرب الامير جمال الدين عبد الله التنوخي في عبيه من قرى لبنان فأثرت هذه الزيارة في نفسي واذكرني هذا القبر والراقد فيه أموراً ذهب الخيال في تأويلها كل مذهب . ذكرت كيف يخرج العصر بعد العصر من كل بيعة ومن كل نخلة نوابغ ما كان يتوقع ظهور أمثالهم في بقعة ضيقة وفي قرن مظلم . وذكرت كيف ينشأ الاتقياء الصالحون في قوم يستغرب قيام رجل منهم يصفي النفوس من كثافتها ويحبب الى من يستمعون اليه الخير ويبغض اليهم الشر .

نشأ الامير السيد (١٨٨٤) - وهذا لقبه الذي كان يلقب به - في بيت مجد وامارة ، وأبت نفسه العظيمة الا ان يجمع الى الامارة علماً ، فجاء مرشداً دينياً وأميراً سياسياً معاً . كان أجداده قبلوا الدعوة الفاطمية التي حل القائلون بها لما جأوا عن مصر الى الشام ، في لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، وظل أهل بيته على طول عهد الدعوة الاولى يتطلعون الى الاصل الذي صدروا عنه تطلع صدق ولهفة (ج ٢ ص ٥٩٤ من المذكرات) . ولم يقف السيد عند حد الاخذ بمن يسهل التخرج بهم من اهله وجيرانه ، ورحل الى دمشق يتخرج بعلمائها في علوم الادب واللغة والتفسير والحديث والاصول ، وحفظ القرآن وكتب فيه تفسيراً ، ودرس في الجامع الأموي مدة . وكانت له مواقف غضبت عليه دمشق في بعضها فعاد الى مسقط رأسه ولما لم يصل الى بث تعاليمه في بلده على ما تحدته نفسه عاد الى البلد الذي فقهه وأدبه . وكان الامير السيد يحرص على ارجاع قومه الى السنة ويحضهم على تلاوة القرآن وحفظه ووقف لذلك وقفاً عظيماً يصرف ريعه في تحقيق هذه الأمنية . وقال من ترجموا له انه كان محباً لابناء وطنه محسناً اليهم من غير تفریق

بين الاديان والمذاهب وقد اختص لنفسه جماعة من النصارى في بلده عبيه
وأوصى لأحدهم وصية الرجل لذويه بما لا يفعله رجل دين من أي ملة كان
في عصرنا فضلاً عن عصر الامير .

كان يقيم العدل بين الاهلين وينصر المظلوم ، ويعمر المساجد وينهى عن
تغاطي المسكرات . ودأب على وعظ الناس في المجالس الخاصة وكثيراً
ما كان يطوف قرى الجبل ينشيء المدارس والجوامع ويوسد أمور الهداية
الى نهاء تلاميذه ، وكان لا يتناول من طعام ذوي قرباه ولا يستصبح بزيتهم ،
مخافة أن يكون دخل في ثمنه شيء من مال السلطان وفي مال السلطان شبهة
حرام ، وكان يميل الى السذاجة في طعامه ولباسه وينفخ في قومه روح
التجدد ويبعدهم عن التعصب ويحثهم على التمسك بالدين الصحيح ويدعو الى
محرابة البدع والخرافات التي نشأت من الجهل وفساد السياسة ، وما كان
يتقيد الا بالنص الصريح مما ورد في كلام الله الى غير ذلك من صفات
العلماء العاملين .



الاستعمار البريطاني

منذ ظهور وعد بلفور (١٩١٧) بمنح الصهيونيين حق تأسيس الوطن القومي في فلسطين واليهود يبتاعون فيها الأراضي ويقيمون الحصون وبنشئون المستعمرات . وانكلترا وهي المشهورة بدقة استخباراتها تتجاهل ما يحدثه الصهيونيون . وتخلت انكلترا عن انتدابها عن فلسطين وتركت العرب يتخبطون مع الصهيونيين وكانت تخلت عن الهند في السنة الماضية وخرجت من اكثر مستعمراتها مثل بورما وسيلان وكندا وجنوبي افريقية اي ان بريطانيا تنازلت طوعاً او كرهاً عن معظم مستعمراتها ، وكان علمها قبل سنة يرفرف على خمس سكان العالم . ولولا تعاهدها مع الولايات المتحدة وعطف هذه عليها للروابط الكثيرة التي بينها لاضحت دولة بريطانيا العظمى من الدول الصغرى .

أذكرني حال انكلترا اليوم والنحل امبراطوريتها على اهون سبب بما كنت قرأته لاحد عظماء مؤرخيها من ان بريطانيا كانت تحسن لنفسها لو لم تزج شعبها في الاستعمار ، وكانت تحقق ما أهرقته من دماء ابناءها في هذه الغاية لو انها عمدت الى ابتياع ما تحتاجه من المواد الاولية بالهنا ولكانت اكتسبت حب الامم كلها . ولكن هذا الرأي الشديد كان يوم صرح به مؤرخهم من الآراء التي يستهزأ بها وكان كل انكليزي يحرص يومئذ على بقاء العلم البريطاني خفاقاً على ارجاء الهند ليغتنى منها ابناء الجزر البريطانية وقد حققت انكلترا ما طمحت اليه من ذلك .

ولا يسع المنصف الا ان يقول ان انكلترا في حرصها على استعمار الاقطار كانت عاقلة وكذلك كانت يوم تخلت عنها وربطتها بنظام الدومنيون ، ولكل وقت حكمه ولكل جيل سياسته . وانكلترا التي حازت الشرف الاعظم بابطال الرقيق من العالم وكانت اول من نادى من الدول بتقيحه

وانفقت باديء بدء عشرات الملايين من الجنيات لهذا الغرض الشريف لا يليق بها استعباد قسم عظيم من البشر الى الأبد . واذا حدقنا النظر في الاقطار التي حكمتها مدة مجدها ولا نكران للحق قد نهضت بها وما أضرتها ووضعت لها أسس حضارتها وعلمتها حتى الدعوة لقوميتها والولوع بلغتها خالفاً لسائر الدول ماعدا الولايات المتحدة .

ذكرى العظماء

الامة الاسلامية من اكثر الامم قصوراً في الاشادة بالمجد العظيم الذي خلفه لها عظماء رجالها في السياسة والعلم . وما كان ذلك الا للجهل الطارئ بعد القرن الخامس وتسلسله في آباءنا قروناً لم نسلم من عقابله الى اليوم . امة خدمها بروحه وجسمه مثل ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية ومروان وعبد الملك وسليان والوليد وعمربن عبد العزيز وهشام ومسلمة وعشرات من رجال بني أمية وقوادهم خليق بها ان تردد ذكراهم في كل ممسى ومصبح .

وامة قام فيها ملكان عقت الأيام ان تلد مثلها وهما نور الدين وصلاح الدين ، ولولاهما لفضى الصليبيون على الاسلام وحلوا محلنا في الحرمين الشريفين ، من فروض العين على كل مسلم ان يعلم اولاده تقديسها كما يعلمهم سور الصلاة .

وامة أنشأت من الخلفاء المنصور والرشيد والمأمون وطائفة من الملوك والامراء ما اشتهروا بغير السعي لسعادتها حري بابنائها ان تذكرهم ولا تنساهم على الدهر .

مثلنا بهؤلاء الافراد ويلحق بهم عشرات ليسوا دونهم بغيرتهم على امتهم ، واذا جئنا ننظر في طبقات علمائنا نظفر بمئات يجب علينا اعظامهم وترويد أفضالهم علينا وعلى العلم في كل شارقة وبارقة ، ولم تخل ارض حل فيها

العرب من عالم واديب ، فتحوانا بايديهم الكريمة مغالقة الحضارة فاصبح
اهل الاسلام سادتها وسدنتها في الارض .
وبعد فان من الواجب قلب تاريخنا رأساً على عقب وان يعهد بكتبه
الى عقول ثاقبة نقادة . فالتاريخ القديم دونه اصحابه بقدر ما كان لعصورهم
من معرفة والتاريخ الحديث كتب جزء منه وهو المهم مستمداً من آراء الغرباء
وقد يكونون من اعدائنا الذين يتعبدون الله ببغضة العرب وبنبيهم وشرعه

يسرقون ولا يدرون

كم في الناس وهم في ظاهرهم من أهل الكمال يسرقون ولا يدرون ان
ماياتون هو السرقة بعينها . وكم فيهم من يسرقون ويفتون أنفسهم بلا علم
بان ما يرتكبونه لا ينافي الكرامة ولا يناهذ التقوى . كان لي صديق في احدى
دور الكتب العامة وكل اليه أمر اقتناء المخطوطات فكان اذا جاءه من يريد
بيع مخطوطة يستأذن صاحب الكتاب ليبقيه عنده ليلة ينظر فيه ثم يسارع
فيدفعه الى المصور يصوره له بالاسود على الابيض ومن الغد يبدأ الشاري
يساوم البائع على الكتاب فيدفع فيه الثمن الذي عينه له فاذا أبى البائع
ان ينزل عن المخطوط بالثمن المدفوع ادعى الشاري ان لهذا الكتاب نسخة
في احدى الخزان وانه يعرف أخرى مصورة بالتصوير الشمسي ، وهذه الحيلة
ياخذ المخطوط بالثمن الذي يروقه ، يسرق عامداً معتمداً خدمة للخزانة ،
والخزانة ملك الدولة والدولة لاتعطيه مكافأة اذا هو اقتصد من موازنتها
على هذا الوجه . ومعنى كل هذا ان صاحبنا يتحيل لاخذ كل كتاب بالقيمة
الهينة وليس له في ذلك أقل حق .

ومنهم من يسرق ويفتي نفسه بجل سرقته كأن يأخذ من القوة الكهربائية
في بلده مثلاً وذلك بان يضع سلكاً في الجدار الموصل الى منبعث القوة
ويحاول الاستصباح منها فاذا قلت له انك يا هذا تسرق الشركة بما لا يجوز
لك اجابك اليست الشركة تسرق ماء نهرنا ، فأنا آخذ من حقنا ؟ فاذا قلت

له لايحوز سرقة السارق قال لك : اتركها لله ، وهكذا اكثر السارقون من سرقة شركة الكهرباء بلا نكير ، اما سرقة التجار من الجمارك وتهريب بضائعهم بلا رسم ، مقابل جعل يجتعلونه للعامل الصغير فهي مما عمت به البلوى ويشترك فيه أهل المتاجر الاتقياء الا من حماه الله من طعمة الحرام ، وكلهم متواطئون على استحلال مال الدولة بما يجوزون لانفسهم ، يفتاتون على العقل والشرع ويتجاهلون سوء أثر عملهم الاخرق .

حكمة حكيم

حدثني ثقة عليم قال : كان في بعض بلاد الشام رجل يعد في الطبقة الأولى من الأغنياء ، وكان نجيداً جداً حتى ليضرب المثل ببخله ، مرض مرة مرضاً أعجز نطس الأطباء شفاؤه ، وكان ذلك أيام الحرب العالمية الأولى ، فوصف له طبيب الماني كان ينزل حلب زعموا أنه يشفي من جميع الأمراض ، فوقع في نفسه أن يرحل اليه يستطبه .

وكان الطبيب عندما استأذنه في نزول الثري عليه سأل العارفين عن ثروته فعدوها له بأعيانها فوعاها بذاكرتة فلما اجتمع الي الغني المريض سأله عن أملاكه وذكرها هو له واحداً واحداً ، قائلاً له أأنت تملك القرية الفلانية والسوق الفلانية والحمام الفلاني والحي الفلاني ودخلك عظيم جداً وتعد أغني غني في بلدك ، ثم قال : أما وأنت تملك كل هذا فما هي صدقاتك على الفقراء فاجابه : انا كل سبت نوزع عليهم من مائتين الي ثلاثمائة قرش ، فقال له الطبيب : وهل هذا كل ما تسمح به نفسك ؟ ألم تعمر جامعاً ألم تنشئ مدرسة ألم تعلم أطفالاً على نفقتك ؟ فكان جوابه سلباً بالطبع . فقال الألماني ما دمت على هذا الشح لا ينتفع أحد من حياتك فالموت أولى بك وأنا لأطبك ، فرجع الباشا الثري خجلان الي بلده .

وهذا من أبلغ ما سمعت من حكمة ، لو صارح عقلاء الناس الأغنياء هذه المصارحة لاستلوا منهم أموالاً ينفقونها في اغاثة البائسين ، وتعليم الجاهلين ومداواة المعولين .

وقعة سوداء

في العادة أن تقدر المجالس النيابية لان في احترامها احترام من تمثلهم من أبناء الأمة ، حدث أن غلبت الحدة على حزبين حزب الأقلية وحزب الأكثرية في مجلس نواب سورية فتلاسن المتخالفون أولاً ولم يشف ما بهم الا الشتائم المقذعة ثم التضارب بالأكف والكراسي . دعا الى الحصام تحالف في مسألة دستورية اجتهد فيها الأكثرية فما أعجب الاقلية اجتهادهم . تجرى في بعض مجالس النواب ببلاد الغرب ملاكيات وقد يتشائم المتخاصمون ، ولكن لا بهذه البذاءات . نحن مبتدئون بالحياة النيابية واذا أعوزنا العلم بما يرجى منه النهوض بالوطن فيجب ألا تقوتنا معرفة الأصول من الأخلاق .

أخلاق المرين

حمل من أرض العرب الى بلاد الترك طفلاً فنشأ نشأة تركية واقتبس اخلاق من عاش بينهم وسرى على طرائقهم ، ودعا الى قوميتهم ولغتهم ، وعاد الى مسقط رأسه وهو في الكهولة أعجم طمطم لايعرف العربية ولا تتقف بثقافة الاسلام ، وقصاراه ان ينقل عن احدى لغات الافرنج في الموضوع الذي تمحض له نقلاً لا تعرف مبلغه من الصحة .

ولقد حاول أن يتعلم في سن متأخرة ما كان عليه ان يتعلمه في الصبا فما افلح ، وكان لسان حاله انا شخص ولا كالأشخاص ، والعارفون كلهم دوني ، ولما أيس من الظهور من طريق العلم لم ير أحسن من أن ينتقص أهل الفضل ويبعدهم جهده عن الحظيرة التي لا يريد ان يشركه احد فيها ، وساعده الحظ لأول أمره ان كان له انصار اكثرهم من الذين ما كان من مطمع لهم في الالتفاف حوله الا معاوته على دنياهم ، فهبأوا له دعاية واسعة النطاق خُدع بها من خُدع ، واقتنع بصحتها من اقتنع ، وبها وصل الى رياسات كان

جماع رأس مالها دعايات ، فظهر بعد حين عواره واخذ حيث حلّ يعثر ثم تقال عثرته ، ثم يعثر ثم يُقال ، ثم عثر عثرة كان فيها سقوطه على ايشع صور السقوط ، وما كان السبب فيها الا تدخله فيما لايعنيه وادعاؤه معرفة مايجهل ، فيخلط فيما لا تؤمن مغبة التجربة فيه ، مزهواً بتصفيق بعض ضعاف العقول له ، وخرج عن منطق الاشياء فضل ، وما كان ممن توهم انهم اعوانه الا ان ثاروا عليه لثورته على النظام .

شهرة تقوم على الدعاية المصطنعة ويغذيها النيل من مكانة اصحاب المكانات ، ودعوى عريضة لاي تجاهر بتصديقها الا من اضطرهم الزمن الى ان يكونوا مرؤوسيه لا يصارحونه بما يجب ويعشونه كما غشهم . هذا نموذج من أخلاق بعض المربين وما هي الا أخلاق ضابط أخذ من صفوف الجند لم يدرس في مدرسة ما يلزمه في صناعته فجاء أقرب الى الجهل منه الى العلم .

عظ الكتاب العربي

الكتاب العربي اتعس كتاب في العالم حظاً اذا اعتبرنا ماضي الامة العربية فهو كاسد في بلده وكاسد في ارجاء العالم ينظر اليه بانه شيء عادي كما ينظر الى الادوات التي يستغنى عنها في البيوت .

الكتاب العربي مقصور النفع على فئة قليلة من الامة ما كتب له رواج ذات يوم ، واصابه قليل من الانتشار مؤخراً وظهوره بالقياس الى ظهوره في أمة غربية لا يعد شيئاً اي ان ما ينفق في كل من سويسرا والبلجيك وهولاندا والدانيمرك والسويد والنرويج لا يوازي ما تنفقه أمة لا يقل سكانها عن ثمانين مليوناً ومعهم أهل الاسلام والفئة المستنيرة منهم يقرؤن العربية ايضاً والسبب في هذا التأخر ان امر الكتب عندنا متروك للطبيعة لا تروج له الحكومات ولا الجامعات ولا الشركات على خلاف ما يفعله اهل الغرب

ولاسيا الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، ومن جملة ترويحهم للكتب أن يجمعوا خزائن من الاسفار تطوف القرى وتعير كل طالب ما يستفيد من أسفارها ، ومن دولهم من يطبع مقادير عظيمة من الكتب يحفظها في المستودعات ليوزعها على من يطلبها من الأمم الضعيفة ولا سيما على الممالك التي تهدمت بفعل الحريين الماضيتين وبذلك اعادوا لبعض خزائن تلك الاقطار رونقها السالف ، ومن منا ، والمال لا يعوزنا ، ابتاع مقداراً كبيراً من الكتب وجعلها في الخزائن الكبرى او اسس لها خزائن جديدة في الامصار التي هي في اشد العطش للقراءة . واي حكومة من حكوماتنا وزعت على الطلاب المدنيين والريفين كتباً يتتقنون بها .

وما برح الكتاب بضاعة مهملة لا تتناولها الا ايد قليلة جداً ، ولا يصل صوتها الى غير الخاصة او من هم في غنية عنها . كثر المثقون بثقافة العصر في بعض الاقطار العربية ولكن كم يبلغ عددهم ياترى بالقياس الى السواد الاعظم وكم عدد من يتناول الكتب منهم ويدفع ثمنها طيبة نفسه (١) ، وكم جمع منهم مجموعة حسنة ينزع اليها آونة الفراغ .

ولذلك كان الكتاب العربي سيء الطالع جداً وعلى نسبة رواجه تشهد حال المؤلفين الذين يتوخون بما يكتبون نشر العلوم والآداب لانشر الروايات والقصص الساقطة والآداب المكشوفة والآداب الرخيص في المجلات التي كادت تقضي على الكتاب بما تحمل للعامة من مغريات تهيج بها الشهوات وما يعبت أحياناً بالأدب .

(١) لما تولينا طبع كتبنا في العهد الاخير على حسابنا ، أقلنا من الهدايا ورأينا بعضهم وهم من أرباب السعة والثقافة وقد يدعون صحتنا يطالبون أن نهدي اليهم وقال بعضهم لمن قيل له اتبع لك نسخة من المذكرات ، اني لا مال لدي ، أعبروني نسخة وأعيدها اليكم ! ومن الغريب أن وراقاً دنيئاً استلف بضع نسخ دون أن يدفع ثمنها وأطلقها للاعارة بأجر كأن الكتب العلمية بمض قصص الظاهر وعترة . وطاب بعض من كان مظهرهم علمياً ولهم مال أن يحمم له شيء من نسخة يقتنيها والا فهو يستعيرها من دار الكتب ويستغني عن الشراء . بهذه العقلية المنحطة نريد أن نكون أمة رشيدة .

الفنى فى مهر

ذكرت بعض الصحف المصرية ان بدر اوي باشا من اعيان الغربية ابتاع مؤخرأ (١١٠٠) فدان بنصف مليون جنيه دفع ثمنها دفعة واحدة فأصبح مائلك نحو عشرين الف فدان . وقالوا فيه انه متدين لايحب ان يأكل الربا ويضع امواله فى المصارف بالامانة مع انه يجوز فى بعض المذاهب أخذ فائدة الاموال لتصرف فى الفقراء . ولا اعرف مبلغ ما يعطى هذا الموسر للفقراء وغاية ما عرفت ان عبود باشا وهو قريعه فى الثروة اذا طلب منه ألف أعطى ألفين وذلك لانه من اصله مثقف ، هو مهندس وعقول المهندسين متسعة اكثر من عقول الفلاحين .

يجاد عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحداً
قلت غير مرة ان مسألة تضخم ثروة الاغنياء فى مصر ليس لها الاسن قوانين تخفف الشر ، فلو سن مثلاً قانون لايحوز لاحد ان يملك اكثر من الف فدان وينزل عن الباقي للدولة توزعه على الفلاحين والا يملك بعد ذلك مالك اكثر من مائة فدان لجرى التعديل فى الثروات ودخلت فى طور معقول ولا علاج للحالة الاقتصادية الحاضرة الا بابطال الملكيات الكبيرة وتكثير الملكيات الصغيرة

والله اعلم بالصواب

عداوات اليهود

اراد الجمع اللغوي المصري ان ينتخب عضواً في مجلسه عن فلسطين وكانت الانظار متجهة الى اختيار افضل ادباؤها الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي وجرى الانتخاب ففاز بالاغلبية خمس مرات ولكن الدسائس التي حاكها اعداء العضو الفائز انتهت باختيار عضو آخر . فكان من ذلك ان تأثر المرشح الاصلي عاداً ما وقع ثلماً لشرفه ، وافئتاتاً على مكانته ، فقضى بالسكته القلبية شهيد من دأبوا على حرب من يسوءهم تفوق احد بالعلم عليهم وهم لاعلم لهم ، اما العبرة بما جرى فهو الاسف ان تتسرب الاهواء الى العلماء في جمع فؤاد الأول

الريوة والتنسيق

قال عمر رضي الله عنه : لا تولوا اليهود والنصارى فانهم يقبلون الرشا ولا تحل في دين الله الرشا ، قال الشهيدي : فاصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم!

رأت الحكومة المصرية ان تنسق موظفيها اي ترقى درجاتهم فألفت في كل وزارة لجنة تنظر في امرهم وماهي الا ايام حتى ظهر ان بعض اللجان اتفقت مع من يُراد ترفيتهم على مال معين تقتضيه منهم يوم يصلون الى ما يطعمون فيه من الدرجات . وقد قال أناس ممن يدركون مايؤدي اليه هذا العبث من الفساد في جسم الدولة ان لصغار الموظفين بعض العذر في ارتكاب ما يرتكبون لان رواتبهم ضئيلة لا تكفيهم في هذا الغلاء المرهق . وعندني ان الدواء الناجع في هذه السبيل هو تنفيذ القوانين على الكبير

والصغير واجراء حكم الترغيب والترهيب على ما يجب فان تضخم الموازنة المصرية بالرواتب وانفاق الجانب الاعظم منها على المستخدمين كان يمكن تلافيه لو لم يفتح الباب على مصراعيه في التوظيف والارضاء كما حصل في سورية ولبنان

والعقلاء اليوم على ان نصف هؤلاء الموظفين يكفون لادارة مصر . وقد اشرنا في هذه المذكرات غير مرة الى هذا الاصلاح الواجب والى اتقاء الاسراف فيما لا يفيد وما زلت اقول ان عشرة موظفين موسع عليهم اتصفوا بالموهلات اللازمة يجوزون عن خمسين موظفاً لا كفاءة لهم . ومن اعظم الفضائح في مصر وغير مصر ان كل حزب يستلم الحكم يأتي بالقدر الاعظم من جماعته ولو كانوا من عيار رديء لامزية لهم الا انهم صفقوا له وسعوا الى انجاحه سواء كانوا من الكفاءة بحيث يحسنون عملهم ام ضعافاً فيه ، ومن اسباب ذلك ايضاً ان السياسة والادارة شيء واحد في نظر الحكومات وكان الاولى فصلها فيتولى الادارة من ليس للسياسة سلطان عليه وبذلك تسيرو البلدان نحو الاصلاح . وآية كل ذلك ان تجرى العقوبات والمكافآت في نطاق العقل والقانون ابداً



سخر العادات

لأعلم ان كانت اوربا كلها تجري على مثال فرنسا في التنويه برجالها في كل فرصة ، وتحفل باعيادهم وولادتهم ووفياتهم ومواسمهم ، وتغلو في أيراد مناقبهم بل في اختلاق مناقب ما كانت يوماً لهم . فأهل الأدب يحتفلون بجماعتهم وأهل العلم بعلمائهم وأهل الحرب بقوادهم وأهل الدين بدعاة دينهم وقديسيهم وأرباب السياسة بساستهم . ولا تخلو فرنسا يوماً من تذكر الموتى ، والاشادة بهم ورفع اقدارهم ، وهذا بالضرورة يستلزم الاكتساء بكسوات تناسب المقام وبزات جديدة تلتئم مع الحفل وتستدعي ايضاً صرف وقت في الكتابة والخطابة . ويريدون من ذلك الا ينسوا رجالهم وان يرددوا على الدوام ذكراهم ، وهم ابدأً ينتقلون من عيد الى عيد ومن حفلة الى اخرى ، كأن القوم خلقوا للتشريفات واجراء المراسم لايهمهم غيرها يبالغون في ذلك ويحاولون ان يعدوا لكل جلسة عدتها ، ولكل حفل تقاليد ، وما اظن عاقلاً يغبطهم على ما ابتلوا به من هذه العادات الثقيلة الوطأة وانتقلت هذه المصطلحات الى بعض نصارى الشرق ولاسيا من ربوا في مدارس المبشرين فأخذوا يغالون في كل من امتاز عن اهله وجيرانه بشيء من المعرفة الضئيلة وكل من يموتون عندهم من هذا القبيل هم في الذروة من الفضل والنبيل وهم من اعظم المعاصرين وافضل العارفين حتى دخلت المسائل عندهم في طور من الدجل عجيب . وكل من يموت عندهم يجب تأبينه وإيراد صفات له ما كان يعرفها او يعرفها له عاقل ، ولطالما رأيتهم يرثون الامي والجاهل ويصفونها بالعلم والعمل كما شهدتهم يشهدون للصعلوك بالعظمة وللسارق بالزاهة يكبرون من يرومون تكبيرهم كأنهم يعتقدون ان بالغو في وصفهم يرضونهم ، وان من السهل الكذب على التاريخ والتمويه في كل شيء والتدجيل في كل موضوع يوجعون الرؤوس بما يكتبون في الصحف والنشرات

وأحياناً بما يضعون من الكتب المطولة فيمن يعتقدون انهم آية في تقدمهم في صناعتهم
وكم نشروا من هذا السخف ماهو عار وسبة على قائله وكاتبه وناشره . وقد
رأيت بعض مجلاتهم ولاسيا « المشرق » وهو بوق تبشير وصحيفة دعائية
دأب على الخط من كل دين غير دين المسيح وقد دأبت هذه الصحيفة على هذه
الخطئة تدون من هذه البضاعة الرخيصة كل سخيف من اعمال رجالهم حتى
ليخيل للمغرور ان رجال طائفتهم كلهم فضلاء ونبلاء ، وليس بعد هذا
ضعف عقل .

أما المسلمون على الاكثر فانتهبوا نهجا آخر يصمون رجالهم بكل نقيصة
ويخترعون لهم مساوىء ليست فيهم فاذا ماتوا سكتوا بعض السكوت عنهم
ولا يتناولون باللقمة واللعنة الا عظماءهم في حياتهم فما اكبر الفرق بين
المغالين واخذادهم . المسلمون يتوخون ان يكون من يجوزون رضاهم بدون
عيوب وما عهد ان اجمع قوم على تقريظ رجل خصوصاً من تولوا الامور
العامه . ورأينا بعض من قصدوا الى ترجمة الناس من المتأخرين
يدهنون لكل واحد ولكن على من جازت أقوالهم الملققة ؟ وهل سلمت
شهادتهم المزورة امام قضاة العدل ونقاد الرجال ؟ وهل اشتهر من الصقوا
بهم صفات ليست فيهم كما اشتهر من عدوا بحسب الظاهر في عصرهم من
الخاملين ولم يبرزقوا ما يستحقون من شهرة ؟ لا يثبت الا الصحيح والكذب
والزور اذا انطليا على ضعاف العقول مرة يَنْصِلان بعد حين فيبدو صاحبها
بما فيه من عيوب فاضحة .

المؤلفون السارقون

ويتساءل القارئ اللبيب عما عتنت له هنا قائلاً وهل في المؤلفين من يسرق ، والمؤلفون صفوة الخلق ومقام التأليف فوق كل مقام . نعم في المؤلفين سارقون ويسرقون بقحة وسلطنة كما كان على الدهر العالمون والجاهلون والصالحون والطالحون .

امتحن بطائفة من ادعياء التأليف يتهمون على ما لا يعلمون ويسلكون الى ترويح بضاعتهم مسالك لا يستجيزها لنفسه شريف ، لا يقصدون بها الا ان يتربحوا بما ينشرون ، ويتمجدوا امام الجبهة . ومن هؤلاء المؤلفين من يستحقون العتاب لانهم على شيء من الفضل وذنبهم اعظم من ذنب الجاهل ممن يغفون مراعاة المصطلح عليه في النقل والاحتذاء . ومنهم من نشر في الادب كتابين استصفا بعض ما قلته واستشهدت به في (رسائل البلغاء) و (امراء البيان) فاخذنا من النصوص ومن اقوالى اشياء وقال لي احدهما انه اخذ مني اشياء ولم يذكر اسمي فقلت له : عجيب ! وهل اسمي مما يتقزز منه ، والامانة تقضي بعزو القول لقائله . وكان هذين الادبيين خشيا اذا اشارا الى مصادرها ان يزيدا في شهرتي وشهرة كتيبي او ان مثلها في ادبها لا يجوز ان ينقل كلام معاصر الا اذا مات .

ولما كان معظم المؤلفين عندنا قد خرجوا من صفوف المعلمين ، ومعلمو الصبيان متهمون منذ القديم بضيق العطن ، عفوت عن هذين السارقين وتجاوزت فالحقتها بمن سرقوا بعض الموضوعات التي عاجلتها او استشهدت فيها بأمثلة انفقت في جلبها وقتاً ومالاً .

ان تهالك المتهالكين على الشهرة وهم متصفون بهذه الصفات في غمط حق الغير لن يوصلهم الى ما يشتهون ، وما داموا لا يقصدون من تأليفهم الا نفع انفسهم فانا أبشرهم بأنه لا يبقى لهم من مجد الا ما رجوه من تصفيق تلاميذهم ان كان هذا بعد مجداً .

وهناك فئة حشرت نفسها حشراً في المؤلفين تستطيع ان تقبض عليها في حالة الجرم المشهود كل ساعة على نحو ما كان من مؤلف لبناني عاش زمناً في انتحال صفحات طويلة من كتيبي وما اكتفى بذلك حتى سألتني ذات يوم عن رأيي في تأليفه بلاحياء فادعيت له اني ماقرأتها . ومنهم من ينقل الشواهد التي آتت بها وهم في الواقع ماطلعوا على الكتب التي نقلت عنها وقد تكون من المخطوطات النادرة لاتصل اليها كل يد . ومنهم من يسرق الفكر ويصوغه في القالب الذي يقدره ويدعي انه من بنات أفكاره كبعض المصريين . وهذا من الصعب مقاضاة صاحبه لانه يزعم ان ذلك كان من باب توارد الخواطر . ومنهم من يذكر ثبت الكتب التي رجع اليها وهو ما رأى الا بعضها . ومنهم من يأخذ عباراتي بلفظها ومعناها يشير الى أنه أخذ عني وعن غيري ، وعرف المؤلفين المذكورين كما عرفتهم الى غير ذلك . وهذا من اخلاق بعض المرين ايضاً فتأمل كيف تكون أخلاق من يربونهم

عمى الماديات

لأحد الأغنياء مزرعة تتاخم بعض حقولها مقبرة الفلاحين حدثته نفسه ان يستضيفها ليضمها الى أرضه فاوعز الى حراثته ان يقلبوا القبور فخرجت جماجم الموتى فصار يدرجها برجله بقسوة قلب ويقول : يا طالما سرقتم لما كنتم في عالم الاحياء . وهم ما سرقوا الا ما يسد جوعهم وغيرهم سرقوا وزوروا وهم في غير حاجة الى ذلك . فاطلع اهل القرية على الامر وجاءوه وشموه واهانوه فاحب ان ينتقم منهم ويقدم عليهم شكوى الا ان مختار القرية سبق واطلع ارباب الشأن على ما اتاه ذلك الملاك فصدر الامر الى الجهات المختصة ان لا تسمع له شكوى فلم يسعه الا ان صالح المختار واهل القرية ونجا . هذا الرجل على ذكائه تقدم في انتخابات مجلس النواب مرة فاخفق اخفاقاً مزرياً لانه دخلها وهو يدل بما عنده من ورق نقدي وما يكنز من

دنانير ذهبية وما يملك من ارض واسعة ، وما ادرك ان من لم ينفع الناس لايتعارفون اليه يوم يهزم لنجدته ، ومن لا يحب قومه لا يحبونه ، ومن ظن ان المال يوصله الى كل شيء يخطيء كثيراً .

نهضة السام الاخيرة

في الربع الاخير من القرن الماضي كانت المعارف في الديار الشامية منقسمة الى معسكرين ، يقود الاول دعاة الكتلكة والبرتستانتية ، حملة علوم المدنية الحديثة ، ويقود الثاني دعاة تترك العناصر اصحاب القومية التركية ومن ورائهم الدولة العثمانية . وكان معظم جماعة المعسكر الاول من المسيحيين في الساحل ، وعامة جماعة المعسكر الثاني من المسلمين في الداخل .

وظهرت شعلة العلوم الجديدة من مدينة بيروت بعد مذابح سنة ١٨٦٠ بفضل الجامعتين الاميركية واليسوعية وما أنشئ قبلهما وبعدهما من المدارس الطائفية والتبشيرية . وغدت اللغة العربية تدرس بعناية في تلك المدارس ، وشاعت اللغتان الانكليزية والفرنسية ، والعلوم تدرس باحدهما ، وكانت درست زمناً باللغة العربية في الجامعة الاميركية ، ثم جعلت اللغة الانكليزية لغة التدريس فيها الى الآن . اما مدارس الترك الرسمية فكانت لغتها التركية في الثانوي والعالى وتدرس العربية في الثانوي والابتدائي تدریساً ضعيفاً ومثل ذلك كان حظ اللغة الفرنسية من العناية .

وبينا كانت اللغة العربية تنهض في الساحل نهضة محمودة ، كانت في مدارس الحكومة وفي المدارس الدينية القديمة ظاهرة الضعف ، سقيمة الاسلوب وبينا كان طلبة المدارس التبشيرية والطائفية يتقنون من العلوم واللغات ما ينفعهم في معاطاة الصناعات الحرة وممارسة التجارة ، كان طلبة المدارس الحكومية يتناغون بتعلم اللغة التركية ، لينشأ منهم في الدولة موظفون في الجندية والادارة ، ولا اثر بين اظهرهم للتعليم الذي يؤهلهم للحياة الحرة .

نعم كانت اللغة العربية في حالة نزاع في البلاد الداخلية ، اذا درست قواعدها في المدارس الاميرية (ولا يحسن التركية من لا يعرف العربية والفارسية) فتدرس بالتركية وتشرح بالتركية ، على صورة اشبه بالهزل منها بالجد . وربما كانت وزارة المعارف تتعمد يومئذ نصب الاتراك لتعليم العربية ، كما كانت تعهد الى بعض ابناء العرب بتدريس اللسان التركي . ووقع لها غير مرة ان عينت في المدارس الثانوية أناساً من الأرمن والروم لتدريس العلوم الاسلامية .

وبينا كانت الجامعة الاميركية وغيرها من المدارس الطائفية الكبرى في لبنان تخرج شعراء وكتاباً ومترجمين ومتأديبين مثقفين بثقافة العصر ، كانت علوم الدين واللسان تدرس في مدارس حلب ودمشق على الطريقة القديمة العقيمة ، والقوم لا يعرفون شيئاً يعتدُّ به عن الغرب وعلوم الغرب ، وبلغ بهم الجهل ان نسوا ان أمتهم كانت ذات عز علمي عظيم في سالف الاحقاب . كانوا في العصور الاخيرة يحفظون القرآن ولا يقرأون تفسيره ، ويتعلمون الفقه ولا يبحثون عن اصوله وفروعه ، ويتبركون بتلاوة الحديث ويحفظون صحيحه بسقيمه ، ويتدارسون قواعد النحو ولا تستقيم لهم جملة صحيحة ، ويستظهرون دساتير التصريف ولا يصححون الرسم والاملاء ، ويدرسون العروض وما يطلقون عليه علم المعاني والبيان والبديع ولا يحسنون نظم ابيات ذات معنى طريف بلفظ جزل ، ولا انشاء خطبة مؤثرة أو صفحة بليغة . وليس في شيوخيهم من يرتجل جملتين او يكتب سطرين .

وكانوا الى هذا يجرمون درس التاريخ ، ويقولون ولا يخرجون انه من لغو الحديث ، على حين كان هذا العلم في العصور الوسطى يدرس درساً عاماً في الجامع الاموي بدمشق كما يدرس الحديث النبوي . وكانوا يعدون علوم الطبيعيات والرياضيات والفلك مدرجة الى الزندقة . أما الفلسفة فان مجرد ذكر العارف بها كان كافياً للحكم عليه بالاحاد ، وأبيح دم المتفلسف وماله في بعض الادوار . بل لقد حرّموا قراءة المنطق لما يلاحظ فيه من توسع

العقل ، وهم لا يطلبون من العقل الا ان يكون ضيقاً . انقضت بقية من طالما لغطوا بهذه الآراء السقيمة ، واستعانوا بالقوة الزمنية على اضطهاد من يتدارسون العلوم المادية ، وخلف من بعدهم حلف لاذوا بالتقية فما وسعهم الا السكوت لما رأوا ابناءهم يدرسون ما كانوا هم يحظرون على الناس تعلمه . ولا عجب ان اصيبت العقول بداء عقام اشبه بداء الفلج ، بحيث لاتقوى على الحركة ولا على الانتاج واصبح الاهلون يرون العافية فيما هم فيه ، راضين بجهلهم اذا سلم لهم دينهم على الصورة التي يتخيّلونها ديناً . وما كانت انفسهم تحذّرهم بالخروج عما ألفوا عليه آباءهم ، ولا ان يجيدوا قيدا مثله عما خطه لهم ساداتهم وكبرائهم وحكام كان الظاهر من مصلحة حكومتهم ترك العرب ، وهم نصف سكان السلطنة في جاهلية جهلاء ، ويصرحون بان الملك لا يسلم للترك الا بنزع سلاح العلم من العرب ، ولذلك كانت وزارة المعارف تحارب سرّاً انتشار التعليم بين المسلمين العرب ، زاعمة انه تقدم تقدماً كافياً ، فالرأى تأخيره الى الوراء لا يدفع به الى الامام ، ولما آخت الحالة الى هذه الدرّة من الجهل خلا الجو للدجالين والمخرفين وعمم الفقر والجمول . وفي الحقبة التي كان فيها العلم العربي في احط مراحل ، والمشايخ يحاولون الاحتفاظ بسلطانهم الذي كان لهم على الملوك والسوقة ولا يتحرجون من ان يزينوا الجهل للامة ارضاء لاولى الامر منهم ، قام في الشام استاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، وهو في هذه الديار كالاستاذ الامام محمد عبده في مصر فسعى بانشاء المدارس الابتدائية الاميرية (للذكور والاناث) في ولاية سورية العظيمة ، واخذ يؤلف لها الكتب في الفنون اللازمة ، ويلقن المعلمين اصول التدريس والتربية ، واشترك في تأسيس ثانوية دمشق وفي هذه المدينة انشأ دار الكتب الظاهرية ، ثم دار الكتب الخالدية في القدس . وكان طول حياته الحركة الدائمة في نشر العلم ، لا يجد منفذاً لبث الافكار الا نفذ اليه ، ولا طريقاً الى نشر الثقافة الجديدة الا سلكه وعبّده امام السالكين . وكان ينشر كتب الاقدمين كما ينشر كتب المحدثين ، ويجي

علوم الدنيا كما يحبي علوم الدين ، ويجب الى النفوس الحضارة العربية كما يبحث على اقتباس الحضارة الغربية ، وبارشاده انتفعت طائفة صالحة من الشبان ، وتخرج به من كان على استعداد لقبول دعوته ، ومنهم من تلقى تعاليمه مباشرة ومنهم من اكتفى بالاخذ عنه بالواسطة . وظهور هذا المصلح العظيم دليل على ان البلاد كانت ذات ثقافة محلية لا تحتاج الا الى يد صالحة تتعدها وتوجهها .

ولما نفس خناق الشاميين بانتشار القانون الاساسي (سنة ١٩٠٨) هبت القوى الكامنة في بعض النفوس الى احياء كل ما كان فيه احياء مجد الامة العربية ، وغدت دمشق عاصمة الامويين مبعث تلك الحركة الرشيدة فصدرت فيها الصحف السياسية والمجلات العلمية ، وبدى ارسال بعثات علمية الى مدارس فرنسا ، وانشئت في الحواضر الكبرى مدارس ثانوية اميرية تعلم العلوم بالعربية ، الى جانب المدارس الثانوية التي ظلت سائرة على ما كانت عليه تعلم بالتركية .

وما ان وضعت الحرب العامة اوزارها وخرجت البلاد عن الحكم العثماني (١٩١٨) حتى نهض القوم لتلقف العلوم بهمة عظيمة ، فأسس الجمع العلمي العربي في دمشق على عهد الحكومة العربية ، كما انشئت كلية الطب وكلية الحقوق ثم كلية الآداب ودور المعلمين والمعلمات ، واصلح نظام المدارس الثانوية والابتدائية وانتشر التعليم بالاستكثار من المدارس الابتدائية في المدن والقرى . واستعادت اللغة العربية بعض بهائمها القديم ، واصبح لها المقام الاول في منهاج الدروس ، وجعلت لغة التعليم في درجاته الثلاث ، واصبحت اللغة الفرنسية تدرس تدريسياً جدياً راقياً . بمعنى أن اهل هذه الديار اخذوا يتعلمون على الطريقة التي يختارونها كما نص على ذلك صك جمعية الأهم التي انتدبت فرنسا لتنفيذه .

وماهي الا اعوام قليلة حتى نشأ في الداخل شبان دارسون على النهج الذي كان ينشأ عليه شبان الساحل ، واصبحت دمشق او سورية الداخلية تدرس

من صنوف العلوم ما كان قد انقطع سنده اعصاراً طويلة ، وبقي على حالة جامدة ما تعدى الحد الذي عرف به عند القدماء ، وما بلغ المشتغلين به وهم افراد قلائل جداً انه طراً على تلك العلوم ما غيرها رأساً على عقب بفضل الغرب وجامعاته .

وبعد حين ظهر الاطباء والحقوقيون والمهندسون والزراعيون ورجال التربية والتعليم ، ونبغ كتاب وشعراء وأدباء وخطباء ، وشارك النساء الرجال في هذه النهضة المباركة ، فأصبح منهن المؤلفات والمربية على مثال الرجال بمقياس صغير . واخذت الحكومة ترسل الى جامعات فرنسا بعثات من نبيهاء الطلاب للتخصص في العلم والأدب ليتولوا التدريس في التعليم العالي والثانوي . وتعاطى بعضهم الاعمال الحرة وخدم بعضهم الحكومة ، ومنهم من تعلموا على نفقتهم الخاصة في فرنسا وفي مصر وغيرها ، ولا يقل عدد من تعلموا العلم العالي في جامعات الغرب عن بضع مئات ، وهم الذين وضعوا كما وضع بعض اساتذتهم تآليف مدرسية ومصنفات راقية يظهر عليها الاتقان والبحث ، وذلك في الحقوق والطب والتاريخ والفلسفة والرياضيات والطبيعات والتربية والزراعة والمالية والاقتصاد والكيمياء والأدب والقصة . ونازعت دمشق بيروت في هذا الشأن ، وكانت هذه مستأثرة بطبع الكتب ونشر الجرائد والمجلات ، فبدأت عاصمة سورية تنافس عاصمة لبنان منافسة ظاهرة وانفسح لها المجال لذلك خصوصاً بعد ان اتجه التعليم في مدارس لبنان وجهة افرنجية في العهد الأخير ، وضعف الغرام بالعربية وآدابها .

وما صدر من التآليف العلمية في سورية الداخلية منذ عشرين سنة ، وما تلى على منسبر المجمع العلمي العربي من محاضرات الاخصائيين ، وما حملته مجلة المجمع في ثلاثة وعشرين مجلداً من الابحاث باقلام علماء وأدباء شاميين ، وما نشر في مجلات الطب والحقوق والزراعة والتربية والادب من مقالات وتحقيقات عدا ما نشره للشاميين الصحف المصرية وغيرها ، برهان جلي على

ما نقول . وكان للجمعيات الخيرية والمدنية اثر مهم في التربية ونشر الثقافة ومنها ما علم اليتامي واليتيمات ، ومنها ما علم الكبار ، ولا سيما في المدن الاربع (دمشق وحلب وحمص وحماة) وذلك في مدارس ليلية تعلم فيها عشرات الالوف من الشبان ما خرجوا به عن حد الأمية .

وانا اذا نظرنا الى النهضة في سورية والنهضة في لبنان ، نجد أثر الغريب في النهضة الاولى اقل من القريب ونجد العكس في الثانية اي انا اذا حللنا النهضتين ، اذا صحت تسميتها بهذا الاسم ، يثبت لنا ان حظ الوطني من نهضة لبنان كان اقل من حظ الاجنبي ، وحظ الوطني في سورية ظاهر كل الظهور ، ويد الغربي ضئيلة الاثر فيما تم . ومن الظواهر الغريبة ايضاً ان اكثر من تعلموا العلم العالي في فرنسا وغيرها عادوا الى وطنهم يدعون للمدينة العربية ، اي انهم تلقفوا من المدينة العربية ما استعانوا به فقط على بث مدينة أمتهم .

استفادت سورية لاول أمرها من نهضة لبنان ، كما تستفيد الآن من نهضة مصر ، ونهضة سورية اليوم تشبه النهضة المصرية من وجوه كثيرة ، ولسورية من الاوضاع مثل ما لمصر . والجامعة السورية هي الوحيدة من بين جامعات الشرق التي تدرس العلوم العالية بالعربية ، وقد وضع لها الاساتذة أوفاً من الالفاظ العلمية في الكتب التي الفوها مباشرة اونقلوها من احدى اللغات . وسورية تتناول بكثرة كتب مصر ومجلاتها وربما عرف الشامي عن مصر اكثر مما يعرف المصري عن بلده .

ومن الظواهر في اخلاق المتعلمين على المناحي الغربية انهم يُعنون في سورية بان تكون أرضهم ميدان عملهم ومجالهم الحيوي في حين كان اكثر من تعلموا في مدارس لبنان يؤثرون الهجرة الى الامريكيتين أو مصر أو السودان ، وبمغادرتهم مساقط رؤوسهم ، وصرف جهودهم في الاصقاع التي ينزلونها ضعفت قواهم بالطبع عن خدمة بلادهم الاصلية ، وقد تطول هجرتهم او تصبح قطعة في ارض غير عربية ، فينشأ ابناؤهم بعينين عن العروبة .

وفي الحق انه كان من منافسة الطوائف وجمعيات المبشرين نشر التعليم في لبنان ، فقل فيه عدد الاميين ، ولا تصل سورية الى مستوى لبنان في ذلك قبل عقدين أو ثلاثة عقود من الاعوام . والمأمول ان يزيد العلم في الفة المتخالفين في مذاهبهم ، وان تضمحل الفوارق من بين أهل الوطن الواحد ، ويدرك الخاصة والعامة معاني القومية التي لا تعيش الامم بغيرها ، خصوصاً في قطر كهذا تكثر فيه المذاهب والنحل ، وفيه منها عشرون أو اكثر ، فهو فيفساء اديان بعقيدته ومجموعة بدائع في طبيعته .

لاجرم ان اصلاح التعليم على اختلاف درجاته قد سهل اخذ العلم على معظم الطبقات ، ونظام البكالوريا الجديد ادخل الدراسة في طور عملي نافع ، وبالتعليم ارتقت لغة التخاطب والتكاتب ، واصبح ما كان يجبهه الدارسون من الشيوخ يتقنه بل يتمثله صغار الطلبة الذين لم يبلغوا الحلم . وفعلت الثقافة في تحسين الملكات والعادات ، واصبح المتعلمون حتى من اقتصروا على التعليم الابتدائي ، يميلون الى التجميل والنظافة وحسن الهندام ، ويألفون النظام والترتيب في معظم مرافق حياتهم . وكانت المدن والقرى الى عهد قريب على حالة ابتدائية من مظاهر المدنية ، وبانتشار العلم في بيئات ما كان يظن انه يسرى اليها ، حسنت حالة البلاد الادبية والاقتصادية . وبما اعان في هذا الشأن كثرة التنقل في طلب الرزق في الممالك الاجنبية ، وسهولة تناول الكتب والصحف والمجلات ، ويسر الاستماع الى اذاعات المذياع ومحاضرات المحاضرين . وخطب الخطباء ، والفضل الاول في هذا التبدل للمدرسة . ولواستطاعت الحكومات ان تبذل في نشر المعارف اكثر مما بذلت ، وعاون الاهلون في هذه السبيل معاونة صحيحة ، لعم التعليم القرى كما عم المدن ، ولاصاب من نعمته البدو كما اصاب الحضر ولظهرت الارحاء بالمظهر الذي يليق بعظمتها الطبيعية والتاريخية ، فجمعت الى قديمها حديثاً تغتبط به من كل وجه امام الغريب والقريب .

الثورة المباركة

في الساعة الثانية من صباح الأربعاء (٣٠ آذار سنة ١٩٤٩ وغرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧) قام الجيش السوري بقيادة قائده الزعيم السيد حسني الزعيم بالاستيلاء على زمام الأمر واعتقال رجال الحكم الماضي وبينهم رئيس الجمهورية السورية ورئيس وزارتها ونشر البلاغ الآتي :

« مدفوعين بغيرتنا الوطنية ومتألمين مما آل اليه وضع البلاد من جراء افتراءات وتعسف من يدعون حكامنا المخلصين لجأنا مضطرين الى استلام زمام الحكم مؤقتاً في البلاد التي نحرص على المحافظة على استقلالها كل الحرص ، وسنقوم بكل ما يترتب علينا نحو وطننا العزيز غير طامحين باستلام الحكم بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديمقراطي صحيح يحل محل الحكم الحالي المزيف . واننا نترجو من الشعب الكريم أن يلجأ إلى الهدوء والسكينة مقدماً لنا كل المعونة والمساعدة للسماح لنا باتمام مهمتنا التحريرية وان كل محاولة تخل بالامن والتي قد يمكن ان تظهر عن بعض العناصر الهدامة الاستثنائية تقمع فوراً دون شفقة أو رحمة .

القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة

وقال الزعيم في بلاغ آخر « انه رأى ما آلت اليه حالة البلاد من الفوضى واستئثار وخذلان ووجد العهد الحاضر مليئاً بالمساوي والمخازي من خيانات وسرقات ومن قضاء على الحريات الديمقراطية الى مخالفة الدستور والقوانين . ولقد رأى الجيش كل ذلك وابقن ان الامة تسير بخطى متسارعة نحو الموت والفناء فأبت عليه وطنيته وكرامته ان يقف مكتوف الايدي وابت على ابنائه نفوسهم النبيلة ان يرضوا بالذل والعبودية والفناء مصيراً لأمة عظيمة كتب لها المجد والخلود فصمم على ان يقف هذا الموقف الشريف ويتدخل ليعيد الامور الى

نصابها . يعيد الى هذه الامة شرفها وكرامتها وحريتها » وقال قائد الجيش ايضاً : « ان السبب في الحركة التي قام الجيش بها هو الهجوم المتكرر على الجيش في المجلس النيابي وخارجه للتشهير به واطهاره بمظهر غير لائق . وقد نهبنا المسؤولين الى الحالة اكثر من مرة ، ولكن دون جدوى قال : « وقد لمسنا استياء الشعب من الوضع السابق وعدم رضاه عن الفوضى وشعرنا بان سمعة الجيش اصبحت مضغة في الافواه على اثر اعتقال بعض الضباط بتهمة السرقة والاختلاس وعدم اطلاق سراحهم رغم ثبوت براءتهم » قال : « والحركة داخلية بحتة لاعلاقة لها بدولة خارجية سواء كانت اجنبية أم عربية ونحن عرب قوميون وكل سلطة خارجية مهما كان نوعها تحاول الاعتداء على سلامة استقلالنا وسيادتنا سنقابلها بالقوة ، ونحن سنتخلى عن السلطات الى الحكومة الشرعية التي سيتم تأليفها في اقرب وقت ممكن فتعود الحالة الى مجراها الطبيعي » وقال : « ان قيادة الجيش قامت لانقاذ البلاد من الفوضى التي غرقت فيها والتي باتت تهدد استقلالنا تهديداً خطيراً ورغبتها صيانة الدولة من الانهيار وانقاذ الجيش السوري الباسل من محاولة العبث والتهديم التي تعرض لها في المدة الأخيرة فالجيش السوري الباسل الذي ضحى بزهرة شبابه وسفك دماء المخلصين من ابناؤه في سبيل حماية حدود البلاد ورد اعدائها عنها واستطاع ان يسجل انتصارات رائعة لا يمكن ان يقبل بأي شكل من الاشكال ان يتعرض للمعاملة السيئة التي كان يلقاها »

وفض الزعيم المجلس النيابي وبين في كتاب ارسله الى رئيس المجلس اسباب الحل وقال : « ان المجلس لا يمثل في اكثريته الساحقة رغبة الناخبين وارادتهم وانما جرى في انتخابه تحت ضغط الفئة الحاكمة وبضروب التزوير والعنف والاكراه . وكان قد ثبت بعشرات الادلة الدامغة تزوير انتخاب النواب والطعن في نيابتهم وكان الاساس الاول في اقامة حكم ديمقراطي هو القيام بانتخابات صحيحة حرة وقد يعبر فيها الشعب عن ارادته في جو حر تام لا زيف فيه ولا ضغط ولا اكراه . زورت انتخابات اكثر اعضاء المجلس

وكان البعض الآخر اقرب الى التعيين منه الى الانتخابات فماشى طغيان الفئة الحاكمة في اكثر من موقف وكان في اكثريته اداة طيعة في ايدي هذه الفئة تسيروها كيفما تشاء »

هذا ما صرح به الزعيم العظيم من الدواعي الى هذه الثورة التي عبرت عن اماني الأمة المظلومة اصدق تعبير واغتنبت ان كانت الثورة سلماً كلها لم يقتل فيها انسان ولم تجرح فيها اصبع واستلم الجيش زمام الحكم وشرع بتطهير جهاز الحكومة من ادرانه وبتنحية من ليس للجمهورية حاجة اليه وطرده المرتشين والمتلاعبين والجاهلين من اعوان الدولة البائدة وبات الرجاء معقوداً على تخفيف الآلام ورد المظالم وانقاذ الاوضاع الدستورية لتسيير الامور على نظام وعدل

عدت الأمة في عهدها الأخير ثلاثة اعياد تتهلل وجوه ابناؤها سروراً كلما ذكروها العيد الأول كان بجروج الاتراك من سورية والثاني بجلاء الفرنسيين عنها والثالث هذه الثورة المباركة التي قضى بها على سلطان الطغيان ابد الدهر ان شاء الله



الدواعي الى الثورة

كُتبت الى احد اصدقائي في مصر كتاباً في الدواعي الى الثورة السورية الاخيرة اقتطف منه مايلي : تدارك الزعيم بحكمته وحنكته الجمهورية السورية من الانحلال ولم تخدش اصبع وطني واحد في العاصمة والأقاليم وتمت الثورة على احكم ما يكون من السرعة والشعب يصفق وهليل .

وتسألني وهل من داع لهذه الثورة ، نعم ان لها عدة دواع لان حكومة الجمهورية اصبحت بأخرة حكومة تخريب ولصوصية فيما ارتكبته من المساويء تردت الأخلاق وعمت الفوضى فكان من التجروا بالوطنية زمناً وبها باعوا واشتروا وجعلوها وقفاً مؤبداً عليهم يسرقون الدولة باسلوب مفضوح مخجل ، كانوا من قبل يسرقون الالوف فاصبحوا يسرقون بمئات الالوف ولا يشبعون ولا يكفون ، وكيف لا يسرقون ورئيس الجمهورية يستهدي النواب على ما قيل وييدي هو لمن يريد استتباعهم من مال الامة ، ويفرض بعض الوزراء على كل رئيس حكومة يعهد اليه بتأليف وزارة . ومن الغريب أن من كان يقدرهم ظهرت سيئاتهم في الدور الجديد لما جرى حسابهم فكانوا من أكبر الخونة والصوص ، وزور في انتخاب النواب من حزبه وزور في انتخابه ثانية للرياسة وبذلك خان الدستور الذي لا يجوز انتخاب الرئيس مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر ، وكان عليه تفادي كل هذا لانه مريض ولا يكاد يمضي شهر واحد الا ويقضي أياماً في السرير منقطعاً عن كل حركة ومن تداعت صحته لا يرجي منه أن يدبر صحة أمة .

ومما يؤخذ عليه اصطناع السفلة والاوغاد يغدق عليهم الاموال والعطايا ويختصمهم بالامتيازات والاعفاءات الراجحة ويوزع عليهم قسطاً عظيماً من الخنطة والارز والسكر وغير ذلك من الحاجيات وفقراء الاهلين بل المتوسطون منهم لا يباون الى حاجتهم منها الا بالبذل الكثير ، وقد جعل الرئيس

من اولئك الرعا عشاءه وجلسه وقد شوهه قبل يوم اعتقاله في قريتنا في طريقه الى مزرعته والى جانبه اثنان من هذه الطبقة فما استغرب القرويون ذلك منه لانهم طالما شاهدوا امثالهم معه يرفع مقامهم ويأنس اليهم ويتقزز من مجلس فضلاء القوم ولا يقبل لهم نصحاً .

واستكثر الرئيس من الموظفين الفاسدين ومنهم أهله وأبناء حزبه يهود على بعضهم بعدة رواتب من دون أن يكون لهم عمل ظاهر وفيهم الاميون الذين ما دخلوا كتاباً حياتهم ، فضخمت الموازنة حتى بلغت ضعفي ما كانت والمجلس يقرر له الاعتمادات بالملايين دون أن يعرف وجوه صرفها ، وكان بعض من ولوا الوزارة ممن لم تسبق لهم خدمة في الحكومة من الطبقة المحدودة عقولها ومعارفها فتسلط أهلهم وأنصارهم على الناس وهتكوا الاعراض واستصفوا الارض من مالكيها ، وكان أبداً متمسكاً بهم حتى أن أحد رؤساء وزارته الذي ضجت البلد من سوء ادارته وعلت الاصوات بالشكوى من اضاعته الحقوق لم يتخل عنه رئيس الجمهورية حتى اندلع لسان الثورة واهرقت دماء الابرياء .

ولقد عطل رئيس الجمهورية الحدود عملاً بنصيحة أمه لانها أرادت على أن يتجنب القتل لانها تخاف على ابنها أن يصيبه شر من ذلك فأدخل بهذا النساء في مصالح الدولة . وكان الموظف الذي له امرأة حسنة يميل ارادته على القضاة ورجال الادارة فيفسق ويسرق وهو في حل مما يأتي لانه من حاشية الرئيس معدود في اتباعه والرجل « الموصى عليه من القصر » كان كأهل بدر ، وفي الرئيس في سياسة الارضاء والمصانعة كأن البلاد اقطاع له ولآله ومن والا . وكان يتدخل حتى في تعيين الفراشين والآذنين لان امرأة أحدهم أو والدته سبقت فشكت ظلامتها لامرأة الرئيس أولامه فصار لزاماً عليه أن يعينه وان كانت المصلحة تقتضي استخدام منافسه ، وكان بعض الوزراء يتبرمون بهذه السياسة الخرقاء ويعدون لها اعتداء على حقوقهم ومنهم من استقال من رئاسة الوزراء بمثل هذه التحكيمات فيه على ما بلغني الخ .

حزب الكتلة

لما تألف حزب الكتلة الوطنية في هذه الديار وجد له أنصاراً مخلصين يعاونونه على الوصول الى تحقيق غايته السياسية فاستطاع أن يصمد أمام فرنسا مدة انتدابها على سورية ويثابر على مطالبته بالاستقلال . وقيل ان الكتلة كانت تصدع بأمر بريطانيا العظمى وأن الثورة السورية (١٩٢٥ - ١٩٢٦) كانت بصنع الكتلة ومعاضدة بريطانيا العظمى . وكان البريطانيون يطمعون منذ وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها أن يشمل انتدابهم جميع الولايات العربية المسلحة عن أملاك السلطنة العثمانية ، وما كان انتداب فرنسا على سورية ولبنان مما يجاؤ لهم ويطيّب .

وضع السوريون ثقتهم بالكتلة فكانت اذا قالت لهم أضربوا أجابوا نداءها دون أن يسألوا عن السبب ، واذا أرادتهم على الثورة ثاروا سامعين مطيعين ، وإذا فرضت عليهم مالا أعطوها ماسألت . والناس في العادة اذا اعتقدوا شرف دعوة لا يرضون عليها بما يحقق الآمال على شرط أن تكون الرؤوس والأعضاء سليمة . ومن أحق باجابة دعوة من يقول لك اني منقذك من استبداد عشت فيه قروناً لاجعل منك دولة مستقلة نيابية .

وأدركت فرنسا ما يراد بها وبانتدابها وان من مصلحة انكلتوا أن يشغب السوريون عليها فما قصر رجال الانتداب في اضطهاد زعماء الكتلة اعتقازهم وشردهم وفرضوا عليهم الإقامة القسرية وقسوا عليهم قسوة شديدة غضب لها الشعب السوري ، وبقيت الكتلة مع كل ما لقيت ثابتة على دعوتها وقد كسبت عطف الامة عليها . ومضت أعوام في هذه المشادة ما وسع فرنسا بعدها الا ان ترضى عن تقليد الكتلة زمام الحكم وبدأ الضعف في إدارة الكتلة يتجلى شيئاً فشيئاً لما ظهر بعض أفرادها بمظهر ما كان يتوقع منهم . والناس لم يستغربوا هذا التبدل في رجال الكتلة لان الشرق مُمِن بالتحول والتلون .

ولما عاونت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة سورية على نيل استقلالها
خاطبت هاتان الدولتان بالطبع من كان في منصة الحكم من حزب الكتلة فرأيتها
هذه فرصة سانحة لتوهم الاهلين ان الكتلة كانت سبب هذا الاستقلال فانطلقت
أيدي رجالها في الحكم ، وراحوا يخالفون بين أقوالهم وأفعالهم كأنهم
يحاولون ان يتقاضوا ثمن سعيهم المشكور في الوصول الى الاستقلال . وظهر ان
أكثر زعمائهم ما كانوا يهتمون الا لأشخاصهم ثم الهزوء بالأمة وبمطالبها ،
وكان من ينصح لهم باتباع خطة رشيدة يرمونه بالخيانة ، ومن أبدى عدم
رضاه عن « الوضع الحاضر » عدّ في جملة من يفضلون حكم الغريب على
الحكم الوطني . ولقد اتهموا بعض الوطنيين بضروب من التهم كانوا منها
أبرأ من الذئب من دم ابن يعقوب .

ما قبلت الكتلة يوماً أن يقوم في سورية حزب معارض ، هذا وهي
تعرف ان المعارضة واجبة في المجلس النيابية لذلك اضطهدت كل من جسروا ،
على المعارضة بل كل من كانوا على الحياد ، واتخذوا من المعارضين والمحايدين
اعداء لانهم لم يدخلوا في زميرتهم ويكثروا سوادهم . واضطهدت الكتلة
المعارضين وكان فيهم صفوة ابناء الوطن اضطهاداً ليس فيه شيء من الاعتدال .
واطالما اوغزت الى القضاة بالتشديد عليهم في الاحكام فاعتقلت من اعتقلت
واقصت من خدمة الحكومة من اقصت وحرصت كل الحرص على ان تخص
اهل حزبها بالمغانم فاسترسل بعض وؤسائها واتباعهم في ارتكاب ما كان يجب
ان يتصنوا عنه فسهلت بذلك على اللصوص سرقاتهم . واذا سرق الزعماء
فلا ملام على من بعدهم في الدرجات ان يسرقوا ، ويحتجون لتبرير مساوئهم
بما يأتيه كبرائهم

بسوء السياسة تأصلت العداوة الشديدة بين الاحزاب وبين جمهور الأمة
وبعد ان كان اسم الكتلة عطرأً اضحى وفيه تئن مستكره ، والكتلة من
وراء ذلك لا تقفأً تعمد الى الدعايات الواسعة لتخفت اصوات الناقلين
والناقدين وقد تلجأ الى القوة فتضرب وتشرذم وتعتقل وتنتقم وتغلق صحف

المعارضة لتلقي الرهبة في قلوب المحاصرين الذين يعدون الانكار على اغلاق الكتلة فرضاً وطنياً

ولا ينكر على الكتلة تماسكها امام اعدائها حتى تسنى لها ان تحكم هذه الحقبة الطويلة وكان منهجها في حكمها اشبه بمنهج حزب الاتحاد والتوفي في المملكة العثمانية ، وكان على ايدي رجاله انحلال الدولة . قامت الكتلة بالعنف وحكمت بالجبروت شأن حزب الاتحاد ، وكان لسان حالها كل من ليس معنا فهو علينا . وكان الاختلاف أبداً على اشده بينهم ، وخصامهم في الاكثر على الاستئثار بالمنافع ، ورؤسائهم يداوون هذه الخصومات بالمال يعطون كل ملح في تقصد وزارة راتباً يوازي راتب الوزير العامل

كان المخالفون للكتلة ضعافاً بالقياس اليها والسبب في ذلك ان الكتلة سبقت وحدها الى العمل السياسي واحكمت امرها بالحزم فكان ان مرن رجالها على معاناة السياسة أكثر من غيرهم ومن توفيقها ان ضمت اليها اناساً ، من ارباب البيوتات المتعلمين . اما جمهرة القوم فكانوا اذا رأوها قوية ماشوها لاتمام مقاصدها واذا آنسوا منها ضعفاً أعرضوا عنها . ولو كان للمعارضين قوة يعتد بها توازي نصف قوة الكتلة ل طرحوها جانباً واستأثروا دونها بالحكم ، ينقلون الامة من حال فيها بعض الشقاء الى حالة قد يكون فيها شيء من السعادة

وكأني ببعض رجال الكتلة غداً ينزعون ثوبهم القديم الذي اكتسوا به زمناً ويكتسبون ثوباً جديداً يرون من مصلحتهم الخاصة الظهور فيه ويقدمون بسلطة فيمن رفعوهم ونفعوهم ويعودون يمدحون من خلفوهم يصانعونهم كما صانعوا من تقدمهم لا لشيء غير دوام المنعم وهكذا دواليك .

ان حرص الكتلة الوطنية - وقد دعت نفسها مؤخراً بالحزب الوطني - على تولي زمام الحكم كان من اكبر الاسباب الداعية الى انصراف النفوس عنها ولا سيما عندما نظرت الامة الى ما ارتكبت في الانتخابات النيابية الأخيرة بمخالفتها احكام الدستور وهي تدعي انها حاميته والمدافعة عنه

بطل دمشق

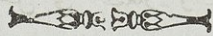
هو الزعيم السيد حسني الزعيم قائد الجيش السوري الذي ثار على الظلم وغضب للحق ، وقضى على من أفسدوا عمود الحكم وما استعان بالاجنبي على تحقيق غرضه الشريف فعده المنقذ الأعظم حقاً وصدقاً .

أزال الزعيم حكومة كانت تحاول أن تعيش الجمهورية بجيش مضيق على ضباطه وجنده ، مُدَّتق عليه في النفقة والسلاح ، وما عهد لأمة تحرص على كرامتها أن تعيش بلا قوة تحميها ، والجيش من أول مظاهر الدولة .

كان شأن الحكومة البائدة اغناء أفراد وافقار الجماعة توهم الشعب أنها تخدمه وهي تضحك منه ، فجاء الزعيم يقطع عليها طريق العسف والاسراف ويفادي بجياته ليحييها ، ويستبين براحته لتتعم وتسلم .

عقدت الايام أن تلد مثل ثورته الحكيمه ولا عجب أن سجل اسمه الكريم في ثبت بناء الممالك وقادة الشعوب .

كانت دمشق مهد المصلحين والمجددين اذا نبغ فيها نابغة في الجندي والادارة انضم الى لواء الدولة القائمة يعاونها على حفظ سلطانها أما الزعيم ابن دمشق الذي أدهش العالم بثورته فقد وثب وثبة جبارة للنهوض بسورية فحق لوالده صديقي الشهيد السعيد العلامة الشيخ رضا الزعيم أن يغتبط في قبره بان أنجب للعرب مثل هذا النجيب .



بيان رئيس

بقى أمر رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مكتوماً إلا عن بعض الخواص مدة رئاسته الأولى ، ولما بدا له أن يجدد رئاسته ليستمتع بالحكم خمس سنين أخرى ، مع ان الدستور حدد الرئاسة بخمس سنين فقط لا يجوز لرئيس ان يتولاها مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر - لما تذرع بذلك كان منه ان حث بيمينه الذي أقسمه يوم رئاسته الأولى وهو المحافظة على الدستور .

وراح الرئيس يعمد الى انتخاب بعض النواب من حزبه بالضغط والتزوير واذ تعذر عليه أن ينال أكثرية الأصوات ابتاع فيما قيل اصوات بعض النواب ومع هذا لم يتبها له الاجماع لاستنكاف حزب المعارضة من انتخابه . وعاد الى ما كان جرى عليه من العطف على زعانف الأحياء ، ومزيتهم عنده انهم يتسلطون على الأهلين يوم الانتخابات ويخدمونه بما يشاء ، ولذلك فتح لهم الأبواب الرسمية يدخلونها بلا استئذان وهو يبالغ في اغداق العطايا عليهم ويخصم بالامتيازات والاعفاءات ، ويجعل منهم عشراء وأولياءه ، ووقع له أن سعى لانتخاب أحد أصحابه نائباً مشهوراً بطول اللسان ، وقال انا ما اخترناه لهذه المهمة الا ليسب غداً من يخالفون رأينا في المجلس ! وافرط في توظيف أهله وأنصاره ومنهم الأمي العامي ومنهم من كان يقبض عدة رواتب من بضعة دواوين وليس له عمل ، أفرط في ذلك حتى خيل للأهلين ان سورية اقطاع له ولمن يجب .

واذ اعتاد الرئيس التدخل في الصغير والكبير من شؤون الحكومة بما لا تتطلبه رئاسته كان من لهم شيء من عزة النفس من وزرائه يتأفقون من تحكيمه ومقترحاته ، أما المنافقون منهم وهو يفرضهم على كل وزارة فكان يسكت عن مساويهم كأنه شريكهم ، حتى عمت الرشوة وسادت الفوضى .

كان الرئيس يعبث بالقضاء فمن يحكم له من القضاة بما يروقه يرقيه ويرفع مقامه ومن يجري مع القانون يوجّه وقد ينحيه او يحول دون ترقيته . فقد حكم على احد ارباب الصحف باهانة الرئيس ولما لم يحكم القاضي النزيه بالقانون العثماني اي لم يقس القذف في الرئيس على القذف بالملك ، ولم يعتبر رئيس الجمهورية ملكاً اقصاه ونبذته ، اما الذي تفوه بما يسقط من قدر الرئيس وحكم القاضي عليه حكماً جائراً فأعلى الرئيس مرتبته وارضاه . وله أشياء من هذا القبيل لا يليق صدورها من المهيمن الأول على القانون فقد اختلف مع بعض جيرانه على حدود ارض فاضطر الموظف المختص ان يرضيه بالباطل ومستندات خصومه شاهدة ان لهم الحق دونه ، واكره وزارة الاشغال ان تفتح طريقاً ليتصل من مزرعته بأرض له بعيدة وهي سبخة ونزرة لا تصلح للزرع فاستنزم قطع اشجار مشرة من جانبي الطريق ، وكذلك الزمها بفتح طريق بيت امه فأنفقت في ذلك نفقات باهظة كانت طرق اخرى أحق بهذه العناية . ومنها انه كان يستعمل بضع سيارات على حساب الحكومة يخص بعضها بركوبه وأخرى بحرمه وبعضها لأولاده وبعضها لبناته وسيارتين لصهره . ومنها اعطاؤه لأحد شعراء المهجر خمسة عشر الف ليرة سورية وانفق عليه ما يقرب منها مدة اقامته في عاصمة الجمهورية ، وأعطى عشرات الألوف من الليرات لمن مدحوه او كتبوا رسالة او كتاباً باسمه ومن تغنوا بحامده فيما كتبوا من كتب اغناهم . وكان يعطي بعض الصحفيين بلا حساب لأنهم رضوا ان يكونوا ابواقاً لتمجيد سياسته ، ومن غلط غلطة واحدة من ارباب الصحافة اوعز الى المحاكم ان تشدد عقوبته وتغرمه الغرامات الثقيلة . وكان يصرف جانباً من اوقاته في مثل هذه المسائل .

ولما كان من طبعه حماية اهل الطبقات النازلة لم يجوز ازعاج من كان يشملهم بلطفه وعطفه ولو كانوا من الجناة الأشقياء ومنهم احد المفاتي في قضاء ثبت انه لص كبير وجان تعددت جنائياته بتحقيق قاضيين نزيهين فلم يرض ان ينحيه لأنه كان ينادي يوم الجمعة من أعلى المنبر : اللهم انصر

أمير المؤمنين شكري القوتلي وكان هذا الخطيب يدعو بمثل هذا الدعاء البارد على عهد الانتداب الافرنسي فيقول : اللهم انصر فرنسا وجيوشها . ولعل هذا المفتي السخيف كان ممن يمهّد للسيد القوتلي دعوى امارة المؤمنين . ويتلخص ما اتاه الرئيس من الاعمال النابية عن القوانين في المواد التالية :

- (١) العيث بالدستور وقد اقسام ان يحافظ عليه
- (٢) انتخاب نواب حزبه بالتزيف والضغط
- (٣) افساد بعض النواب ليمّ الاجماع على انتخابه
- (٤) اعتماده على ارباب الدعارة واعطاؤهم الأموال والسكر والارز والحنطة والبتورول والمازوت من مال الدولة بمقادير عظيمة جداً حتى اغتنى أكثرهم
- (٥) افساد طلبة المدارس باعطائهم رواتب من الدواوين وهم لم يتسوا دروسهم ولم يوظفوا على الاصول

- (٦) استهزأوه بنصح العقلاء من الوطنيين وثقته العمياء بالجهلاء
- (٧) اسرافه البالغ باموال الجمهورية وحمله البرلمان على اعتماد أموال عظيمة لم يعلم محل صرفها
- (٨) ادخاله في خدمة الحكومة الافاقين والامين من أسرته وانصاره ومنهم من كان يعطيهم عدة رواتب وكذلك يعطي بعض الوزراء الراضي عنهم تعويضات باهظة

- (٩) اخذه بيد شاب من النواب حتى ألف حزباً خطراً من برنامجة القيام بثورة وقد اعد لها عدتها بالفعل
- (١٠) لم يحقق مدة حكمه شيئاً يعتد به من اعمال الاصلاح على كثرة مادخل خزانة الامة من الاموال الجسيمة

وكان على الرئيس وهو يعرف انه مصاب بمرض عضال ، ان يتنحى عن الرئاسة من تلقاء نفسه فالمرريض يحتاج الى من يدبره ولايرجى منه ان يدبر مملكة .

كان الرئيس قبل رياسة الجمهورية يتكرم من ماله فيحمد او يذم فلما

ثولى الرئاسة غرف فى الجود من مال الامة فتبرمت باسراقة
كان الرئيس ثورياً يحب الثورات ويمتدح الثائرين ويبالغ فى اكرامهم
وشاء القدر ان يصرف بثورة ، وماظلمه احد بل هو الذى ظلم نفسه باهماله
ماعهد الى امانته

كان خروجه على القوازين بادياً لكل ذى بصيرة حتى خيل لنا انا عدنا
الى العصر التركي ايام كان الوالى يحكم بلا محاسب ولا مراقب . وأصبح الحكم
الجمهورى الذى يراد به رفع تسلط الافراد حكم الهوى لاحكم القانون .
الشكل دستورى مدنى والفعل استبدادى عامى

ولطالما نصح له العقلاء ومنهم من كتب له التقارير فى بيان طرق الاصلاح
وجاءته عدة وفود تصارحه فى سوء مغبة السياسة المتبعة فى الادارة فكان
يوئله ان يسمع ما يخالف اغراضه ويقلب الحديث من جد الى هزل ، وقد
يبتم ويسكت ويتأفف من مخاطبه ويتجههم له ويود لو عجل الانصراف
من حضرته .

كان رئيس الجمهورية الثالث ضعيفاً فى ارادته ، قوياً فى حزبيته ، مسرفاً
بماله ومال غيره ، حريصاً على تحقيق رغائبه الخاصة ، اخطأ طريق المجد
وما عرف اختيار الأسباب التى تعين عليه . ومن الانصاف ان يقال ان له
فضلاً على القضية الوطنية ، وقد ثبت انه فى الامور السلبية اقدر منه فى الامور
الانشائية الايجابية



فاجعة فلسطين

من نحو جيلين واليهود المشورون في اوربا واميركا يحملون بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين (راجع الفصل الذي كتبه في الصهيونية الاستاذ عمر الصالح البرغوثي في الجزء السادس من كتابنا خطط الشام) ، وقد اتخذوا لذلك عامة الذرائع ، وهان على كل يهودي في الأرض أن يبذل النفس والنفس في تحقيق هذه الأمنية ، وتوفر اليهود على احياء اللغة العبرية وكانت نسيت الا من كتب صلواتهم ومن ألسن رجال الدين عندهم ومالبثوا أن أصبحوا يتكلمون بها في بيوتهم وكانوا من قبل يتكلمون معظم لغات العالم الا لغة دينهم هذه ، أحيوا لغتهم بعد موتها وكانت كالسريانية والقبطية تعد من اللغات الممته . والى هذا جدوا في تلقين الآداب على ما يضمن تكوين دولتهم الجديدة .

وفي الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) خدم اليهود دولة بريطانيا العظمى خدماً عظيمة فوعدهم ان هي خرجت ظافرة من حربها ان تعاونهم على تحقيق آمالهم في تأسيس دولة لهم في فلسطين وبعد ذلك أقبلوا يهاجرون إليها من انحاء العالم وزادت هجرتهم منذ تم الانتداب لانكلترا على فلسطين وكانوا شرعوا قبل الحرب الأولى بابتياح الارض بالثمن الفاحش من ابنائها العرب يستعمرونها احسن استعمار وأغدقت جمعياتهم واغنياؤهم في الغرب الاموال العظيمة على فلسطين حتى عمر اليهود كل ما وضعوا أيديهم عليه من مزارع وأنشأوا المعامل والمدارس وأقاموا المصانع وشادوا القصور والحصون . وكانت حماية انكلترا للصهيونيين ظاهرة ومع هذا ما رضيت عنها بعض أحزابهم ومنهم من كانوا يتربصون بحماية الانكليز الدوائر ، وما ذلت بريطانيا في الشرق كما ذلت في فلسطين ، فكان رجالها يقتلون وتضطر الى مصانعة اليهود والتغاضي طوعاً أو كرهاً عن جنباياتهم حتى

لا يفسدوا عليها يهود الولايات المتحدة وهي في الحرب والسلم محتاجة الى صداقة اميركا ، وما ان اعلنت انكلترا انتهاء انتدابها على فلسطين حتى زادت الحال شدة على العرب ، وكانت انكلترا تجور عليهم في جميع الثورات التي قامت وتراعي اليهود مراعاة لا تقبل الانكار . ولما تمت معدات الصهيونيين الحربية وحن وقت رفع العلم الصهيوني على أرض الميعاد بصورة رسمية أبدى اليهود للعرب نواجد الشر اكثر من ذي قبل فكانت حرب العصابات ثم الحرب النظامية كالتي تنشب بين دولة ودولة ، وكان العرب الى العهد الأخير يعرفون ما هم قادمون عليه ولا يستطيعون ان يتذرعوا بما ينقذهم خوفاً من الانكليز ، وهم كانوا في كل فتنة اشتعلت بين العرب واليهود الى جانب هؤلاء كأن بريطانيا العظمى دولة يهودية لحماً ودماً ودينياً ومدنية .

وبعد الحرب العالمية الاخيرة او عزت انكلترا الى بعض رجال السياسة من العرب في العراق ومصر ان يتقدموا الى الحكومات العربية السبع (مصر والعراق والمملكة السعودية واليمن وشرقي الاردن وسورية ولبنان) بتأليف جامعة عربية ففرح العرب وظنوا ان باطن ساسة القوم كظاهرهم . وكان العرب لسلامة صدورهم او لأنهم مبتدئون بالسياسة يظنون ان الحرب الأخيرة علمت البريطانيين ان يعدلوا سياستهم في الشرق وقد عزموا ان ينظروا في خير العرب ، وما غايتهم في الواقع الا ان يجعلوا منهم في غربي آسيا قوة تعضدهم امام قوى اعدائهم ويستندون اليها في حال وقوع حرب مع روسيا أو غيرها . ولما نشبت الحرب الفلسطينية واشتركت فيها بالفعل خمس دول عربية مصر وسورية والعراق ولبنان وشرقي الاردن ، بقيت المملكة العربية السعودية والمملكة اليابانية بمعزل ، وكانت مصر وسورية من أهم الحكومات تأدياً بالحرب وخصوصاً سورية فانها هبت لجهاد الصهيونيين اول الدول العربية وقبل ان تتم استعداداتها تحذوها حماسة المتحمسين من اهلها . اما سائر الدول فمنها من اخذ يساوم ليضيف جزءاً من فلسطين العربية الى مملكته كالملك عبد الله ابن الحسين صاحب شرقي الاردن وشغلت اليمن بنفسها وثورتها وابن سعود

شرح بانه لايسير على مايريد ملوك العرب لانه اعرف بما يصلح مملكته ، والحقيقة انه خاف غضب الولايات المتحدة وهي صاحبة شركة البترول في مملكته التي تدر عليه ملايين من الليرات الذهبية كل سنة . وكان العراقيون جد أوفياء للوطن العربي الاكبر وما ابدوه من معاونة القضية العربية منذ كان لهم جيش وسلطان مما ترتفع به الرؤوس

وقدر الله ونزلت الكوارث بالجيش المصري والسوري وثبت انه كان في صفوف الصهيونيين قواد من الروس وكانت تشيكوسلوفاكيا الشيوعية تمد الصهيونيين بالسلاح مدفوعة بأيدٍ روسية وعاونت الولايات المتحدة الصهيونيين جهرة وكان الانكليز على عادتهم يراوغون وضلعهم مع الاميركان وما كان لهذه الخفنة من الجيوش العربية ان تغلب جيشاً مستميتاً في سبيل دعوته تعاضده دول كبرى ، فمصر والشام والعراق لم يحاربها الجيش الصهيوني فقط بل حاربتها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وروسيا اكبر دول الأرض الحربية اليوم ، ولكل من هذه الدول مآرب تحاول تحقيقها على حساب فلسطين ، فالانكليز السكسونيون يدعون انهم يحرصون على حماية بلادهم من الشيوعية عدوة الديمقراطية ، وروسيا اذا كتب لها التدخل في فلسطين كما تشتهي تخرج الى البحر المتوسط بأساطيلها وهذه أمنيتها منذ القديم ، وجعلت الدول الكبرى من العرب آلة لقضاء غاياتها لما خصت به بلادهم من مركز ممتاز بين آسيا وافريقية واوروبا .

وصل الصهيونيون لما سعوا اليه سنين وهو تقسيم فلسطين استأثروا بالساحل العامر وقذفوا بالعرب الى الداخل واكثره غامر وذلك على صورة مضحكة لم تعهد في أرض متوحدة الأجزاء متشابكة السكان ان قسمت على هذا الوجه الخزي ، هكذا اراد احباب اليهود ان ينيلوهم رغباتهم وضحكوا من العرب ودول العرب ، وختمت هذه المأساة التي بكى لها كل عربي وكل مسلم في الارض بما اورث الحضارة الحديثة العار الأبدي ، نزعوا من المالك ملكه واعطوه ظلاماً لمن أحبوا استمالته ، ومن اشق ما صدع

قلوب العرب ان أصبحت الدولة الجديدة فاصلة بين الأقطار العربية في افريقية واقطارهم في آسيا .

قلنا ان بريطانيا العظمى ذلت امام الصهيونيين لأن سياستها اقتضتها مصانعهم حتى تبقى الولايات المتحدة حليفها ولا يدس اليهود دسائس تحل رابطة الدولتين البريطانية والاميركية ، واي ذل لبريطانيا افطع من ان يقتل رجالها ولا تستطيع ان تضرب على ايدي الارهابيين من اليهود ، وكانت الدول حامية الصهيونية خلال الحرب الفلسطينية الأخيرة اذا ايقنت ان بعض دول العرب في ساحات الوغى كادت تظفر يشيرون الى جيوشها بالارتداد الى الوراء مهدين ، وما ذكر التاريخ حرباً مضحكة كهذه الحرب . وزاد في هذه المهزلة تفاشل العرب في الآخر لأن صاحب شرقي الاردن يحلم بتوسيع ملكه من ارض فلسطين وسورية ، ورئيس جمهورية سورية يحاذر ان تنحل جمهوريته وتتألف سورية الكبرى ، وصاحب الحجاز ونجد يخاف على توتر العلائق بينه وبين انكلترا واميركا ، ويخشى اذا صمد مع الحكومات العربية ان تفوته فوائد مالية كبيرة .

نكتب هذا وفلسطين البائسة لاتزال بين خفض ورفع وحرب وهدنة وسكان فلسطين من العرب الذين سموهم باللاجئين وهم يزيدون على ثمانمائة الف يهيمون على وجوههم في فلسطين وسورية وشرقي الاردن والعراق ومصر غادروا ديارهم بعيالهم لما نالهم من ظلم اليهود

فرح بعض ضعاف العقول من أهل فلسطين لما اخذ الصهيونيون يبتاعون من الوطنيين الأرض بالأثمان الفاحشة وظنوا ذلك مغنياً لهم لم يفز بمثله آباؤهم ولا اجدادهم وقال بعض المتشدين ان الحالة الاقتصادية تحسنت جداً في فلسطين بما دخلها من اموال الصهيونيين وقدروها بمئة مليون جنيه بيد ان كثيرين ممن باعوا تراث اجدادهم وموهوا على انفسهم بأنهم غنموا مغنياً لم يكتب لهم مثله وكان من نساء اليهود أن استعدن منهم ما كانوا قبضوه قيمة اراضيهم بطرق ذنيئة كتبت كثيراً عن خطر الصهيونية في جريدة المقتبس ثم في كتابي خطط

الشام منذ نحو أربعين سنة وعاونني أربعة اصدقاء من أرباب التفكير
السليم نلقت الأنظار الى مايتوقع من خطرهما . اثنان من فلسطين وهما
الاستاذان عبدالله مخلص وعمر الصالح البرغوثي وواحد من لبنان وهو
الاستاذ نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل في حيفا والرابع دمشقي
وهو الاستاذ شكري العسلي وكان قائم مقام الناصرة ثم نائب دمشق في
مجلس النواب العثماني وكلهم لم يدخروا جهداً في بيان ماسينال فلسطين
من الغبن العظيم اذا امتدت الدعوة الصهيونية
اما اليهود فقد تحققت احلامهم القديمة بذكائهم وماهم ومفاداتهم ثم بمعاونة
دول الغرب لهم « سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء »

عدم التوفيق

ثبت أن الرئيس السيد شكري القوتلي لم ينفع مدة رئاسته الانفسه
ومن اصطفاهم ، وكان السواد الاعظم من الشعب غاضباً على طريقته في
الحكم ، وعلى صم أذنه عن سماع الحق ، وعلى سخريته ممن أجلسوه في مقام
كان عليه أن يقوم حق القيام بما يجب عليه له .
كان هذا الرئيس كثيراً ما يعتب عليّ لقلة اختلافي الى مجلسه وعدم
المبادرة لاجابة دعواته الى مادبه الرسمية فكنت أعتذر بصحتي وضيق وقتي
وان اجتماعي بمن لا أحبه ولا يحبني قد يضر بصفتي وينغص المدعون ، وقلبي
يحدثني ، لكثرة ما تواتر عنه من الهزوء بما لا يوافق اغراضه من النصائح ،
ان كل من لم يمدحه هو في نظره عدو حكمه ، وكل من ينصحه يكرهه
ويحقد عليه .

وغالطت نفسي مرتين وعرضت عليه اقتراحين نافعين أحدهما خرق
الطريق الضيق الموصل بين باب البريد الى المدرسة العادلية مقر الجمع
العلمي العربي والى المدرسة الظاهرية وفيها دار الكتب الكبرى ، والى

ضريح صلاح الدين وأخيه العادل والملك الظاهر . والاقتراح الثاني تفريغ ما حول العادلية والظاهرية من الاكواخ والمساكن لأن الخطر محقق بها ولا سيما بدار الكتب لمجاورة الحمام والقمين والفرن فاعتذر عن الاول بالحرب وضيق البيوت على السكان . وكان الاعتماد اللازم لفتح هذا الطريق مثبتاً في موازنة البلدية لذاك العام - ووعد بانفاذ المشروع بعد الحرب وما عاود الكلام فيه ، وكان الوعد بالاقتراح الثاني أن يباشر به في أقرب فرصة فما صدق بوعده ولا بر . وظلت هذه المصانع العظيمة وسط أزقة ضيقة حقيرة قدرة لا تنفذ اليها الشمس ولا الهواء ولا تتسع للمارة فضلاً عن السيارات والمركبات . وقديماً كانت تلك المحلة أشرف حي في دمشق لجوارها الجامع الأموي وكانت في القرون الأولى للإسلام منازل الصحابة والتابعين ورجال بني أمية ومن جاء بعدهم من العطاء والعلماء .

ما اهتم الرئيس لكل هذا والحريق يهدد مدرستين هما من أجل ما شاد الفاتحون من ملوكنا ، وأهمه فتح شارع باسمه في غربي المدينة ونسي أن المنافقين من اتباع السلاطين كثيراً ما فتحو الملوكهم شوارع وبنوا باسمهم المصانع فما ان مات اولئك الملوك او تنازلوا عن الحكم حتى كان الاعفاء نصيب ما بنوا . وكان على الرئيس ان يعتبر بسلفه المتأخر السيد تاج الدين الحسيني وما كان من حرصه على تخليد اسمه . حفره على ما شيد ايام ولايته من جوامع ومدارس ومخافر ودور حكومة فلما جاءت الكتلة الوطنية وعلى رأسها عميدها السيد القوتلي نفسه ازال كل ما زبر على الحجر وكتب في الجدران فذهب تعب الحسيني عبثاً كان يتعذر عليك ان تزين لهذا الرئيس عملاً لا يكون له منه منفعة ولو كانت عنايته بالعموميات اكثر من الخصوصيات لخلد اسمه بما تم على يده للخير العام اكثر من شارع يزال اسمه عنه بقرار من المجلس البلدي . ولما كان من هذين المقترحين فوائد عامة منها دخول ذلك الحي ، وهو سرّة المدينة ، في طور العمران الحديث . ولاتصل هذا الحي من الشمال بجادة الترام التي تربط شرق دمشق بغربها ولاستعداد تلك المصانع

الفريدة بهجتها الأولى ولربحت مدينة دمشق وبلديتها ربحاً عظيماً ولاستفادت
اليد العاملة فائدة تخفف وطأة الأزمة . ولكن من حرم التوفيق لاسبيل
لك ان تحمله على سلوك سبل الخير ولو أوتيت بلاغة سحبان

الديبة دؤوبية

ولدت السيدة وداد السكاكيني في بيروت وتثقت فيها الثقافة الاولى ثم انتقلت
الى دمشق بحكم اقترانها بالكتور زكي المحاسني الشاعر الأديب وانصرفت
الى التأليف والكتابة فاشتهرت في مصر والشام بما انتجت من كتب ادبية
وقصص ومقالات واحاديث فيها روح الجديد يمازجه شيء من القديم ، وكان
اعتمادها في ثقافتها على نفسها في الأكثر فجاء منها ما قلما يجيء من كثير
من حاملات الشهادات العالية وذلك بفضل دؤوبها وبما انتجت اثبتت ان
الشهادات شيء ولكنها ليست كل شيء وان المرأة الشامية اذا تساوت وسأطها
والمرأة المصرية ، فاقت الاولى بثباتها وصبرها وهذا سر اشتهار « مي » من
السوريات المتمصرات . ولولا غضب المصريات عليّ لصرحت باكثر من
هذا . وقد قلت غير مرة ان ما صرف في مصر على التعليم كانت ثمراته
اقل من نفقاته بكثير ولو وحّد التعليم في الديار الشامية لكان فيها للعلم
اروج سوق ولأخصبت العقول أكثر ما اخصبت في مصر .



ملوك العرب

دخل التجدد في دول العالم وتبدلت على الزمن أوضاعها وادارتها وانظمتها يأخذ التالي عن الأول . اما دول العرب وفي الجزيرة خاصة فلم تتأثر بشيء مما سمعت عن الغرب وظنت المحافظة على القديم هو القوة وفي جبل رعاياها كل السلامة لها ، ولاينجيا وينجي ملوكها الا الضغط على الرعية واستعبادهم وقد يفيدها بؤسهم أكثر من سعادتهم ، وباطالة أمد جبالتهم يضلون طريق نجاة يخرجون منها الى اكراه الملوك على التخفيف من استبدادهم وانا لنشهد ان قد آن ملوك الجزيرة - وكل عربي يجب لهم ولبلادهم السعادة - ان يدرکوا حاجة شعوبهم الى التجدد ويبدلوا اساليب الحكم القديم بالنظم الجديدة المستمدة من روح القوانين الاوربية ابنة الدرس العميق والتجارب الحكيمة ، والدواعي والبواعث تدعو الى الأخذ منها . نحن على يقين ان ملوك العرب منذ مئات من السنين لم يدخلوا على شعوبهم ما يصلح ان يطلق عليه اسم التجدد وكل ما عندهم من العتيق البالي ، هم لم يجددوا في لباسهم ولا فرشهم ولا مساكنهم ولا لهجاتهم ولا عاداتهم وهم الى الآن صورة مما كان عليه اجدادهم واجداد اجدادهم الى ابعد حدود التاريخ ، العالم يتحرك ويتحرر والعرب وقوف مستعبدون . وقصارى ملوكهم ان تجبي الجبايات من الرعايا فينفق اكثرها في البذخ والابهة ولا يحسب للمستقبل حسابه ، ولا ينال ملكهم غير قسط ضئيل من هذه الأموال ولا يصرف شيء على انشاء مدارس ومستشفيات ولا على تعبيد طرق واصلاح ري ولا على غير ذلك من اوليات المسائل في قيام الممالك ، فالبلاد ينقصها كل شيء ، حتى لقد قال احد الاميركان انه ليس في كل ارض نجد على طولها وعرضها سوى صيدلية واحدة وليس فيها كل العقاقير . ان الحسنات التي تحققنا وجودها في نجد والحجاز بفضل ملكها ، ولطالما

ذكرناها لارباب الرحلات من الغربيين مفاخرين - لا تكفي وحدها في انهاض تلك الديار من كبوتها . ان تطبيق مفاصل الشريعة الاسلامية ولا سيما في العقوبات انتج انتشار الأمن والسلام في المملكة العربية السعودية بما لم تطمع باكثر منه بممالك الحضارة الحديثة . ان انشاء الهجرات وانقطاع سكان البوادي الى زراعتهم وابطال الغزو والغارات وانشاء ادارة صحية منظمة في البلدين الطاهرين ، كل ذلك حسن ونافع وهناك امور تنقص وفيها سعادة الشعب وفتح باب لارتقاه واخراجه من انتظار الصدقات او آخر الشهر لقبض رواتب الدولة

ويبلغنا اليوم من حالة الحجاز ما يرمض النفوس يتراعى اليها ان الشعب جائع عريان ولا من يفكر في فتح ابواب الكسب له وهذه الحالة مطردة منذ سنين . نعم ان الدولة لاتستطيع على الدوام ان ترزق رعاياها كما ان الملك لا يهدأ له بال اذا كان من وكل اليه امر دنياهم في شقاء وهو وحده ينعم بخيرات البلاد ، ويوم تصح النية على البداءة بمشاريع جديدة ويرزق منها العملة والمرتقة وغيرهم تتحسن حالة السكان كما حسنت حال الحكومة باستثمار الذهب والبتترول ، ان انتظام الحالة الاقتصادية بتساوي الراعي والرعية في المنافع ، فالاسراف ما حمد يوماً من الأيام ومن يعمد اليه ملكاً كان أو سوقة فصيره الخراب . المال اليوم موجود في ارض ملك العرب والضرورة حافزة والبدء بالأعمال المشمرة متمم وصاحب هذا الملك يعرف وجوه الصرف والاقتصاد . وقد رأى في مصر يوم ان وافاها زائراً من ضروب الرقي الذي خلت منه مملكته ما يدعو الى العجب . ولا يفوت الملك العاقل ان في اليوم الذي قام محمد علي الكبير باصلاحاته في مصر كانت الحجاز ونجد على ما يقرب من نسبتها في الارتقاء ، وفعل الزمان فعله وانتقلت مصر من حسن الى أحسن حتى بلغت ما بلغت من العظمة ، والفضل للبادئ بالخير ابدأ .

لو كنت ملكاً لا قدر الله لعددت من الخونة لي ولأمتي كل من لا يصدقوني عما يجب القيام به من الاصلاح ، ولطردت من خدمتي كل من

يحسن لي القبيح ويقبح لي الحسن ، ولأبعدت عن بلدي كل مداهن يعيش
بأكل مالي ومال رعيتي ويجمع ثروة عظيمة في غفلة الدهر ، ولرددت كل
ما في وسعي ان ارده من المال على اعمال ترفع مستوى العيش في رعيتي .
فقد قال احد كتاب فرنسا ان صناعة الملوكة فقدت كل لذة وسلبت من
الملك الحديث جميع امتيازاته الملكية القديمة فليس له ان يأخذ من مال
الحزينة ما يشاء ولا ان يفضل على وصفاته على حساب الدولة ولا ان
يسرف في اهوائه وشهواته ويبنى القصور وعليه ان يظهر في مظهر وطني
مقتصد وان يكون اباً صالحاً وزوجاً صالحاً وان يتحلى بالفضائل الطيبة
كأنه احد افراد الطبقة الوسطى والا عرض نفسه للهلاك اه .
نحن لا نخط هنا خطة لصاحب نجد والحجاز يصل بها الى سبل الاصلاح
ولا نقول بالوثبة المعجلة بل نعرض ما نراه في نظرننا صالحاً لملوك العرب
وجزيرة العرب .

العلامة كرينكو

كرينكو عالم مستعرب اصله من شمالي جرمانيا اسمى نفسه في الشرق
« سالم الكرينكوي » هاجر الى انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية واتقن
من اللغات الاوربية ازيد من اربع عشرة لغة يتكلم بها ، وتعلم العربية والفارسية
والاردية بنفسه من دون معلم وهذه اللغات الثلاث يكتبها ولا يتكلمها ،
ويكتب بالعربية كتابة المؤلفين من العرب وهو شاعر بالالمانية لغته
الأصلية . وقد نشر بالعربية عشرات من كتب علماء العرب وعلق عليها
وخدمها بما يجدم اعظم علماء المشرقيات كتب اسلافنا .
أعجبت بدؤوبه منذ عرفته ونوهت به بالمناسبات وكان آخرها في
محاضرة القيتها في جامعة فاروق الأول بالاسكندرية في فضل المستعربين
من الغربيين على لغتنا وتوسعت فيها بذكر ما نشر العلامة كرينكو من

الكتب وعرضت لآرائه ومذهبه فبعث يقول انه لا يستحق هذا التنويه وأنا اعتقد انه اهل لاكثر منه وما قلت الا أقل ما يقال شهد الله . قال اشكرك من صميم قلبي على حسن ظنك بي وان كنت غير مستحق لكل ما قلت في . اني من نحو ثلاثين سنة اعمل خادماً للعلوم الاسلامية والشكر اولاً لاصدقائي في حيدر آباد الدكن لمعاونتي على القيام بهذا العمل فطبعوا لي في مطبعة « دائرة المعارف » الكتب التي كنت اعتقدها مهمة للنشر الخ . ان عناية السيد كرينكو بتأليف اجدادنا قد زاد في خزانتنا العربية عدد الامهات المطبوعة من تراثهم الثمين ، ففضله حيي بعض ما كان ينسى أو يضيع من ثروتنا العلمية . وكان على علماء العرب ومنهم شيوخ الازهر ان يتولوا من علومنا ما تولاه السيد الاعجمي منها ، وهم لو ساروا على طريقته ما بقي كتاب مهم للقدماء مطروحاً في زوايا الخزائن معرضاً للحريق والتمزيق ، كانوا هم اولى ان يتقدموا فيجبوا تفسير ابن خالويه لثلاثين سورة من الكتاب العزيز ، ولكن شيوخ المسلمين في مصر والشام والعراق وتونس ومراكش يتدافعون على المظاهر والمناصب والحياة عندهم مشاهرات ورتب وأوسمة الا من رحم ربك .

الاستاذ كرينكو بحسب العرف غريب عنا ولكنه في الواقع قريب من قلوبنا لعطفه على ادبنا وتاريخنا وديننا بلا غرض الا خدمة العلم المجرد ، والعجيب في امره انه لم يتقيد بأحد فلا ينتمي الى جماعة ولا الى جمعية ولا الى جماعة وما عرف الا الاعتماد على نفسه والولوع بخدمة غرضه الشريف . ومن أراد برهاناً آخر على غيرته على مدينتنا فليرجع الى ما حلل به جيد مجلة المجمع العلمي العربي من المقالات والابحاث والانتقادات خدمة للاسلام والعرب .

فرجل هذا شأنه اما هو حري بأن نشكره على بيض ايديه علينا وعلى ادبنا ومدينتنا وخصوصاً اذا نظرنا يميناً وشمالاً ولم نجد من يعشره من المعاصرين اصحاب هذا اللسان وهذا الدين ونحن لم نر من اكثرهم غير

الدعوى العريضة ، واذا وقع التنظير بين علماء الغرب وعلماء الشرق تظهر الفروق بين العقول .

ذكرت بعض صحف الغرب ان اندريه موروا من أعظم كتّاب فرنسا وعلمائها القى بأخرة في اميركا اربعاً وثلاثين محاضرة خلال اربعين يوماً . ومحاضرة يلقيها مثل هذا النابغة لا بد ان يكون فيها شيء جديد وكثير من التحقيق الذي لا يصل اليه المحاضر العادي ، اليس من العار ان يموت العالم عندنا ولم تؤثر له محاضرة واحدة خلال عمره الطويل ؟ وهذا هو الفرق الطفيف بيننا وبين أهل الغرب !

غلو التمر قبيل

يفحش الشرقي في الغلو بالدقيق والجليل من شؤونه الدنيوية والأخروية فقد بالغ في تصوير الامور الروحية حتى صار كثير من الغوغاء يؤهون الخلوقات ويسجدون للجهادات ويثبتون لمن يحترمون من الآدميين من ضروب الصفات ما تضل في تكييفه العقول .

الشرقي يببالغ اذا وصف أحداً بالعفة والسخاء والشجاعة والمروءة وفي دواوين الشعر وكتب المحاضرات أمثلة كثيرة من ذلك . وأمة تقول « أعذب شعر أكذبه وأشعر الناس من استجيد كذبه » لا تتخرج من الغلو والمبالغة ، هي اذا عدت وقاست نسيت الحساب والمساحة واذا قدرت أوغلت في الخيال وخرجت عن طور المحسوسات وتناست التدقيق فكالتك أو وزنتك بالألوف وربما كانت الحقيقة في العشرات .

يبالغون في قوة الدول وأموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وثروة الاغنياء الموسرين يتوغلون في العدد ويتجاوزون حدود العوائد ويطاوعون وساوس الاغراب كما قال ابن خلدون فاذا استكشفت أصحاب

الدواوين عن عساكرهم، واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم، واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم، لم تجد معشار ما يعدونه، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة، ولا يرجعها إلى بحث وتفنيش، فيرسل عنانه، ويسيم في مراتع الكذب لسانه، ويتخذ آيات الله هزواً، ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة .

ترى كثيرين حتى من خاصتنا إذا سألتهم عن الثروة لا يسعك إلا أن تقف شاخصاً تستعيد بالله من غلو المشاركة وتجويزهم الكذب وضعف استقراءهم واستنتاجهم وغفلتهم عن القياس والمقارنة . قف واسأل الله السلامة وهم يصورون لك صاحب المئة من أصحاب الألوفاً وصاحب الألف من أصحاب مئات الألوفاً .

وقد كان بعض الظرفاء يقول إذا ذكرت أموال صاحب الثروة في الشرق وقدر ما تملك يمينه فاحذف صفرين من بين الأرقام، فإذا قالوا لك إن فلاناً يملك عشرة آلاف فاعرف أنه يملك مئة وإذا قيل لك يملك مئة ألف فاعرف أنه يملك عشرة آلاف وهكذا افرض أقل تعديل لعلك تسقط على الحقيقة . وكان يقول إذا لم تصدق فاسأل العادين ممن يقدرون ثروات الأفراد إلى آخر درهم بما عندهم، على حين أنك لو سألت أصحابها عما يملكون ما عرفوا أن يقدروا لك إلا بالتخمين والتقريب .

هذه زبدة ما كتبت في مجلة المقتبس (جمادى الأولى ١٣٢٥) ومثلت يومئذ بجادئين جرى أحدهما في مصر والآخر في دمشق وفي الأول قدرت إحدى الصحف المصرية ما حشدته الدولة العثمانية يوم اختلافها مع بريطانيا العظمى على الحدود المصرية الشامية بثمناثة ألف جندي ولما قيل لها من الغدان هذا العدد مبالغ فيه جداً قالت إنه زاد صفر في العدد بالغلط فكان العدد الحقيقي ثمانين ألفاً . وبعد التحقيق تبين أن ما كان جمع هناك من الجند

لم يتجاوز الألفين . والحادث الثاني مات أحد المعمرين فقال الناعي انه مات
عن خمس وثلاثين سنة بعد المئة وأنه خلف خمسمائة نفس ذكوراً واناثاً
وبعد التحقيق تبين أن عمره لم يتجاوز المئة وأن أبناءه وأبناء أبنائه هم
دون الخمسين .

وفي هذه الأيام غلا الناس في تقدير الثروات على العادة لأن التجار رحلوا
في الحرب الأخيرة أرباحاً عظيمة فأتسعت ثرواتهم وكثرت معاملاتهم ومنهم
من بنوا القصور والمصانع ، وبما سمعته واستغربته أن أحد خونة وزراء
سورية سرق من مال الجمهورية مئة مليون ليرة سورية (نحو عشرة ملايين
جنيه مصري) والتحقيقات في حساباته لم تتم ، فذكرت ذلك لأحد أصحابي
المعتدلين في السرد والتقدير فقال هذا مبالغة وانما الصحيح ان هذا الوزير
كان قبل بضع سنين يعيش في بيت والده لا يملك نقيراً ولا قطميراً فقال
والده منذ مدة لاحد خاصته : ان ابني صار يملك ثمانية ملايين ليرة فقلت
له هذا صحيح أو أقرب الى الصحة .

هذه المبالغة متأصلة بحكم العادة والبيئة كالكذب يرى أهله ومن
يعاشرهم يكذبون فيكذب مثلهم ، ولا أحسن من الرجوع الى الاعتدال
عند ذكر الأرقام من أن يفكر المتكلم قليلاً ويقدر عظمة المليون الواحد
حتى لا يضحك الناس من تقديره أو يروي المبالغة ويتبعها حالاً بما يسقط
من الرواية ويقلل من الغلو فيها .



جمود العرب

كثيراً ما كان احد اساتذتي يقول : لا تطيب السكنى في بلد لا تنزله طائفة من ارباب القبعات فاذا كثروا كانوا مصيبة عليه . يقصد بقوله هذا - بقدر ما استنبط منه الفكر يومئذ - ان الدولة العثمانية لا تراعي اهل بلد الا بقدر ما فيه من الأجانب يراقبون اعمالها فاذا خلت بلدة من هؤلاء الرقباء عملت الدولة فيها على هواها وكثرتهم ضارة . ويمكن تأويل هذا على معنى آخر وهو ان البلد لا يتحضر الا بالاحتكاك بالغريب الراقي ولو قدر لسكان الجزيرة ان يختلطوا بالأجانب لما انحطوا هذا الانحطاط

لاجدال ان جزيرة العرب اليوم اكثر الاقطار العربية تأخراً في مضار الحضارة وكانت حضارتها في اكثر عصور الاسلام والجاهلية ارقى من حضارة الغرب وما علة هذا التأخر الاقليم والهواء بل هجرة اهل الجزيرة في القرون الاولى للاسلام الى ما فتحوه من البلاد النائية وبقي الاعراب اي سكان البوادي وحدهم وتخلف في القرى اي المدن من العرب العاجز والشيخ والمتوسط الذكاء . ثم اتت عصور رأى امرؤها ضرب الحواجز بين ارضهم وسائر اقطار العالم فنشأت اجيال كلها جهل واتكال وعاد السكان يعيشون من صدقات الامراء وأهل الحجاز ينتظرون موسم الحج يسدون بما يربحون منهم بعض حاجتهم . وقل ان فكرت الامارات التي تولى حكمها على تلك الاقطار العظيمة ان تعمر بلادها وظل اهلها على حالة ابتدائية . واذا صح ما يرمينا به الغربيون من الجمود فيصح اولاً على سكان الجزيرة وجمود سائر الشعوب العربية نسبي . وكانت فرنسا وايطاليا واسبانيا في شمالي افريقية السبب في جمود المراكشيين والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين

ولا ينكر انه كان للفقهاء يد طولى في هذا الجمود الذي دام قروناً ، وبعض الاقطار التي نجت من استبداد الطغاة وتعصب الفقهاء وظهرت في

سنين قليلة بمظهر الأباس به من الارتقاء قد اكدت بنهضتها ما كان يصمها به المتعصبون من اعدائها . وبعد ان امتعنا العقل بحريته يسير بما يتراءى له واجننا تعلم العلم على اختلاف ضروبه تبدل الحال وبات يرجى الاتقل حضارة مصر والشام والعراق عن حضارات ارقى الدول الغربية .

انشأ العرب في الجاهلية مدنات عظيمة في جزيرتهم وانشأوا في الاسلام مدينة كانت الوحيدة في العالم خلال اربعة قرون ثم اصيب العرب بالضعف حتى اهتمنا بالجمود وبدأنا نشعر بنقصنا منذ القرن الماضي . وسيدع كل قطر من اقطارنا الناهضة مدينة خاصة به ولا عار في اخذنا عن الغرب فقد سبق له ان اخذنا كثيرا (راجع في كتابنا الاسلام والحضارة العربية ما أخذه الغرب عن العرب)

روى احد علماء الانكليز (هارولد نيكلسون) قول المؤرخين من انه منذ وجدت في الأرض جماعات منظمة رأت الانسانية ثلاثاً وعشرين حضارة مختلفة سارت كل واحدة منها في ادوار معينة حتى انتشرت فنمت في اول نشأتها ثم استقرت وتوطدت ثم ثارت ثورة الفقراء فكان من ثورتهم الانحلال . ومن هذه الحضارات من تركت عادات ابانت عن قوتها وثقافتها ومنها ما لم يبق منها غير ذكراها

قال ولدت مدينة اوربا في اليونان قبل القرن الخامس من الميلاد فوضعت قواعد انسانية جوهرية وعرفنا اليونان فضل الذكاء الحر ومبلغ تأثير العقل ، واخذنا من الرومان حرمة المذاهب وعظمة الشرائع . وعدلت النصرانية من قسوة المعتقدات الرومانية وقالت باغناء الفرد ورفعت مقام الفضائل واتت بالرحمة والرفق ، ونادت فرنسا في القرن الثامن عشر بتغلب العقل والعلم الصحيح . وجئنا نحن الانكليز بمثال من النظام لم نأخذه عن مقام سام بل ولد من ذاته وتألف من عادات انبعثت من الشعب كان رائدها التسامح والاعتدال والتنظيم اه .

يجيء العرب اليوم لاسترجاع حضارتهم القديمة يمزجونها بما يقتبسونه من

الحضارات الحديثة فيرتفع عنهم لذلك عار الجمود وخلق الاتكال ويستعدون حياة طيبة فيها جماع القوى المادية والمعنوية ، وستكون حضارتهم على اختلاف اقطارهم منوعة الاشكال كالفسيفساء لانتشبه حضارة العرب ايام عزهم ولاحضارة الغرب لعهدنا بل تكون شيئاً جديداً فيه عقيرتهم وروحهم .

المطالبة المقفولة

وفقت الحكومة الجديدة في سورية خلال الشهرين الاولين من حكمها الى تحقيق اصلاحات لم توفق الى مثلها الحكومة البائدة في أعوام . منذ القديم كنت انزع الى الامتناع عن نقد كل حكومة جديدة وأترك لها وقتاً تجمع فيه شملها وتوجه دفقة سفينتها حيث تريد على ماترى فاذا وفقت الى الخير فيها ونعمت والا فان اعمالها تسقطها على نحو ما حدث لرئيس الجمهورية الثالث ومن ورائه رجال الغيب أصحاب الكتلة الوطنية فان سيلثتهم في الحكم قضت عليهم ، ولو لم يبادر الجيش الى اسقاط حكومتهم لسقطت بنفسها بما جنته أيديها .

ليست الجرأة على نقد كل شيء بانفع من التأي في والاقتصاد منه ، ولا يعد التوقف في النقد قصوراً ولا اسقاط كل شيء معقولاً . وأي عمل وهو في مبدء تأسيسه خلا من هنات تؤخذ عليه . ولو أنصفوا ما كان مجموع ما عدوه من المنتقد يوازي مسألة واحدة ارتكبتها الحكومة السالفة وما وجدت من يحاسبها حتى الحساب اليسير . ولا حظ بعض العارفين بالادارة أن حكومة الزعيم أنجزت في أسابيع قليلة عشر مسائل كبرى لا تستطيع الحكومة القوالة الصخابة أن تنجز مثلها في سنين ، ولذلك وجب الثناء عليها . والعامل اذا أصابته نعمة حمد عليها وشكر وأعرض الطرف عما عدا ذلك ، ويخطيء من يتطلبون الكمال وايجاده من أصعب الصعوبات .

منذ قرن وضع كوردينال اسبانيا القواعد التي تستطيع بلاده - وكانت

يومئذ تمزقها الاختلافات الداخلية - أن تنشئ حكومة ثابتة مستقرة فيها ، قال هوفار من ساسة الانكليز : ولو كنت اسبانياً من أحزاب اليمين أو من أحزاب الشمال لكنت أردد كلماته الحكيمه وهي : يجب تأسيس حكومة لا تحتقر الماضي ولا تهمل الحاضر ولا تغفل عن المستقبل . يجب أن تكون حكومة لا تنكر ضرورات الساعة ولا تنسى الارث الثمين في الدين والاجتماع والسياسة من مخلقات الأجيال السالفة ، حكومة قوية لا تعرف العناد ، عادلة بلا قسوة ، شريفة بلا عظمة ، حكومة تكون مفتاح قبة بناء ضخمة تحسن تلقي كل رأي معقول ، وتنجز كل مصلحة مشروعة . وهذا ما نرجو أن يتم على أيدي رجال الحكم الحاضر في سورية العزيزة لتكون قدوة الحكومات العربية . والواجب أن لا نتطلب المجال وأن ننصف غيرنا من أنفسنا ، فالادوات التي تستخدمها الحكومات هي هي ، والمهارة في اختيار الاصلح فالاصح ، وعلينا أن نبتم للمستقبل تنفعا ولا نشاءم ، والأنا نجسم الضئيل ولا نصغر الكبير ، وأن نتجرد عن الهوى ونتعاقد على الحق .

الحكم ملع الارض

عجب كل وطني شاهد عمال الحكومة بعد الثورة الجديدة وقد بدأوا دوامهم اليومي على صورة من التدقيق لم يعهد مثلها في الحكومات السالفة . يدققون في ضبط المواعيد في الذهاب والانصراف ويبتون في امور ارباب المراجعة بالسرعة الممكنة ، ذلك ان صاحب الشأن الأول قضى عليهم بهذا النظام رعاية لمصلحة من يدفعون اجور اولئك الموظفين فالامة تطالب هؤلاء بحقها عليهم ومن لا يروقه التقيد بارادتها فما عليه الا ان يعزل نفسه قبل ان يعزله غيره .

نعم ان العامل يتناول اجرته من اتدبه لخدمته وهذا يطالبه بالانقطاع الى خدمته ساعات معلومة في اليوم وعليه ان يخلص فيما تولى وان يبادر الى انجازه من دون ان يُدفع اليه . وكل من اعتاد أن يأخذ الحق ويعطي الحق تحصل له نشأة يستريح اليها وجدانه في الآخر . والواجب ونحن نسير في أصول الحكم على مثال الغرب أن نتقيل أساليبه النافعة في مختلف المظاهر .

عمال الحكومة من أرقى الطبقات في الأمة لاستعدادهم الاستعداد الكافي قبل دخولهم في الخدمة وهم يتعلمون بالعمل في الدواوين أموراً مفيدة هذا اذا أرادوا تنمية عقولهم ومعلوماتهم . وواجب المستخدم أن يتعود التدقيق في محاسبة نفسه باحسان عمله قبل أن يحاسبه غيره والبطال الذي يحاول قبل الوقت يحس بوحشة اذا انتقع عما ألف . البطالة داء ما كان يوماً مما يرغب فيه عاقل ومن أجل ذلك نرى الشيوخ يخترعون لأنفسهم عملاً يسليهم وقد يكون أكثرهم ممن لا يطلب اليهم أن يجدوا فما بالك بواجب الشباب والكهول . ونحن كثيراً ما شهدنا من شوهوا سيرتهم بما كان يجب تنزيها عنه ان عاشوا يوم تنحيتهم عيشة ضيق ووحشة وما قدروا بترك ما تهيأوا له أن يأتوا في انتقلهم مما ألفوه الى ما لم يألفوه الا الفشل وخيبة الأمل .

نحن والامم

تغلب على الامم عادات وأخلاق لاسبيل الى نزعها بلهين لأنها ابنة قرون طويلة . فامة تغلب عليها الرعونة والثروة وأخرى تتملكها الرزانة والتزمت وغيرها تفرق في التبجح والتبجح ، ومنها ماخلق للنظام أو الفوضى ، وقد يشابه شعب شعباً في كثير من الخصائص خصوصاً اذا كانا متجاورين فالانكليزي يشبه الألماني من بعض الوجوه ، والصيني لا يشبه الفرنسي ، واليطالي ليس كالفندي ، وقد تشبه الشعوب اللاتينية في بعض المظاهر الشعوب العربية . وسكان جمهوريات جنوبي أميركا وأهل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا ينزعون الى التوسع في كلامهم وتآليفهم وخطبهم ومناقشاتهم بخلاف الأمم الانكلوسكسونية فانها تحب الاجار في أحاديثها وإجائها وخطبها ومحامها ومجالسها وتتوخى الابتعاد عن القلقة والتزيد في الجملة .

ثبت ان أبناء فرنسا أكثر طلاقة في السنتهم من أبناء انكلترا ، والانكليزي اقرب الى الصمت وإطالة التفكير من الفرنسي وغرام هذا ببلاغته وبلاغته تقتضيه تقليب تراكيب الكلام وتلوين الجمل بالوان مغرية . والزبدة في كلام الانكليزي وكنايته أكثر حجماً وأثقل وزناً . الفرنسي خفيف الوزن مأخوذ لعواطفه والانكليزي رصين يسير مع عقله على الاغلب . والفرنسي يتكلم كثيراً ويفعل قليلاً ، والانكليزي يتكلم قليلاً ويفعل كثيراً وهذه الأحكام تكاد تكون من المجمع عليه بلغت حد التواتر ويعرفها من خبر أخلاق الأمتين .

يقول هايزارت البلجيكي في كتابه (باكورة في علم الاجتماع) الأخلاق امر نفسي طبيعي تولد مع الانسان . ويمكن تقسيم البشر الى طبقتين عظيمتين ظاهرة وقابعة فسكان الشمال يميلون الى الحياة البيتية يقعون في

بيوتهم وسكان الجنوب يرتاحون الى الخروج والظهور . وفي الفرنسيين جفاء ولا ثبات عندهم وهم على جانب من الذكاء وطبايعهم جافة وصدورهم ضيقة وفيهم فصاحة وزهو ويؤكدون ان قلوبهم عن شمائلهم وحافظه نقودهم على أيمانهم . والالمان أقوياء واصحاب امانة مولعون بالعمل ويجرون على قواعد لهم ، يحبون النظام وفيهم غطرسة تتجلى في معاملتهم الضعاف وفي مبالغتهم بمراعاة الأقوياء ، ويعرف افراطهم باكرامهم صاحب القوة ، يحبون الاحتكار وهم مفضلون يميلون الى الخصام ويروغون اذا لم تكن لهم قوة ، ويبدون للأعين كأنهم قساة ونفوسهم عارية من الرحمة وهم يدققون في هندستهم وفيهم عاطفة وعندهم شعور وحساسية . وامزجة الانكليز بلغمية ويقبل الذكاء فيهم وهم رجال عمل يحسنون الارتجال والابتداء وهم حذرون وبعيدو النظر وهم يميلون الى المذهب الانكليكاني وهوام بالفردية . والروسي كسول محتال خبيث وفيه ما تقرأ في سخفات الصقالبه من الرقة . قال واذا تطفنا في الوصف نعت الفرنسي بالبراعة في فن الطبخ والانكليزي بمصدق الميكانيكات والايطالي الغناء والضرب على الماندولين . وقد ذهب شعوب بالزعامة وآخرون بالحرية ومال بعضهم الى العبودية . ومن هذه الاحكام ما يؤخذ منه وي طرح ، وما يطرح منه كثير لأنه بني على تأثيرات غير ثابتة صدرت عن سياح ما كانوا يترشون كثيراً في احكامهم يحكون ما يحكون مأخوذين بأوهامهم .

وقال تشرشل اعظم ساسة الانكليز في كتابه الأخير (جريدة سياسية) :
« كثير من الامم ومنهم امتنا (الانكليز) تميل الى اعتبار فرنسا أمة متعاطفة متحمسة خفيفة تابعة لهواها ، وما الفرنسيين في الواقع الا امة صلبة معتدلة لا تأخذها العاطفة تجمع الى النباهة شدة من بين امم العالم »
وبين قول العالم البلجيكي والعالم السياسي في وصف الفرنسيين وبين ما تعارفه الناس عنها تبين ظاهر مستغرب . ونظر السياسي على كل حال غير نظر العالم . وانا اذا حكمنا بما حكم به العالم البلجيكي على من ذكرهم من الشعوب

نظلمهم ولو قال ان بعض افرادهم على هذه الاخلاق لكان قولاً عدلاً ،
اما من يزعم انها اخلاق الامة كلها او الاخلاق الغالبة على سوادها الاعظم
قتعت وتعمف . واي غمط لحقهم اعظم من ان يدعي المؤلف ان الفرنسيين
يحبسون الطبخ متناسياً ما لهم من الايادي البيضاء في الآداب والفنون ، واي
ظلم اعظم من ان يدعي ان الايطالي لا يعرف الا الغناء والموسيقى ونسي
النهضة التي قامت في القرون الوسطى في بلاده وكانت الداعي الاكبر
في ادخال الحضارة على الشعوب الاوربية كافة ، اصف الى هذا ان الطليان
هم الذين نشروا النصرانية في اوربا وانقذوها من الوثنية وهذا من مزاياهم .
وهكذا يقال في حكمه على الانكليز والروس وانكل قوم ميزاته وخصائصه .
ولكل شعب عيوبه ونقائصه .

وضع السيد جمال الدين الافغاني الانكليز والعرب موضع التنظير فقال :
الانكليزي قليل الذكاء عظيم الثبات كثير الطمع والجشع ، صبور متكبر ،
والعربي او الشرقي كثير الذكاء عديم الثبات قنوع جزوع قليل الصبر
متواضع . يثبت الانكليزي حتى على الخطأ اذا تسرع وقاله او باشره ،
والشرقي لا يثبت على الصواب ولا على طلب حقه فيصل الاول الى خير
النتائج بفضيلة الثبات ويخسر الثاني كل حق بزذيلة التلون وعدم الصبر .
وهذا القول حق في مجموعه ولعله ما خلا من شيء من الغلو في الحكم
على الامتين العظيمتين .

ونرى ان الحكم على العرب في القرن الماضي والحكم عليهم في هذا
القرن يختلف كثيراً لأن العرب تبدلت عقليتهم باقبالهم على التعلم والأخذ
من المدينة الحديثة .

تمويه الحقائق

قرأت في مجلة لاروس فصلاً عتّن له كاتبه (العالم العربي) جاء فيه حقائق تخللتها تمويهات . تخيل الكاتب أن العالم العربي عبارة عن مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد ، مساحته السطحية ثلاثة ملايين كيلومتر مربع وسكانه أربعون مليوناً . وبذلك أخرج من المجموعة العربية سكان الامارات العربية المنبثة على شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي ، ويسكنها بضعة ملايين من الأنفس كما أخرج خمسة أقطار عربية في شمالي افريقية (بركة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ولا ينقص سكانها عن خمسة وعشرين مليوناً . دع بضعة ملايين من السودانيين في افريقية ثبت أن أصولهم عربية ويتكلمون العربية أي أن السياسة أوحت الى كاتب المقالة ألا يعترف بعربية أكثر من أربعين مليوناً ، فانظر كيف يكتبون أهم كتبهم ، وانذب حظ العربي فيها اذا دعت مناسبة الى الكلام عنه وعن ماضيه وحاضره .

ومن تمويه هذا الكاتب أن نصارى لبنان وسورية هم الذين بعثوا النهضة العربية من مرقدها ثم تولت مصر كبرها ، وهي نعمة طالما رددتها بعض جهلة اللبنانيين منذ زعموا أن لبنان سبق الى التمدن وأنه هو الذي مدن مصر وعلمها مع ان مصر تقدمت لبنان الى العلم بنحو جيلين . والدليل ان مدارس الطب واللغات والترجمة والادارة والصنائع والهندسة في مصر أنشئت قبل تأسيس الجامعتين الاميركية واليسوعية في بيروت باكثر من خمسين سنة . وما كان في لبنان ولا في سورية وفلسطين قبل ان تنهض مصر من يقيم للعلوم المادية وزناً . وبينما كانت كتب الطب والزراعة والحيوان والنبات والكيمياء والفنون الحربية والتاريخ والجغرافيا تتناقلها ايدي العالم العربي وهي من تعريب المصريين الذين تعلموا في اوربا على عهد حكومة

محمد علي الكبير كان ابن لبثان لم يصل الى اكثر من السوادية كتاب صلواته .
ومن اشبع السخافات دعوى احد اساتذة السوربون مؤخراً في جريدة
(لنوفيل ليتير) الفرنسية ان البربر هم اصحاب المدينة في شمالي افريقية
والاندلس ، وما العرب الفاتحون الا شرادم من السلبه والمشردين تعلموا في
طريقهم الى فتح المغرب بعض ما عند اهله كما تعلم ابناؤهم في فتح فارس
اشياء من الفرس اعانتهم على تأسيس مملكتهم الجديدة . فقامت المدينة
الاندلسية والافريقية بفضل البربر فقط . ومن العجيب ان من يزعمون لهم هذا
الفضل في التمدن لم تعهد لهم مدينة قبل الاسلام في شمالي افريقية ولا شيء
من بقايا حضارة بعد سقوط دولة العرب في الاندلس وسقوط دول المغرب
الاقصى والادنى .

كذب مفضوح لا يليق صدور مثله ممن يحمل اسم استاذ من اعظم
جامعات العالم . ولذلك نرى من واجبتنا ان ندعو كل عربي الى الشك في
اكثر ما يصدر عن كتاب فرنسا من الاحكام على الاسلام ذلك لانه تحقق ان
اكثر الفرنسيين لا ينظرون الى الاسلام والمسلمين الا بمنظار الاستعمار .



الدرر الكريمة

ولا اعنى بها الدرر المتعارفة التي تتخذ للزينة وهي من قنّيات اهل السعة خاصة ، بل اقصد الدرر الثمينة التي لا يظهر امثالها من الرجال في الحقب الطويلة . ومن عرفت في دولة الترك من هذا الطراز البارع رجلاً عظيماً (وقد اشرت في مكان آخر الى بعض عظماءهم) احدهما فاق اقرانه في الأدب والسياسة والثاني في المالية والاقتصاد ، عنيت العالمين الكاتبين الحطيين المبدعين علي كمال بك وجاويد بك .

كان الاول صديقاً لي تعاشرنا في القاهرة وباريز والاساتنة اشهرآ وتعرفت الى الثاني في استانبول على عهد الاتحاديين وكان يعدّ من كبارهم ، ولكل منهما مزايا عظيمة ليس لاحد مطمع في مثلها الا اذا كان ممن خلق للعظمة وخص بالعبقرية .

قرأت كثيراً مما كتبه علي كمال في جريدة بياض بياض وغيرها من الجرائد والمجلات ، وكان يحسن العربية اخذها عن احد أئمة اللغة في حلب (راجع ما كتبناه من اخباره في ص ١٤٦ من الجزء الاول من المذكرات) . وحدثني بعض تلاميذه في جامعة الاساتنة انه كان في درسه التاريخ العثماني يورد على مسامعهم من اخبار ادوار الانحطاط ما يبكي منه ويبكيهم ، ومرماه تربية ملكاتهم وتقوية روح الوطنية فيهم .

اما الثاني فقد قرأت اكثر كتبه في المالية وبعض ما كان ينشره من ابجائه وتحقيقاته الاقتصادية في المجلات التركية وسمعت في مجلس النواب ، وكان وزير المالية العثمانية ، يخطب في الموازنة فما سمعت بالتركية نعمة ارق من نعمته ولا بياناً امتع من بيانه - اللهم الا صديقي الاستاذ لطفي فكري بك شيخ المعارضين في المجلس يومئذ - ماتلعم ولا توقف وكان امامه واثاق وكتب ربما كان ينوي الرجوع اليها اثناء كلامه ، فلا والله مالقي عليها

نظرة وانكفاً يخطب من عفو القريحة اكثر من ساعتين خلتها دقائق لكثرة
مالخذ من قلبي ببلاغته وسعة علمه ، وكان خلال الكلام يلعب بسلسلة في
يده على نحو ما يقرب لسانه بالعذب السائغ من الكلام .

هاتان الدرتان النادران قضى عليهما الكماليون بلا رحمة مزقوا الاول
تمزيقاً يوم دخلوا الاستانة فاتحين ، وصلبوا الثاني صلباً ففجعت بها الامة
التركية واسفت الامم المتمدنة عليها حتى ان احد كبار الانكليز قال لبعض
ولاة الامر من التترك عند الحكم على جاويد بالقتل نحن مستعدون لان
نستعير منكم هذا العظيم او نباته ونؤدي فيه الثمن الغالي لما نتوقع من
الاستفادة من علمه وتجاربه . وفي رواية اخرى انه قال ان صفقتنا ستكون
راجحة اذا اخذناه منكم وليس في رجالنا من يدانيه .

ذهب علي كمال وجاويد رحمهما الله فدية السياسة وكم قتل مثلها في كل
امة بغياً وعدواناً دون فرق في نظر الطاغي المستبد ان يكون القتل مجرمًا
او بريئاً ، والمهم القضاء على النوابع لينهبوا من طريق المتوسطين فلا يجدون
اذا فقدوهم معارضاً فيما يبرمون وينقضون . وكان الكماليون كالاتحاديين في
معاملة نبغائهم . وفي كل ثورة وعقبى كل حرب يقتل الغالب ماشاء الله ان
يقتل بمن كانوا يعارضونه وينقدونه . رأينا من ذلك ما يشيب له الولدان في
عصر الحضارة هذه وفي كل امة سلفت وخلفت .



نبوة عاقل

قال لي صديقي البطريك العلامة الكسندروس طحان قبيل الحرب الاخيرة اني لاخشى اذا نشبت الحرب ان يكون الظفر للجنس الانكلوسكسوني وهو ما أرجحُه وتساءل ماذا يكون حال العالم مع اليهود وسلطانهم في الولايات المتحدة سلطانهم ، اذا تم هذا فتكون عقوبة الهمة يرسلها الله على البشر تأديباً لهم .

وما قدتمت هذه النبوة بعد عشر سنين واليهود الصهيونيون لايتحامون ايذاء العرب المسلمين منهم والمسيحيين ، وكان المشهور ان اميركا اقرب الدول الى العدل والاعتدال كماظهر ذلك من استعمارها وسياستها العالمية فتبين انها عند تعارض مصالحها مع مصلحة الغير تدوس كل حق حتى تصل الى مايرها .

آكل الحرام

حاز ارقى الدرجات في الماسونية واحرز القدر المعلى في الرشوة واللصوصية ، يكتب ويخطب خادماً لافكار غيره وتابعاً لمن يعطيه ، وهو قليل التدبير في كل ماتولاه من الاعمال الخاصة والعامة ، وكان كل ماجناه كالماء يجري الى قنطرة يدخل من جهة ويخرج من أخرى . رأى مرة ان المصريين لايجسنون المقامرة وادعى انهم وان كانوا اغنياء فهم اغنياء ، فشد الرحال الى مصر يلعب ابناء حرفته فغلبوه شر غلبة وماخلص منهم الا بان دفع لهم المدخر والمنتظر على أصول المقامرين . وبدا له ان يشتغل بالزراعة ، وقد انهكه المرض وذرف على الثمانين ، وماسبق له ان تعاطاها . فابتاع

ارضاً واسعة قليلة الماء خبيثة التربة واراد ان يعمرها بمعرفته لاجمرفة العارفين
فماهي الا سنة او سنتان حتى غدا ما ابتاعه بمئة قرش يساوي خمسة قروش .
يعلل ارباب الاعمال ان السبب في اخفاق هذا العجوز جهله صناعة
لايحسنها والزراعة يستلزم تعلمها زمناً فكيف له وهو في أخريات ايامه غير
صحيح الحواس . ويقول ارباب الدين لما كان جميع ماله حراماً قضى الله
عليه الا يخرج من الدنيا حتى يخرج عن جميع ما جناه ، شأن كل من جوزوا
لانفسهم كل مال وما فرقوا بين الحرام والحلال .

طلاب المدارس

دخل في العهد الاخير طلاب المدارس الثانوية والعالية في مصر والشام
والعراق في طور ما كان لهم ان يدخلوه لو انتظمت السياسة وعقلت الحكومات
فسارت على بصيرة كل حين . اخذوا يتدخلون في الامور السياسية ومنهم
من كان يخدم سياسة بعض الاحزاب وينتقدون الحكام بحسب ما توجهه
اليهم عقولهم النضرة ، وهم على صواب اكثر الاحيان في انكارهم ما ينكرون ،
ومنهم من تهيجهم دواعي الوطنية فيتقدمون لقتل من يعتقدون فيهم العبث
بمصلحة امتهم او التساهل بوضع ايديهم في يد عدو وطنهم ، ينظمون لذلك
جمعيات سرية وجهرية ، ومنها ما ظهر الخير على يده ومنها ما كان المقصد
منه الظهور او غايات شخصية ألبست قالب العموميات .
وكان هؤلاء الأبناء البررة اقاموا أنفسهم رقباء على الحكومات يردونها
الى السداد بما يرون فيه الخير لوطنهم ، ويقادون ضروب المفاداة فلا يتأخرون
عن اهراق دماهم عند الاقتضاء في سبيل مصلحة الجماعة ، وهو مما لم يعهد
قبل ان ينبعث نور العلم الحديث من المدارس ولا يزال في ازدياد كلما
كثر عدد هؤلاء الطلاب .
وكان التلاميذ قسموا اوقاتهم شطرين خصوصاً الشطر الاول بتحصيل

ما تيسر لهم من العلم والآخر وقفوه على عمليات قرؤا نظرياتها في الكتب .
ظاهرة جديدة اهم مانشأ منها ان الحكومات غدت تحسب للناسثة حساباً
في المسائل السياسية ، والنايبة اخذت تغذي المجالس النيابية وتسوقها الى
القيام بواجبها كلما شاهدوها الى جانب القصور وتحمسوا لدعوتهم وعدوا
عقيدتهم السياسية هي المعول عليها دون غيرها .
وما كان للحكومات ان تصم آذانها عن نقد من ليسوا من عيار
الطلبة في الغيرة والادراك ، ولا عار على حكومة ان تماشي ابناءها فيما
يحفظ عليها ساطانها ولا يخل بانسجام النظام اذا نزلت على رغائبهم في الامور
المعقولة وعلى ما يُرمون به احياناً من قلة التجربة ، فهم ابناءؤها من اصحابها ،
وزينة ارضها ومعقد رجائها وخلفاؤها من بعدها ، وقد يستفيد الاب من
ابنه احياناً اذا تعلم وتهذب اكثر منه .

قيض الله بعض نجباء الابناء يدعون للخير ويمهدون الطريق لمن عانوا
سياسة الأمة ، ولو قد ترك النواب وشأنهم مع الحكومات التي تتألف من
احزاب ، الله اعلم كيف اجتمعت ، لضعف امر الامة . كل هذا من البدييات
ولكنه من الخطورة على جانب . فدخول التلاميذ في مسائل سياسية كبيرة
وصرف شطر من اوقاتهم الثمينة وهم في سن الدراسة يضع به قسط
عظيم من ثروة الامة وثروة الامة قائمة بالاكثر من تخريج اكبر عدد
ممكن من ابناءها في العلوم .

وكنت اتنى ان يكون جميع النواب ، وبأيديهم اقدار الشعوب ،
على كفاءة تامة لا يحتاجون معها الى من يد لهم على طرق الخير وما توجهه
عليهم وظائفهم لينقطع الطلاب الى ما يجب عليهم العناية به قبل بكل شيء
لا ينظرون في غير دروسهم حتى الزمن الذي يغادرون فيه مقاعد مدارسهم ،
فاقتطاع وقت خص بعمل واشراك عمل آخر معه يورث الضعف في العاملين ،
والمرء لم يخلق بقريحتين ولا بقلبين . فمن الصعب الانصراف الى الدرس
والدخول قبل الأوان في ميدان السياسة ، ولا يتأتى التذرع بأمرين مهمين
دون ادخال الضيم على احدهما .

وقت الدراسة لا يشبه غيره من ادوار الحياة فهو لا يتكرر واذا فات لا يعود ، بل هو كنز مرصود اذا لم يكشف في سن مخصوصة يضيع ، وشيء يلزم به المرء لا يقوم به له غيره ، فاذا استهان الشاب بهذه الشروط خسره وطنه وخسر اهله وخسر هو نفسه وكان حرياً ان يعد في جماعة انصاف المتعلمين وهؤلاء لا يصلحون للمواطن التي أعدوا لها .

الحسد على المنصب

يقول المؤرخ البرتغالي هر كولانوم ان في عقلية الشرقي نوعاً من الغرابة يصعب تحليلها ، أنه مع ما أوتيه من الذكاء والاقدام والمقدرة ينقصه شيء من التعاون والالفة وعدم التحاسد على الوظيفة والمنصب اه .
ولعل التحاسد على الوظيفة والمنصب من أقوى انواع الحسد ، لأن المنصب مدرجة الى كل شيء ، فيه ما يتبعه الانفس من منافع ومظاهر ، وقديماً كان الامر والنهي من الذ الاعمال البشرية .
قامت ضجة في جوارنا ذات صباح بين اخوات وشقيق لهم فمما سمع من احدهن قولها لاختها ان اباك صلبه الاتراك وانت باق بلا وظيفة و (كرد علي) جارنا وصل الى الوزارة . هذا ما نقلته الي من سمعته ، وهو كلام السيدة لأختها بمعناه ، ومن روته ليست ممن يحسن تصنيع هذا الكلام .
السيدة عيوت اخاها بان اباها صلب (في الحرب العالمية الاولى) . المقصد شريف كان يرمي اليه ياترى ، ام اتى ماعده الترك خيانة وطنية فاوردوه حتفه ؟ وعند السيدة ان والدها لما صلب وجب على الحكومة الخالفة ان تكافيء اولاده بتوظيفهم ، ولا عليه اذا استدعى الاجنبي ليخلف التركي في حكم بلاده ، والعقل يقول ان الحيانة واحدة سواء كانت للغريب او للقريب ، فالمصوب خان الترك ولم يدع للعرب .
هذه اعمال اب يريد اولاده ان يستثمروا اسمه بعد هلاكه ، ولولا ان

اعتماد الناس السكوت عن مساويء موتاهم بالأو ابتعداد هذه المقابح الصحف
والاندية . وكان المصلوب نال بمن خانهم مالم يكذب يناله أحد من مواطنيه .
كفر بكل هذا وحاول ان يحول وجهه وجبهة أخرى ليعوض ما خسر من
مال وجاه فكانت العاقبة مارأيتم .

نعم يتحاسد الشرقيون على الوظيفة والمنصب تحاسداً يخرجون به على
كل قانون . وقد يحاول أحدهم قتل اخيه آملاً ان يخلفه في مقعده ويضع
يده على ثروته . اما الكذب على المحسود والتجسس عليه فهو من ايسر ،
ما يرتكبه الحاسد الموتور ولا يبالي ، لان فيه تحقيق امانيه واستفاء صدره
بقتل اعاديه .

ضيق العقل يرتكب افطع ضروب الحيانة ويظن ان ما يجنيه اذا كان
في سر لن يفتضح ويعد من علائم سعادته انه احتمال وتمت حيلته على من
احتمال عليه ، والله في خلقه شؤون .

التعايشية

التعايشي من امراء السودان اطلق احد ارباب الدعابة من الفقهاء اسمه
على كل شيخ غايته من دنياه ان يأكل ويعيش ، وهو في سبيل الوصول الى
مبتغاه يسجد لكل صاحب قوة يضمن له معاشه ، لا ينجل من ان يكون
عبد من دامت سعادته ولا يعبأ بما يتطلبه منه قومه ووطنه من خير .

فالتعايشي اذاً هو طالب العيش لا يعنيه من العالم غيره ، ونقيض التعايشي
قلائل في كل زمن وفي كل امة وفي كل نحلة ، وكلما كثر عددهم في قوم
عزّ وبزّ ، ولنا ان نسمي نقيض التعايشي «الفريق المختار» من كان مناهم من
دنياهم ان يؤثروا أثراً نافعاً وقد تلذهم المغامرات واقتحام المصاعب ان
كان فيها ما يعود بفائدة على المصلحة العامة .

يود كل العالم ان يعيشوا بهناء وتضمن لهم اسباب العيش السعيد ، وليس في حياة السواد الاعظم ما يفتخر به والفخر كل الفخر للاقلية النافعة . الاولى لاتذكر بامر ذي بال وعيشها الى البهيمية اقرب والثانية تذكر بحسب غنائها ودرجتها في المحامد .

ومن الفريق الثاني كل من يتوخى نفع غيره ولو قليلاً . فمن يرفع صوته بانكار المظالم والانحاء على المضرين فهو نافع . ومن يبشر بفكرة خير منها بلوغ من ضؤولته فهو نافع . ومن يدعو الى تهذيب الاخلاق وتعليم البنين والبنات فهو نافع ، ومن يحب الى قومه تزيين كل فضيلة وتقيح كل رذيلة فهو نافع . ومن يكره البطالة للمتبطلين ، ويفسق للعاملين والمجتهدين ، وينوه بالمحسنين والمتصدقين فهو نافع . ومن يعلم مواطنيه حب النظام والبعد عن الفوضى ويحملهم على احترام القوانين فهو نافع . ومن يدل على كل ما في الحضارة من حسنات ويجذر بما حملت من سيئات فهو نافع النخ .

وارقى من هذه الطوائف في باب النفع من يحققون ما يعم الوطن اثره ، فمن يعمر طريقاً ويبنى جسراً ويقيم مستشفى وينشئ مدرسة ويؤلف كتاباً ويعلم جاهلاً ويرشد ضالاً ويأتي بجديد يستفيد منه المستفيدون فهو نافع . واعلى كعباً من اختراع آلة لتذرية الجبوب ، وآلة كاتبة سهلة الاستعمال ، ومن ابدع آلة حياكة وآلة نسج وآلة خياطة وآلة طباعة وكل ما يفيد في الصحة واللباس والمسكن والصناعات المختلفة ويقتصد من الوقت ويجلب الثروة .



اذا جهر الجهر

قامت مرة مظاهرات في عاصمة الجمهورية السورية وحواضرها حلب وحماة وحمص ودير الزور وغيرها اختلفت الآراء في الاسباب الداعية اليها . فمن قائل ان منشأها تطاحن الاحزاب ومن مدع ان لليد الغربية اصبعاً فيها والارجح ان الفوضى التي عمت اعمال الادارة لضعف تركيب الوزارة وعدم الالتفات الى شكاوى الجمهور والاسراف بامواله كانا العامل الاول في ذلك . فان معظم الوزراء لم يسبق لهم تولي مثل هذه المناصب ولا اقل منها ، وجاءت بهم الى الوزارات احزابهم وتساهل من ضمهم الى مالايحسنون القيام به كانت المظاهرات تدار بأيدي طلاب المدارس العالية والثانوية فوقع قتلى وجرحى من الاهلين ومن الشرطة وما استقر الامن في نصابه الا باعلان الاحكام العرفية ، وقد اشترط الطلاب الا يعود للحكم احد ممن كانوا في الوزارة السابقة لانهم اثبتوا جهلهم وضعفهم وقلة أمانتهم وأنه ما كان لهم مأرب في غير الحرص على مصالحهم الشخصية .

ولما جاءوا يؤلفون الوزارة الجديدة قيل ان رجالنا قلائل وما هم في الواقع الا بنسبة من تعلموا منا فخطر بالبال وضع قائمة يرجع اليها في تأليف الوزارات وبعض من انتقيناهم يصلحون للرياسات وبعضهم للوزارات وهام الاساتذة والدكاترة .

ادمون حمصي . اسعد هارون . اسعد الكوراني . اكرم الحوراني .
امين رويحة . حسن الحكيم . حسني سبيح . حكمة الحكيم . حكمة الحراكي .
حيدر مردم بك . خالد العظم . خليل مردم بك . رشدي الكيخية .
سامي العظم . سعيد الزعيم . شفيق جبوري . عادل ارسلان . عارف النكدي .
عبد الرحمن العظم . فاتر الفصين . فتح الله اسيون . عزة الصقال .
مصطفى بومدا . مصطفى الشهابي . مصطفى الكيلاني . ميخائيل ليسان .
ناظم القدسي . نعيم انطاكي . وغيرهم من ليسوا الآن على خاطري ومعظمهم في الكهولة .

العداوات الموروثة

تتأصل في الشعوب عداوات يتوارثونها كما تتأصل في الأفراد ، وقد تتعدى الشعوب لأسباب جوهرية أو لأسباب يحكم العقل بتفاهتها ، فعداوة الاسبان للعرب من العداوات الجوهرية بالنسبة للاسبان ، وذلك لاستيلاء العرب عليهم نحو ثمانمائة سنة ، عادى المغلوبون الغالبين ، وان حمل هؤلاء اليهم المدينة ، وأدخلوهم في حجر الحضارة ، وأذاقوهم طعم العدل والرحمة ، ولكن من طبع المغلوب انكار حسنات غالبه .

وعداوة ذوي القرى من النوع الذي لا تزيله السنون مثل العداوة التي حدثت بين الاسبانيين في حربهم المدنية الأخيرة من أجل نظام جمهوري أو نظام ملكي ، فهلك فيها من الفريقين مليون انسان واعتقل مائتا الف مجرم سياسي ، وخرّب جزء عظيم من اسبانيا ، واختلت كل الاختلال صناعتها وزراعتها ، وحرم أهلها ضروريات الحياة . وأبان الاسبان عن وحشية عرفت عنهم مع أعدائهم ، واستغرب العارفون صدورها مع أهلهم وابنائهم ، ووحشية قلما ظهر مثلها حتى في حروب البوتستانت في فرنسا ، وكان الكاثوليكي ينقض على البوتستاني كالوحش الضاري يقتله فيقتل فيه شخصاً يخالفه في دينه ، أما الاسبان في حربهم الاهلية الأخيرة فاقتتلوا بلا تمييز فقد يكون اخوان احدهما يقاتل في صف والآخر يقاتل في الصف الذي يقابله من صفوف يعدها من أعدائه ، وافظع من هذا ، وهو بما دل على رقة قلوب الاسبانيات ، ان النساء كن اذا انتهت المعركة يتقدمن للرقص على جثث القتلى وقد يكون تحت ارجلهن اخوتهن او ابناء عمهن (راجع ما كتبناه في حروب العرب والاسبان في كتابنا الاسلام والحضارة العربية .)

وكل من نظر نظرة خفيفة في معاملة الاسبان للعرب يوم أخرجوهم من ديارهم يدرك أن ما بدا من عداوة الاسبان للعرب في تلك الكارثة

العظمى لا ينسأه العرب على الأيام . وحاول أحفاد اولئك السفاكين الظالمين من الاسبانيين أن يحجوا من تاريخهم لطحه هذه الوحشية فلم يفلحوا ، ومهما تلطفوا حتى ينسى جيرانهم في المغرب ما لقوه من القسوة والجبروت ، يستحيل أن يوفقوا الى ذلك . وكانت حرب مراکش في الريف بين الاسبانيين والريفين من أعظم الخطوب التي حلت بالشعب الاسباني ، تلك الحروب التي أبانت عن ضعف اسبانيا في كل مقوماتها ، ولم ينقدها مما صارت اليه من الصغار الافرنسا ، أنجدها باسطولها وجيشها وطياراتها فأنت لها الحرب وأعطتها جزءاً من الغرب الاقصى أي القسم المشهور بالريف ونصبت لها سلطاناً وعادت تبدل فيما قيل سياسة العنف بسياسة فيها قليل من اللين ، ولكن ما غرس في قلوب المراكشيين من البغض لا تزيله الابتسامات المصنعة ولا الرقة المخادعة ، وما برحت حكومة اسبانيا تتقرب من العرب للتخفيف من تلك العداوة الموروثة وأقل ما يخدع به السياسيون الاسبانيون العرب أن يزعم بعض افرادهم أن جددهم كان مسلماً تنصر كرهاً وان عواطفه مع المسلمين الى آخر ما يتفوهون به من هذيان .

وبعد فاذا قلنا ان عداوة الاسبان الكاثوليك العرب المسلمين طبيعة الحدوث فما القول في تعادي الكاثوليك والبرتستانت في كل مكان وداوة الروم مع الكاثوليك وداوة الهندوس مع المسلمين ، وكلها عداوات قديمة موروثة يبرأ الدين منها ولا تتعارف اليها الانسانية ، وما هي الاتعاد على امور الدنيا ، فما اسخف البشر حتى في عهد تحضره .

قلنا في غير موطن ان المسلمين لقوا الالاق في كل زمن من الشعوب اللاتينية سواء في ذلك البرتغاليون والاسبانيون والطلبان والفرنسيس . واذا اتفق ان نفس خناق المسلمين مع الشعوب الغربية بعض الشيء فذلك على عهد الانكليز السكسونيين ومنهم النورميون الذين خلفوا العرب في حكم جزيرة صقلية وكانت حكومتهم مثال الرفق بالمسلمين والتسامح مع احيائهم . غرس الغرب في قلوب الشرقيين عداوات يرمض النفوس ذكرها ،

ويدعو المسلمين الى عدم الاغترار بالابتسامات والمجاملات . والغربي اذا كان لايتراحم وابن جنسه وابن دينه فهو اولى الايتراحم وواحداً من بني الانسان . والشاعر العربي يقول :

لا اتقى حسك الضغائن بالرقي فعل الذليل ولو بقيت وحيداً
لكن اعد لها ضغائن مثلها حتى أداوي بالحقود حقودا
كأختر خير دوائها منها بها تشفي السقيم وتبرئ المنجودا

داهية السيادة

لعل القاريء لاحظ من بعض فصول المذكرات ان علاقتي بالصديق السيد فارس الخوري دامت منذ اواخر العقد الثاني من العمر والى الآن صافية يعقبط كل منا بها ، وتمت تربيتنا على الايام ، يسير كل واحد منا في طريقه ، ويعمل على شاكلته . والذي كان يعجبني فيه انه كان يفسح المجال في صدره لكل ما يصل اليه من صنوف المعارف يأخذ منها ماوسعه أخذه ويتركه جانباً الى ان يبدو له استعماله وعندئذ ينصرف اليه مدة فيتبرز فيه فهو لم يتلق الفقه الاسلامي والقوانين المدنية عن اساتذة معتمدين واشتغل فيها لنفسه مدة فعدت بعد زمن قليل عمدة في هذا الباب . واحكم اللغة الانكليزية في صباه ثم شغل عنها بعض الشيء ولما ناب عن سورية في المؤتمرات الدولية تجسست فيه ملكة الخطابة بالانكليزية كما كانت تجت فيه ملكة الخطابة بالعربية قبل ان يتم دراسته الاولى .

ويعجبني في هذا الاخ انه كان عملياً في حياته هكذا كان في التدريس والنيابة والرياسات وفي الزارات والمؤتمرات حتى عدت بحق رجل السياسة السورية ، وكانت حياته كحياة النوابغ لا تخلو من مرارة وحلاوة ، ولا اعرف سورياً خدتم السياسة زمناً اطول من الزمن الذي خدمها به صاحبنا ما خلا الامير شكيب ارسلان ولا رجلاً اجمع اولياؤه واعدائه على الاعتراف بفضله ، واشترك في ذلك كل عربي .

درس الأستاذ لأول أمره في بعض المدارس الطائفية ثم عين ترجماناً في قنصلية انكلترا بدمشق وبدأ شوطه السياسي يوم انتخب مبعوثاً عن دمشق سنة ١٩١٤ وكان له في مجلس النواب العثماني مواقف محموددة الى ان اتهموه بالاشتراك في تنظيم ثورة المغفور له الملك حسين وأودع سجيناً منفرداً سبعة اشهر وخرج منه بريئاً ، واشترك في اعلان استقلال العرب وتنظيم المملكة الفيصلية السورية وكان فيها وزيراً للمالية مدة وجودها . وبعد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٠ تنحى العمل الحكومي وعاد الى مهنته في المحاماة والتدريس في معهد الحقوق بالجامعة السورية ووضع لدروسه مؤلفات قيمة . وناب عن دمشق في مجلس الاتحاد الذي أنشأه الفرنسيون سنة ١٩٢٢ ودخل وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٦ واتهم بمبالأة الثورة السورية فاعتقل مع رفاقه الوطنيين وأرسل الى حسكة . وأميون حيث بقي نحو سنتين في المعتقل بالاقامة الجبرية . وكان عميد الكتلة الوطنية منذ نشأتها سنة ١٩٢٨ (١) واختير عضواً في الوفد السوري للمفاوضة لعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٩٣٦ وانتخب نائباً عن دمشق ورئيساً لمجلس النواب طول مدة قيام هذا المجلس الى سنة ١٩٣٩ ومن سنة ١٩٤٣ الى هذا اليوم ما عدا سنة كان فيها رئيساً للوزارة السورية سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٥ . وكان رئيساً للوفد السوري في مؤتمر القاهرة لاقرار تأسيس جامعة الدول العربية وفي مؤتمر سان فرانسيسكو ومؤتمر لندن وسائر دورات منظمة الامم المتحدة منذ نشأتها وعضواً في مجلس الأمن في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ورئيساً لهذا المجلس مرتين ورئيساً في احدى لجان الهيئة العامة في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وانتخب عضواً في ندوة وضع الشرع الدولي .

(١) كان الاستاذ مع الكتلة حتى سقوط بقاياها سنة ١٩٤٩ ولطالما أكد أن بعض المنظرين من رجال الكتلة ما كانوا يستمعون له وقال ان تعديل الدستور ما كان عن رأيه وان كان في الدستور الاول بعض النقص لانه وضع على عهد الانتداب والعقلاء على كل حال يلومونه لماشاة جماعته سنين طويلة وكان يمكنه بما خص به من علم وبيان أن يدهم على طريق الخير ويصحح لهم أغلاطهم الفاحشة وربما ادعى أن الأكثرية كانت تنقلب عليه والله أعلم .

هو عضو في المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه وعضو في أكاديمية العلوم السياسية في جامعة كولومبيا ودكتور في السياسة الخارجية من جامعة كاليفورنيا الجنوبية . وتخرج على يده عدد كبير في الحقوق وهم اليوم يشغلون أهم المناصب من محامين وقضاة وقوام مقام ومحافظين ووزراء ونواب . وله في العمل الاقتصادي مشروعات عظيمان هما مشروع ماء الفيحة الذي أنقذه من المستثمرين الاجانب ووضع له نظامه الحالي بأسلوب مبتكر اقتبس عنه كثيرون في أقطار الشرق . ومشروع الاسمنت الذي هو أول نجاح أحرزه الاسلوب التعاوني وأصبح النظام الذي وضعه مرجعاً للشركات التي نشأت بعد ذلك .

وفي الميدان السياسي أحرز نجاحاً عظيماً في سان فرانسيسكو بنيل صك استقلال سورية ثم نفذ الى لندن امام مجلس الامن سنة ١٩٤٦ باحراز قرار جلاء القوى الاجنبية عن البلاد ، وله في منظمة الامم المتحدة وفي مجلس الامن مواقف في الاشتراك بالمناقشات في الموضوعات المعروضة على هذه المنظمة العظيمة خصوصاً قضايا البلاد العربية والاسلامية ومنها قضية مصر وقضية فلسطين وقد أبلى في ذلك بلاء حسناً .

القوى الضائعة

كنت منذ وعيت اذا نظرت الى انسان او حيوان او جماد لا ينتفع به حق الانتفاع أعده قوة ضائعة فاذا رأيت شاباً ذكياً او فتاة نبيهة لم يعلمها اهلها أعدهما قوة ضائعة . واذا أحسست بوجود عشرة رجال متهاثلين في التربية والمنزلة لا يفكرون بما يعود على الناس بخير من مثل تأليف جمعية لتعليم يتامى والفقراء وايواء العاجزين والعاجزات وتأسيس شركة صناعية او تجارية او زراعية يجمعون بها القوى المشتتة أعدهم قوة ضائعة .

واتحسر اذا نظرت عيني ارضاً بوراً في وسع صاحبها او اصحابها تجويد حرثها وكرثها وزرعها وغرسها . واعضب اذا وقعت على بضعة افدنة بذل صاحبها جهده في تعيدها فأتته بأطيب الثمرات والى جوارها مئة فدان معطلة لاتغل ماتغله العشرة الافدنة العامرة . واعتناظ اذا نظرت الى نهر يجري في طريق غير صالحة فيؤلف في مجراه مستنقعات تضر بصحة النازلين حفافيه ، ويجرمهم الانتفاع بمياهه في سقيا حقولهم ، وأتألم عندما ارى بناءً متداعياً لوقض وجدد لأتى بنجمة اضعاف ريعه . واقهر اذا مررت بغابة جارت عليها اسنان الماعز وفؤوس الخطابين وما حرست حراسة دقيقة ولا خدمت خدمة فنية لتصبح مورداً للسكان وزينة الآكام والقيعان .

والحال كذلك اذا رأيت عالماً او أديباً لا يفيد قومه بعلمه وادبه ، لا يدرّس ولا يؤلف ولا يخطب ولا يحاضر ، واذا عهدت صاحب صنعة لا يستثمر مواهبه اقول قوة مهملة وجودها وعدمها سواء . واذا عرفت موظفاً اميناً أحيل على التقاعد (المعاش) لبلوغه السن القانونية وفي مقدوره الدوام على الخدمة ، والدولة تظهر الاستغناء عنه آسف لهذه القوة الضائعة . وهكذا كلما نظرت العين قوة من قوى الأرض ومن عليها لاتستثمر الاستثمار الواجب اندب حظ العالم وأقول في نفسي لو استغلت كل القوى حق

الاستغلال لعمّ الاتقان كل شعَب الحياة ولما جاع احد من بني الانسان
يبيح القانون الانكليزي تأجير الأرض تسعاً وتسعين سنة ولا يورث
قانونها الا بكر الأولاد . وذلك لتعمر الأرض ولا تبدد الثروة . فماضينا
لو أخذنا من هذين القانونين ما وسعنا أخذه وضرينا عن بعض قوانيننا صفحاً
كقانون الوقف الذي لا يبيح ايجار الأرض الا ثلاث سنين ، أو يعمل
المؤجر والمستأجر حيلة شرعية حتى يزيدا مدة الايجار شيئاً قليلاً وهناك
مذهب من مذاهب اهل السنة يبيح ايجار الملك تسعين سنة ولكنهم لا يعملون به .
علينا ان نعمل على الرجاء وطول الأمل لا على اليأس واهمال العمل .

المسألة الاجتماعية

يقول صاحب مر تقدم الانكليز السكسونيين : (ليست المسألة الاجتماعية
عبارة عن مساعدة الافراد كما ان الحياة لا تقوم بكثرة تناول العقاقير والادوية ،
اذ ليس الاسعاف او العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية ، والحكمة فيما
يؤدي الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة
الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث لا يستغني كل فرد منهم عن ان يقوم بأمر نفسه
وان يرتقي بجده وعمله ، لان سلامة الاجتماع كالسلامة الاخروية تقوم بكل
واحد على حدته وعلى كل فرد ان يسعى اليها ، وقوي هذا لا يروق الذين
اتخذوا السياسة حرفة وهم ممن طلبوا رزقهم من المخطاط الأمة وضعف مدارك
الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم في بقاء الناس دائماً على حالة يشبهون فيها
القاصرين حتى يتيسر لهم ان يكونوا عليهم أوصياء) .
نعم يتيسر حل المسألة الاجتماعية بتنشئة ابناء الامة على حب الاستقلال
في الحياة لا على الاتكال على الحكومات وجمعيات البر او اسخياء القوم .
دب داء الكسل في نفوس العرب الا قليلاً فكان قصارى كل متعلم ومتعلمة
ان يطرق ابواب الحكومات للاستخدام . ولو قد هيء لهم ان ينزعوا الى

الاستقلال في تحصيل عيشهم لكان رجحهم أضمن وحياتهم أرغد ولتغوا بحريتهم ،
والحرية لا توازيها لذة من اللذائذ ولا نعمة من النعم . في اليوم الذي
يتعلم فيه ابن الزارع وابن التاجر وابن الصانع ما ترقى به صناعة أبيه
ويظل الزارع على زراعته والتاجر مشغولاً بتجارته والصانع مأخوذاً بصناعته
لا يتعدونها الى غيرها نعد من الراقين في مجموعة الشعوب . ومن أخرجته
على الاغلب من صناعة أهله فكأنك نقلته من القطب الجنوبي الى القطب
الشمالي فجأة .

رأيت كثيرين في مصر والشام عزفت انفسهم عن الاستخدام وراحوا
يعتمدون في عيشهم على قطعة من الأرض تفننوا في تعهدها ، فأقتهم بما
عاشوا به في هناء ، وخلصوا من عبودية الاستخدام ، وضيق الرزق المحدود
الجامد . وتحدثت الى عشرات منهم فشهدتهم جددوا طرق استثمار ما يملكون
فكثر ريعه كثرة فاقت المأمول . سقياً ورعياً ليوم تضطر فيه الحكومات
العربية الى عرض الوظائف ولا تجد راغباً فيها كما وقع في فرنسا في
بعض الادوار ، انصرف الاذكياء الى الاعمال الحرة في الشركات وغيرها
وابتعدوا عما فيه رائحة الرق في دواوين الدولة فاغتنى المستقلون واقتقر
الاتكاليون . قد يعذر الاتكالي في بلد ضيق الرقعة محل التربة اذا زج
بنفسه في الحدم المقيدة اما اذا كانت الثروة ماثلة للعيان امامه لا تحتاج
الا ان يتعب نفسه قليلاً ليعيش ويحصب فلا عذر له .

قال لي احد اعيان المصريين من رجال المال والاعمال ان والدي
خلف لي في قرينتنا افدنة قليلة فما زلت اعمل مدة اربعين سنة في زراعتها
حتى اتى علي زمن أصبحت أملك ألوفاً من الافدنة . وتعجبون اذا قلت
لكم اني ما طلعت علي الشمس خلال تلك الأيام الا وانا في (الغيط) على
رأس عملي وفيه افطر واتفدى وقد اتعشى . وكان ابي يمنحني كل سنة
اجازة شهر ويدفع اليّ قائمة بما يجب ان نبتاعه من البنادر والخواضر
فكنت اصرف اجازتي في تسوق ما يلزمنا من متاع وادوات واعدود الى
عزبتي لم استفد من اجازتي الا اقتناء ما كان لازماً لزراعتنا وبيتنا .

وباطل ان اقول ان هذا الصدر العظيم لو نشأ مستخدماً حكومياً وغفل عن تعهد زراعته بنفسه لكان اليوم افلس من المزلق .

رأيت في القطرين اناساً من أرباب المدارك يتخلون عن ادارة مزارعهم بأنفسهم لياتوا الحواضر للاستمتاع والاستجمام ، ينفقون ضعف دخلهم ويضيعون جانباً من غلاتهم يتركونها للوكيل والحولي ، وغاية امانهم ان تسجل اسمائهم في سجلات الحكومة ، وفي مصر في جريدة الرتب والنياشين والتشريفات ، وأكثر المصريين جنوناً في الظهور من ينفقون العشرة والعشرين الف جنيه ليصلوا الى النواب او الشيوخ او مجرزاو القبايشا اوبك .

أقل نظرة من صاحب الرزق يلقيها على أرضه وشغله تأتيه باضعاف ما يأتيه العمل الحكومي . لي صديق من أعيان الشرقية غادرته وهو لا يملك أكثر من خمسين فداناً وهي مرهونة في المصارف ورجعت عليه بعد سبع وثلاثين سنة وهو يملك خمسمائة فدان قطعة واحدة من أجود الأطيان ، فسألته عن سر غناه فقال مسألتان الاولى اني كنت اذا استندت من بعض المصارف مالاً لابتياح أرض او تحسين زراعة أدفع التقاسيط المستحقة في مواعيدها ، الثانية اني كنت كل يوم اطوف على زراعتي ثلاث مرات ولا أتكلم على عامل ولا أجير ، وهذا سر نجاحي .

ليست جميع الثروات الضخمة التي نشاهدها في مصر والشام وتعجبنا كثرتها هي كلها ابنة المصادفات بل هي وليدة الجدوالكد على الأغلب ترا كمت في السنين الطويلة ونسج فيها الابن على منوال ابيه بتسلسل واطراد وكان صاحبها على جانب من الدماثة والثقافة ، تعرفت الى عشرات من الاغنياء الاستقلاليين فلم أستغرب ما وصلوا اليه ورأيت من فريق الاتكاليين عشرات جعلوا اجل اعتمادهم على غيرهم فأصيبوا بالفقر والحرمان وخلفوا لأولادهم الفاقة والبؤس . وان قليلاً من التفكير يصرفه الرجل في تنمية حقله ومعمله يعود عليه بارباح قد لا يقدر مقدارها الا بعد ظهور نتائجها ، وكل حركة في طلب العيش لا بد أن تعقب بركة .

سويسرا المحبوبة

ليس في الممالك الكبرى والصغرى في الغرب بلد محبب الى القلوب كسويسرا (هلفسيا) اتفقت كلمة من زاروها من الشرقيين والغربيين على انها من خير بقاع الارض ، مانزلها غريب الا ودّ لو صرف فيها بقية حياته او رجا ان تطول مدة مقامه فيها وكثيراً ماوصى بعضهم ان يدفن فيها .
ماهو سر هذه المحبة وفي الارض اصقاع جميلة فيها مالسويسرا من ذلك ؟
فيها مصايف ومشات ، وفيها رفاهية ونعيم ، وفيها هدوء وسكون ، وفيها غابات وبحيرات ، فيها كل هذا واكثر من هذا ولكن ليس لها طيب اخلاق السويسريين . ومن اجل ذلك تعشق أرضهم أجيال الناس (راجع فصولاً لنا في سويسرا نشرت في كتابنا غرائب الغرب)

هناك جمهورية ولا كالجمهوريات جمهورية كالسويساء في الرقعة البديعة ، وهناك ديمقراطية ولا كالديمقراطيات ، نشأ ابناؤها منذ قرون على حبها وفداؤها بأرواحهم وما حادوا عن قوانينها قيد شعرة . هناك شعب شريف ايسر ما يوصف به انه زبدة صفات ممتازة ، لايعرف الغش ، ولا يدخل في الفضول ، ولا يرتكب جريمة الكذب ، وهناك مجموع بيوت نبيلة تمقت الحرب لاتيحيز قتل احد ، ولا ترى المجد والعظمة الا في اجراء العدل والاعتراف بالحق ، والظهور بمظهر المرورة والكرامة .

السويسري سعيد في بلده يشعر بهذه السعادة ، ويحمد المولى عليها ويطلب اليه دوامها ، سعيد لانه يعمل ولايكسل ، وماحدثته نفسه ان يعتدي حتى لايعتدي عليه ولا ان يستعمر ارضاً ليست له ، ولا أن يطيل يده بالاعتداء على ملك غيره ، يسير على الفطرة ويألف السداجة وحضارته سهلة لاتعقيد فيها ، اذا حاولت ايجاد مثلها أعتك الخيل لانها من جنس الحضارات التي رقيت مع الزمن لم ترتجل ارتجالاً ولم تنقل عن الغير نقلاً . والعلم فيها موفور مبدول تفيض منه

على جيرانها وعلى كل طالب يقصدها ليأخذ عنها ، وفيها سبع جامعات لاربعة ملايين من الانفس ينزلون في ارض مساحتها (٤١٣٤٦) كيلو متراً ومعظمها جبال وبحيرات ، وهذا لم يعهد في ارض غير ارضها . ولما كانت تربية السويسري المثل الاعلى اعتمدت بعض الشعوب في تنشئة ابناءها على مدارس سويسرا كما اتخذت بعض ملوك اوربا منذ اقدم العصور من هؤلاء السويسريين حراساً لهم وجنداً مأجوراً لان السويسري صادق العهد لانيون .

تحيط بسويسرا اربع دول كبرى (النمسا والمانيا وفرنسا وايطاليا) وكلها دول حربية لاتكاد تنطفيء جذوة حروبها ، ومع هذا تحسن سويسرا جوارهن احسانها لفاصديها ونازليها ذلك لأنها تنظر الى الخلق نظراً واحداً فيه حرمة وفيه عطف ولا زهو فيه ولا عتو .

السنا على حق اذا ادعينا أن ما وزع من الفضائل على أهل دولة كبرى كفرنسا او المانيا او انكلترا او الولايات المتحدة قد استأثر سويسرا وحدها بما يوازيه او يزيد عليه مع مراعاة النسبة هذا على ضيق رقعتها وقلة اهلها . فسويسرا مثال أمة تحب الحق وتدعو اليه وفيها من مظاهر الرحمة قسط كبير على ما يتجلى ذلك في تاريخها المجيد . مثلاً من رحمة أهلها . حدث في القرون الوسطى ان هجم قائد نمساوي على الأرض السويسرية في جيش ضخيم ، وكان هناك جسر على احدى البحيرات لا مناص من اجتياز الجند النمساوي عليه واتفق أن وقع ضغط شديد على الجسر فسقط بمن عليه من عسكر فما كان من السويسريين الا أن تركوا القتال وأخذوا ينقذون أعداءهم من الغرق والسهام تصوب الى صدورهم فدهش القائد النمساوي لهذه الشفقة التي بدت من عدوه ورجع عنهم وقد اعطاهم كل ما سألوه . ووقعة اخرى جرت في الحرب العالمية الأولى وقد اصبحت سويسرا معتمداً للأمم كثيرة حتى غدا عدد اللاجئين اليها والنازليين فيها مليون غريب وانتطعت المواصلات مع كل بلد فعز جلب المال وجلب الذخيرة ، وكان السويسريون في الحرب يستجدون الخنطة من الممالك المجاورة استجداء وهي تطعم منه هذه

المليون من الأنفس وتعطيهم رواتب تكفيهم ، وتؤويهم كأنهم في بيوتهم وبين أهلهم ، وأرجأت حناناً منها تسديد هذه المبالغ الضخمة التي تنفقها على الأجانب الى ما بعد الحرب .

حرية سويسرا مستقيضة على كل من يعتصم بها لا عبث فيها ولا لغو لذلك وجدت البروتستانتية الأولى معتصماً فيها وكانت للمذاهب السياسية المختلفة حمى منيعاً . يكثر الضجيج في انتخاب مجلس كل أمة ويسفر عن انتشار روح العداوة بين الأهل والعشير ، وسويسرا المتزنة في اقوالها وافعالها لا عهد لها بهذا ، لا تعرف الا السلام حتى صح ان تدعى جمهوريتها جمهورية السلام .

صناعة الفنادق

أويت الى فنادق وأنزال في الشرق والغرب منها ما كان من الدرجة الأولى ومنها ما يعد من الدرجة الثانية او الثالثة فرأيتها كلها تسيير على نظام بديع فيها من اسباب الراحة كل ما فيه متاع للجسم والروح . ومن كان يظن ان أرقى ما عندنا من الفنادق اذا قيس بما عند الاميركيين منها يعد عادياً . تعرفت في دمشق الى مدير شركة كوك للسياحة فسألته عما اذا كان يصحب سياحاً فقال : نعم سبعائة اميركي . فقلت له : وأين هم الآن ؟ فقال خرجوا الى البر من باخرتهم وزاروا بيروت فلم تعجبهم فنادقها وعادوا الى سفينتهم ليبيتوا بها ، وسكت واكملت حديثه في نفسي وقلت : اذا لم تعجبهم فنادق بيروت فمن باب أولى ألا تعجبهم فنادق دمشق وغيرها من فنادق الديار الشامية . ثم فكرت وقلت : ترى كم خسر بلدنا بامتناع هؤلاء السائحين من نزول فنادقه .

يظن بعضهم أن القيام بادارة فندق على ما يجب من الأمور السهلة وما ادارته الادارة حكومة مصغرة أو شركة كبيرة متشعبة بل أن الفنادق اصعب

ادارة لان فيها من صنوف الحاجيات والكماليات ما لا يكاد ينحصر ، ومن الصناعات ما يتناول معظم المخترعات الحديثة .

ومدير الفندق يتعهد كل ما فيه من دقيق وجليل وهو وحده المسؤول أمام نزلائه وأمام حكومة بلده ولذلك اقتضى ان يكون على علم بفروع مايتطلبه السائح من ضروب الرفاهية وما يحتاجه من الاستعلامات ويتطلب صاحب الفندق الادلاء به على البديهة وهذا مايستلزم ذاكرة وحافظة ومعارف كثيرة عن الشعوب والدول والقوانين والاقتصاد والمالية واللغات والجغرافيا والطوبوغرافيا والتاريخ والاجتماع والسياسة وطرق المواصلات البرية والبحرية والجوية .

برزت سويسرا في هذه الصناعة على سائر الشعوب الغربية حتى ان بعض الفنادق الكبرى في انكلترا ومانيا وايطاليا وغيرها توسد ادارتها للسويسريين كما تدار في حوض البحر المتوسط معظم المقاهي بأيدي اليونان لاشتهارهم بالنظافة ورقة الجانب واستجلاب رضا الزبون .

فصناعة الفنادق جليلة في ذاتها يعني بها من وراء الغاية في ديار الغرب لما تدره من الارباح الطائلة على القائمين بأمرها ، ولايضمن ذلك للشركات والأفراد ان لم تتخذ لها عامة أسباب النجاح ويجري التجدد في طرائقها كل مدة يراعى فيها الذوق والطرافة والهناء . وهذا لايتأتى الحصول عليه الا بعناية فائقة ومعارف متنوعة ونظام دقيق اذا اختل طرف منه يكاد يسري الخلل الى سائر الأطراف ويكون الافلاس مصير الفندق المحتل .

يدير الشاميون فنادقهم بأنفسهم ، والأجانب يديرون الفنادق الكبرى بمصر لعجز الوطنيين عن ادارتها . وما كان الشاميون عريقين في صناعة الفنادق وأتقنوها بعض الشيء في العهد الأخير . اما المصريون فلم تنزل الطبقة الراقية منهم لادارة الفنادق تأخذها عن الغرب باتقانه المعروف حتى يدبروا بأيديهم فنادقهم وتدر على الوطن الارباح العظيمة التي يجنيها الغريب . اذا تعلم العرب هذه الصناعة وبرعوا في فتح الانزال والفنادق تقرب روابط

الشعوب ويتعارف التزلاء وتتوسط العلاقات التجارية وتوفر لأرباب الرحلات راحتهم وتحديثهم أنفسهم بالعودة الى ذلك الفندق كلما عن لهم ، وتنقل من حسنات المدينة ما فيه منافع كثيرة للناس .

ابو حنيفة والاشياء

ذاق عيش مجرية طرابلس الشام زمن الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) لانقطاع الصلات مع البحر فقام تاجر خشب من صالحى أهل تلك الفرضة اسمه الحاج مصطفى حوَّلاً وأخذ على نفسه اطعام مائتي شخص كل يوم من سكان بلده خلال أربع سنين . نوهت بهذه المكرمة في جريدة الشرق ثم نقلت ماقلته فيه في كتابي القديم والحديث .

ذكرت هذا الاحسان لأدبيين من المشايخ فكان مما انتقده الاول من سيرة هذا المحسن انه كان قبل ان يتجر بالاخشاب يصنع القباقيب وانه كان في شبابه يتعاطى المسكرات . وكان من الثاني الا ان قال ان عدد من يطعمهم مبالغ فيه ولعلمهم لا يتجاوزن العشرة انفس . اراد الطاعن الاول الحط من صاحب هذه الحسنة فمدحه وما كان من وصلت به حرقته مها كان نوعها الى الغنى ومن كاث مستهتراً بالشراب في صباه ثم تاب وانا اب الا أهلاً لكل ثناء واعجاب . اما الذي ألقى الشك في عدد الآكلين ليقول من شأن هذا الاحسان فانه على ما يظهر قاس هذا الكرم على نفسه فاستعظمه وحسد فاعله وهو الذي ما أثر عنه ان تصدق بقرش على محتاج ، وربما كان ممن يعتقد ان من يخرج من مثل هذا القدر من المال برضاه يجب ان يعد في الجانين لا في العقلاء . والظاهر انه شق على الرجلين ان يفهم العامي من تعاليم دينه أكثر مما فيها وهما من طبقة اعتادت ان تأخذ ولا تعطي شأن معظم الموظفين يعتقدون أن الامة ملازمة باكرامهم واهدائهم وهم غير مضطرين ان يحسنوا الى فقرائهم حتى في أشد الازمات (لكل امرئ من دهره ما تعودا)

عمل نافع

قلت لمستشار الزراعة السيد آشار (وكان يؤكدي انه يفار على مصلحة الفلاح) ان الهمة التي بذها السيد جميل الدهان متصرف حمص في تشجير اللواء من أعظم ما عهد لرجل من رجال ادارتنا فاجاب لاتصدق ما يروى هذا : عمل مسطور على الورق فقط . فقلت له اني رأيت بعيني الشجر نامياً ونضرا ودخلت الغابات الجديدة وفحصتها فحصاً دقيقاً . ولعل حكم المستشار نشأ من ان المتصرف احسن التصرف باتكاله على نفسه اكثر من اتكاله على الحكومة المنتدبة ، انتفع منها ما استطاع ان ينتفع وراح يحث قومه على اتباع الغراس يجلبها لهم من الاصقاع التي تجود فيها ، وما استعان بحكومته الوطنية الا في بعض الاحوال التي لا بد من مراعاتها .

كانت عمالة حمص قبل ان يقوم هذا العامل بمشروعه تعمى عيون اهله من الغبار طوال ايام الربيع والصيف والحريف ولا يجدون حطباً يحتطبونه لطبخهم وخبزهم ودفنهم فيعمدون الى روث البهائم يجمعونه بأيديهم ويحفظونه ويسمونه « الجلة » وبه يوقدون وبه يستدفئون فلما جاءت هذه الغابات الغيباء كان لهم منها وقاية لصحتهم وغذاء لاجسامهم وانتفعوا بشمرها وحطبها ثم انهم اقتصدوا من روث الحيوانات فجعلوا منه سماداً زاد في خصب اراضيهم وقد بلغ عدد الاشجار المغروسة في مأتين وخمسين قرية ملايين . خصت الاراضي البعلية بالزيتون والفسق واللوز والتين والرمان والكرم واقتصرت اراضي السقي على الجوز والمشمش والتفاح والخوخ والسفرجل والدراق . هذا ماتم على ايدي المتصرف المجتهد في ثلاث عشرة سنة وكنت اذا اثنت عليه امام بعض رجال الادارة يمتعضون من تصريحي ويحاولون تقليل قيمة عمله ، شأن الخامل عند ذكر العامل والجاهل اذا نوى كيد العالم . وما كنت اقصد - وكلامي يومئذ مسموع لان عليه مسحة رسمية - الا ان

أبعث همهم على حث الاهلين على التشجير حتى نبني ثروتنا على اساس متين وندخل الى الغنى من ابوابه . وكنت اجهر بقولي ان وظيفة صاحب الادارة تنحصر في عدة مواد اهمها تمهيد الطرق وبناء الجسور والمعابر وانشاء المدارس ودور الحكومة والمحافر واسالة المياه وتخفيف المستنقعات والتشجير ، لاصرف الوقت في حوالة الاوراق وكتابة التقارير المملقة وارضاء المرجع بالحق والباطل .

وأخبرني احد الاخصائيين بالزراعة ان هذه الاشجار الكثيرة في لواء حمص لم تسلم كلها سبط عليها الاهوية فقلعت بعضها وكان الاهلون يقلعون البعض الآخر للانتفاع بارضها . ومن العادة الا تسلم كل شجرة تغرس ولو كانت في مأمن من اعتداء البشر والطبيعة عليها

دار الكتب المصرية

عُنيَت هذه الدار بطبع أمهات من المخطوطات العربية على طريقة علمية عورض منها الذي يراد نشره على النسخ المختلفة التي أمكن الحصول عليها ، وشرح المبهم من عباراتها ، ووضعت الفهارس المنوعة لكل كتاب حتى يسهل الرجوع الى مواده . وأصبحت المجموعة التي نشرت من أهم مصادر المؤلفين والباحثين في الأدب والتاريخ والشعر والرجال ، وكانت بعض الكتب تقع تحت نظر بضعة من العلماء بعد تصحيح المصححين في المطبعة فيظهر فيها قليل من الاغلاط ولا سيما في اسماء البلدان .

أما البطء في العمل فقد تعذر على الادارة تلافيه ، وجاوز الحد فارتفعت شكوى عشاق الكتب منه وهم يشتاقون لتناول ما بقي من الكتب التي بديها مندسنين . والسبب في ذلك أن المسؤوليات تضيع في الأماكن الرسمية وقل أن يكون فيها الاتقان تاماً ، والتسامح ان صح في ذلك فلا يجوز أن يكون في اسفار يراد من طبعها الاتقان الذي لا يقدر الافراد علي

تحقيق مثله ، ولو كانت مثل هذه التسهيلات التي تتمتع بها دائرة حكومية
لجماعة او شركة لأنتجوا اكثر مما انتجت دار الكتب ، وباتقان قد يكون أيضاً
اعظم من اتقانها .

وبعد فلو كانت وظيفة مدير دار الكتب المصرية تطول عشرين سنة مثلاً
لسدّ النقص المشاهد في معظم فروع ادارة هذه الدار ، ولكن وزارة المعارف
المصرية لا توسد ادارتها الا لرجل كادت تنتهي خدمته الرسمية ، ومنصب المدير
هنا يقتضي له تجارب كثيرة وعلم بهذه الصناعة الصعبة ولا تكفي فيها المشاركة
الوظيفية ، والنتفة غير المحقق .

من أغنى العربية

أغنى اللغة العربية افراد وضعوا لمفردات العلوم الفاظاً عربية ما كان
المدرسون يعرفونها واحيوها بوضع ما يقابلها من اللغات الغربية امثال رفاة
الطهطاوي ومحمود الفلكي وسالم سالم وشفيق مقصور ومحمد مختار وعلي رياض
ودرّي وقدري واحمد فارس وسليمان الحريري وفانديك وبوست ويعقوب
صروف وابراهيم اليازجي وابراهيم المصوّر واحمد عيسى وامين المعلوف ومحمد
شرف وانستاس الكرملي وداود چلي وشكيب ارسلان ومصطفى الشهابي
ومصطفى نظيف ومرشد خاطر واحمد حمدي الحياط وحسني سبج ونجيب شاهين
وجميل صليبا وصلاح الدين الكواكبي وجميل الخاني وعبدالوهاب القنواقي الى
ضربائهم اصحاب الفضل العظيم على العربية والنهضة العلمية . ولا ينكر فضل
المجامع العلمية في توسيع دائرة العلوم واذا نشر ما وضع بمختلف طرق النشر
سرى ما وضعوه في التأليف والصحف وعلى الالسن فتزيد اللغة اتساعاً وتعنى
بالعلميات كما هي غنية بالادبيات .

كثرة الاصحاب

نصح لي استاذي العلامة محمد المبارك يوم وفاة والدي الا أستكثر من الأصحاب وأن اجتهد ان كان لي خمسة ان اقتصر على اربعة لا ان اجعلهم ستة لان للاصحاب حقوقاً لا بد للصاحب من مراعاتها اذا اخل بشروطها كان من الخائفين على الصداقة ، وان حرص على القيام بما تستلزمه أضع وقته وعمره . نصيحة صعب على كل الخلق العمل بها تنفع بالأكثر من اراد العزلة والاشتغال بخويصة نفسه ، وهي نصيحة صوفي لصوفي والمجتمع يتطلب غير هذا ، ولو عملت بها لظلت العمر أجول في دائرة ضيقة ولفاتني امور لا أصل الى معرفتها إلا بالاختلاط وصرف زمن في ممارسة ما ينفع الوقوف عليه . حقاً ان الاسترسال في الاكثار من الاصحاب مضيعة للوقت ، وفي العزوف عنهم بعض الراحة . والاختلاط او العزلة تبع للصناعة التي يعانها المرء . فقد نشأت صحافياً والصحافي اكثر الناس حاجة الى التعارف .

وكنت الى اواخر العقد الرابع من عمري أفرح اذا زاد عدد أصحابي ، وبعدهذه السن أصبحت نفسي تعزف عن الاستزادة من الخلان والمعارف ، وتشمئز من كل من يرمي في مصادقي فائدة له خاصة . ومعظم من تصحب يحرص على صداقتك مادام من ورائها مغنم له فاذا انقطع كانوا أزهد ناس في مجلسك .

المرء في حاجة الى اصحاب في فرحه وترحه وفي حله ومُرتحله . يحتاج أبداً الى من يأنس اليهم ويأنسون اليه ، ويبادلهم الأفكار ويحيل معهم الرأي ، ولا تضره كثرتهم بقدر ما يضره سوء اختيارهم ، وليس أشق على المتصادقين من عدم المشاكلة في التربية والعقل ، والصداقة تقوم على تسامح الصديقين حتى قال بعضهم ما رأيت صديقين دامت صداقتها الا كان احدهما متنازلاً عن بعض ما يجب له على صاحبه .

الباب المفتوح

لي صديق قديم عجم عود الناس وأصبح على الزمن بمن يرجع الى آرائهم في معرفة نفسية الطبقات ؛ عَنَيْتَ ابا درويش السيد مصطفى سويد رجل الخير والظرف ، أخذ منذ مدة يلومني ، والاخلاص رائده على ابتعادي عن المدينة واتخاذ القرية سكناً ، ويقول انه لا يرى معنى لاعتزالي هذا بعد أن تمت بعض ادواتي من التجارب والمعرفة ، وصار لي شهرة في الاقطار ، ورأي مسموع بين جمهرة من الشبان والكهول ، فمن واجبي أن أجلس في بيتي في الحاضرة وافتح بابه لاستقبال الضيوف ولقاء الواردين . فكان جوابي كل مرة ان لبدنك عليك حقاً ، وانا عند نفسي قد قمت بما فرض عليّ في هذا الشأن ، وواجبي بعد الآن ان استريح والا أدخل في مسائل لأحب أن أدخل فيها ، والا أرى وجوهاً لاتميل نفسي لمواجهتها ، وغرامي ان أصرف الأيام الباقية من عمري فيما يلذني ، وليس اجمل مشغلة من الانقطاع الى النظر في تأليفي والعناية بطبعها .

ووقع لي مؤخراً ما يصح ان يكون منه حجة اخرى او تنمة لجوابي على كلام صديقي هذا . ذلك أنه زارني في القرية وقت الظهيرة في الصيف شابان من طلبة العلم الديني في عشر الثلاثين من العمر على غير معرفة سابقة ولا توسط متوسط للوقوف على ما اذا كنت ارتاح لهذا التعارف او لا أرتاح ، وأخذوا يوردان عليّ أسئلة ليس من السهل الاجابة عليها في الحال ، ولا من الحكمة أن يبوح بها المرء لمن لا يعرف ، ويطلبان رأيي الصريح فيها يحاولون مثلاً الاطلاع على تراجم من عنّ لهما الوقوف على تراجمهم من الرجال البارزين في السياسة والدين ومن طبقات المحدثين والاقدمين . ولما ضاق صدري من اصطياذ ما يبغيان اصطياذه قلت لهما : ان هذه الاسئلة يقتضي لها عشرون جلسة على الأقل وما يدريني اذا أنا صرحت بما تريدان أن

تنشرا اقوالي في الصحف فأخرج عن التوقي الذي يتطلب من الشيوخ . ساقني الى هذا القول أن رأيتها يطعنان في بعض كبار الرجال المعاصرين ولا يدركان من ماضيهم وحاضرهم شيئاً صحيحاً مما يدل على خبرة قليلة بالرجال ، وظهر الانتباض عليّ وذكرت لهما اني في دور النقاهة والواجب أن أقبل واستريح فصرفتهما عني صرفاً ليس فيه شيء من النعموة التي اعتاد الدمشقيون الظهور بها حتى مع اعدائهم .

أهكذا يريد صديقي البار ان أهدر وقتي في رد مسائل كهذه ، وكلام فارغ كهذا ، وأنقطع في داري لأستقبل امثال هذين الشابين اللذين اثبتا انها لم يتعلما أبسط قواعد الاجتماع . ولو قدر الله أن اسير على هذا المنهج لما اتيت بعمل نافع ، وبعد فأنا اذا اعتقدت ان ماجريت عليه مما ينطبق على العقل لأحيد عنه لأقوم بما لا اري من نفسي استعداداً للقيام به . وعلى ذكر الباب المفتوح اري ان أشير الى من اعتادوا الاجتماع الى اصحابهم في أندية مفتوحة او في حديقة عامة او ثويي او نديي اجتماعاً علنياً ، أن مثل هذه المجالس لا بد ان يدخلها طفيليون ينفصون صفاء المجتمعين وينقلون أخبارهم ويتجسسون عليهم . وأمثال هذه المجالس كثيراً ما كنت أعمل على تقليل شرورها ولاسيما في الاوقات التي ماكنت استغني فيها عن الاستئناس الى اصحابي . وجرت عادي في الأزمات السياسية ان اتجنب الناس ، وحدث في احدى الثورات الاخيرة ان جاءني من قدماء جيرانني شخص اعرف درجته ودرجة اسرته من الأخلاق وكان من عادته ان ينقطع عني اعواماً ثم يوافيني مستعلماً عن صحتي متشوقاً الى طلعتي ، ويسأل عما يهيمه من الاخبار وهو ممن لا يعنون باكثر من طعامهم وشرابهم ولذائذهم ، وسألني علناً : ونحن ماذا يكون مصيرنا ؟ وكان ذلك ايام خروج الفيشيين من سورية واستلام البريطانيين زمام الحكم فقلنا له جميعنا : الله اعلم ، وغمزت بعضهم ان يسكوا ولا يفيضوا مع الداغر علينا . ومن الغد عاد يزورنا ووضع سؤاله بالأمس - ونحن ماذا يكون مصيرنا ؟ - وأجبناه بما كنا اجبناه في ثاني يوم وفي الثالث جاءنا بالنعمة ذاتها فتبجحهم له بعض جلسائي وفي اليوم

الرابع أقلت الباب وحرمت اخواني ثلاثة اشهر كوامل . وكان اصحابي يستغربون بعدي عن الاصحاب وانا اعدهم بأن أبوح لهم بالسرم متى حان الوقت وعدنا بعد ذلك الى ما كنا عليه من الاجتماع نخوض في احاديثنا ولا نقطعها الا اذا دخل علينا انسان لانعرف ترجمة حياته ومن هذه الطبقة من توقيناه واستعملنا لسان التمويه في خطابه فظهر بعد حين انه من الجواسيس كما تفرسنا فيه من اول الأمر ، وربما كانت احاديثنا وهي مغموسة بشيء من الحرية تضرب بعض الحضور في اعمالهم وعلاقاتهم مع الحكومة اذا نقلت الى من يبني عليها احكامه وحكومته .

في عالم الامم

في ليلة من ليالي كانون الثاني حلمت حلماً لذيذاً وددت لو طال أكثر مما طال . رأيت كأن الجمهورية تبدلت سياستها ، وصلحت تراتيبها وادارتها ، بأسباب تعدد من الخوارق وما هي بها . قام الاصلاح من دون مظاهرات ولا مشاغبات ودون ان تمس الأوضاع وتبدل الأنظمة ، فدهشت لما رأيت وتجاسرت وسألت اول من وقعت عيني عليه ، وكان رجلاً ذا سمع حسن ووقار ورزاق ، توسمت فيه العقل والحكمة فقلت له : اني لأعجب بما ارى من هذا التبدل الفجائي فكيف تم يا اخي هذا من دون ما ثورة ولا تغيير وزارة ، ولا حل مجلس وانتخاب آخر ، فقال لك الحق ان تعجب بما ترى ، كل ذلك لم يحدث شيء منه ، ولا ازعج وطني ، ولا خرب شيء ولا تلف مال ، ولا صرف وقت ، وتحقق ما كان العقلاء يرجونه ويستبعدون الوصول اليه حتى كادوا ان يقنطوا .

قلت : والله يا اخي لقد دخل الملل على قلبي لكثرة ما طالبت الحكومات باجراء الاصلاح ، ولم تحقق لي الايام بعض ما كنت ارجو ، مع اننا وصلنا

الى آخر المراحل بالنظام الجمهوري الذي قام بيننا ونحن ما طلبنا غيره
لعلنا يانه اصلح انواع الحكم .
قال : وانا مثلك يا صاحبي جد متعجب مما جرى ، وفرحت بتوفيقنا
فرحاً لا مزيد عليه ، فرحت لما تقدمنا به من خطوات خطوناها وما ظننت
انها تتم على ايدي هذه الطبقة من الرجال لأنهم الا القليل جداً لا يفكرون
إلا في اشخاصهم فقط ، وقل ان ترى فرداً فيهم يفكر في الأمة ومستقبلها ،
ورجال هذا شأنهم لا نرجو منهم ان يقوموا بما ينفع ، وفاقد الشيء لا يعطيه .
قلت : عجبت من نزاهة محسوسة شاهدها في القضاء على اختلاف
درجاته ، وكان بعض القضاة بالأمس ملوثين بالرّشا ، يقضون على هواهم
بلا مراقب من ذمتهم ولا من وزارتهم ، وكان القضاة اوسوادهم الأعظم
يسارعون الى التهام الرشوة قبل غيرهم ، واليوم يقضي القاضي وهو يحسب
لقضائه الف حساب ، يقضي وهو يخاف ربه ، ويخاف ان يمح به هواه
فيخالف العدل ، يقضي بدافع من نفسه لا يخشى المفتش ولا امين الوزارة
ولا الوزير ولا الرئيس . قال : وهل عندك علم بما وقع فقد انحلت بعض
الحل تلك الشركة التي تعاهد الشركاء فيها على الحق والباطل ، وكان من
اثر ذلك ان وصل القضاء الى هذه الدرجة من النظام ، وشاهدنا العدل عياناً
على ما شهدناه في محاكم مصر فانقلبت هيئته في العهد الانكليزي وكان
من قبل مهزلة من المهازل ، فما هي الطرق التي اتبعها رجال الجمهورية حتى
انقدوا القضاء من ذلك الخلل المبكي ؟ قلت : لا يعلم الغيب الا الله .
اما ما جرى فليس من علم الغيب في شيء وما هو الا من المحسوسات
المهموسات ، ما فيه ما يعد من المعجزات ، بل هو طبيعي الحدوث ليس فيه
ما يستغرب هو اشبه بالقضايا المنطقية تخرج النتيجة اذا صحت المقدمة قوية
صحيحة . ان القوم على ما تبين لي عرفوا الخطر من هذا الاهمال فتخلوا
قليلاً عن حظوظ انفسهم ونظروا الى المصلحة العامة بجد فأخرجوا من
الخدمة بعض الخائنين فارعوى الآخرون ممن كانت ذنوبهم خفيفة يمكن
اصلاحها وأتوا بمن ينفعون لتولي المناصب الكبرى وهؤلاء ساقوا من تحت

أيديهم الى السداد ونصبوا اطيب طبقة من العمال ، وكان الصغار من قبل
يفسدون الكبار والكبار يسكتون عنهم اذا رأوهم حادوا عن الطريق
المستقيم ، يملون لهم ما شاؤوا أن يملوا ، يتركونهم يسرقون ويضيعون الحقوق
ويشاركونهم في سرقاتهم وهم يؤدون اليهم قسطهم من الغنيمة ويعاونونهم
على ما ربه من باب أضيء لي أقدح لك ، وتنحصر فلسفة كل هذا في جملة
مختصرة وهو أن ولاية الأمر عزموا على ترك المصانعات وأخذوا باطراف
الحزم فنفذوا العقوبات على كل صغير وكبير ، فسلمت ادارة الحكم من
لوثاتها بعد قليل ، وكان بعض الوزراء من رجال القانون في سبيل النفع
الشخصي يلتمسون الخارج لاستصدار العفو عن القتلة كما كانوا يفضون
الطرف عن لصوص العمال ، أطلقوا لهم العنان حتى كسروا عظم الرعية
وعرقوا لحمها ، ولما رجعوا الى العقل وحذفوا من موازنة سنة واحدة ثلثها
ولم يعتبر الاحوال تبدل وقضوا على الحكومة السابقة وعلى غلوها في فرض
الضرائب ينعم بها القائمون بالدولة جرت الامور في نصابها . وكان سكا
بعض ارباب معامل السلاح في الغرب أن بعض رؤساء حكومات العرب ،
وطعنوا في أمانتهم ، طلبوا اضافة مبالغ على قوائم ما يبتاعونه من معاملهم
فردوهم لأن ذلك يضر بسمعتها ويؤذي تجارتها .

العالم من دون عقوبة يعمهم الفساد وتنتشر الفوضى بينهم ، ويحتل عمود
العدل ، وتضطرب أحوال الملك ، ومتى انقطعت آمال الامة من احقاق الحق
وازهاق الباطل لا تدري ما هي فاعلة . قال : اني الى الاعتقاد بأنك تبالغ في
وصفك هذا واني أحب أن أصارحك وقد رأيتك على شيء من التجربة فأقول :
وماذا يترتب على انتفاع العامل بشيء من المال ينفقه على عياله وانت تعلم ان
راتبه قليل وكذلك المدير والوزير اذا عقدا أحدهما صفقة وتناول منها مبلغاً
من المال يعنيه أو يستعين به يوم الانتخابات لابتياح الاصوات أو يجعل
منه مجوهرات يهديها لمن يتوقع الخير على يده أو يجمع مقادير عظيمة من
الحبوب أو الارز أو السممن يهديها لاصحاب المطابخ الكبيرة يعاونهم على

الظهور بمظهر يطعمون فيه وهذا يقابله على هديته بكلام فيعود القرش عشرة عشر على الهادي وهكذا الناس ينفع بعضهم بعضاً .

قلت : ان ظاهر كلامك لا بأس به الا انه لا يقنع عقلاً ، وهذه الاعمال كلها محرمة في الشرائع والمتدينون والمدنيون يحدّون من ارتكابها . ومن يهدى اليه اليوم ويقبل الهدية لا ينجيه من تبعها الا هدى سيد المرسلين في قوله لمن رآه يتناول مالاً من الرعية لنفسه وقال انه أهدي له : هلا قعدت في بيت أبيك وأمك وقلت انه اهدى اليّ ، وتقول ان الرسول قبل الهدية لكن كان يقابل عليها وهؤلاء المستهدون هل قابلوها مهدياً على هديته الا أن يقابله بكلام كأن يشهدوا بحسن حال من أهدي اليهم ويؤيدونه بالباطل في المآزق ليبقى في الحكم اكثر مدة بمكنة .

وقاطعني فقال : انت تريد ان تعيدنا الى عصر الصحابة في الحكم هذا عصر لا يعود ولا يتكرر والناس كلهم اليوم فسدوا الا من رحم ربك ، ومراد الله من الخلق ما هم عليه ، العالم يا حبيبي لا يعرفون الا المادة ومن اختار لنفسه الذلة والقلة وعفّ وترفع عن الدنيا فهو وشأنه ، ومن اراد ان يتمتع بمباهج هذه الدنيا فليس له غير هذه الطرق التي يسلكها الكافة ، ولا حرج عليه ولا اثم ، وازيد على ذلك ان معظم الخلق لا يعتقدون بغير الدنيا ، والآخرة عندهم شيء مجهول بعيد الوقوع فلا يتركون المعام للمجهول ولا الخيالي للمحسوس .

قلت : دعنا من امور الآخرة وتعال نبحث في الدنيا ، هل تستقيم بحياتك الامور ان لم تقم على نظام وعدل ، هل يكون ذلك بغير تطبيق الأنظمة كما يفعل الغربيون لعمدنا في تنفيذها ، ولا ينظرون الا الى الحياة الأولى ، ولذا افلحوا اكثر منا في كل امر ، فهم اكثر غنى ، واكثر صدقاً ، واقرب الى العدل ، ونحن اذا ضاع الغش والكذب والنميمة وكل ما نهى عنه شرعنا تجده في بلادنا على حصة موفورة ، ونأتيه كل ساعة غير خائفين ، وبفتوى من مفاطينا ، وباقرار من اهل الحل والعقد فينا ، قوانيننا كلها جيدة لو نفذت ، لكنها مدفونة في القماطر ننفذ منها ما يروقنا فقط . قال : الاتعلم

ان الكبراء اذا اعطوا فيهم يعطون من مال تقرره لهم الحكومة وكل مايقام من
المآدب والسياحات المرفهة ونفقات الأبهة والبذخ واستمالة القلوب والاقلام
داخل الوطن وخارجه ، قد اخذ من بيت المال بقرار فالآثم هو المقرر ، ومن
انفق ماقرره بريء من التبعة ، والمسؤول عن المال المبدد هو القانون
الدستوري ، والامة في الواقع انحلت اخلاقها فوجدت لها من هذا القانون
اعظم معوان . وبلغني ان احد رؤساء الوزارات لا يقيم مأدبة خاصة او عامة
ولا ينفق شيئاً في سبيل مصلحة الدولة حتى في شراء السلاح والذخائر والطائرات
والسيارات الا ويضيف الى قائمة ما صرف مبلغاً من المال يأخذه لنفسه وبذلك
اعتنى كثيراً واقتنى املاكاً وكذلك اعتنى اقاربه واشياعه في المفوضيات
والمحافظات من صحاليهم من بنوا التصور ونجدوا المقاصير والدور يسرفون
في الانفاق على رفاهيتهم ما لا ينفقه رئيس كبير في ديار الغرب . ومن غريب
ما أتى هذا السياسي ان احال الى مزارعه ما وقع في ايدي الدولة من المغام
كالمواشي والآلة كأن مغام الحكومة مغام له ولا من يحاسبه .

وأتبع ذلك بقولي الناس يا حبيبي مع القائم وكيف يحاسبون او
يعرضون قليلاً بما تجنيه يد الجاني وهم يوقنون انه اذا غضب الله على احدهم
وانتقد هذه الحطة عاقبه الوزير عقاباً مادياً وآذاه في ماله واحياناً ببدنه فان
كان تاجراً عمل على خسارته ، وان كان مزارعاً سلط عليه ادنياء الفلاحين ،
وان كان موظفاً او قعوه في مشاكل يحاولون بها اقصاءه وخراب بيته ،
والوزراء كلهم متضامنون وهم ابدآ طوع امر رئيسهم والحكام كلهم عبيده
مادام في منصبه الا من رزق نفساً قوية وما اهمته خدمة الاغراض . ومن
الناس من يتحاشون ذكر المظالم بكلمة مخافة ان يعود الى الحكم مرة اخرى
وينتقم منهم ومن ابناءهم وذوي قريابهم واصحابهم ، وهكذا يبقى الجرح
نغاراً والفساد مستحكماً متسلسلاً . ويذكر العارفون ان احد الوزراء في
الانتخابات حرص على احراز اصوات تسهل عليه الوصول الى النيابة ، مع علمه
بان النفوس مائة عنه ، فلم ير أحسن من ان يعهد الى جميع موظفيه بمعاونته
فالبسهم كسوة غير كسوتهم ، وأصبح كل واحد مسدساً خبأه في جيبه ،

وكان بهم يهدد الناخبين حتى احرز بعض النصاب واتمه له حزب الحكومة بما وضعت في الصناديق من اوراق مزورة ففاز بالنيابة بهذه الطرق المزيفة وفاز بعض زملائه وانتشر سر هذه المكيدة، والسياسيون قد يزعمون ان افعالهم السرية تخفى على القوم وليس كل السياسيين فلاسفة حتى تردم ضمايرهم الى الصراط السوي . وهكذا يقال في بعض الرؤساء وبعض الوزراء اخترع كل واحد احواله يلقيها فيصطاد فمنهم من يجوز ابتياع الضمائر بالمال ويدعي ان المجد لا يبني الا بهذه الاحابيل . ومنهم من لو اعطيته عشر خزانة الامة لمد يده الى التسعة الاعشار الاخرى ، ذلك لان اكثرهم لم يربوا تربية دينية ولا مدنية صحيحة وجاءوا الى ممارسة السياسة من طرق فيها الخديعة والكذب والنفاق وغير ذلك .

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرت الا بالطلاق
ساءتني الناذج التي ادركتها من أولئك الكبراء ، رأيتهم يتنزلون لأقل الصعاليك ويخاطبونهم بما لا يخاطبون به عظماء الامة ورأيت بعض عامة سكان الاحياء تنهال عليهم مقادير كبيرة من الخنطة والارز والسكر وغير ذلك من انواع المأكل ، وكان هذا في وقت عز وجودها وكان يكفي ما يهدونهم من انواعها لان يكون منه رأس مال كبير او ليطعم الف انسان ، بينما كان الفقراء لاتصل أيديهم الى القوت الضروري الا بشق الانفس ويطعمونهم الخبز المغشوش اما الارز والسكر فهذا ما كانوا يسمعون به ولا يرونه .
قال صاحبي : ان اكثر مارويته اوافق عليه ، وهذا كله جرى على مارست ، ولكن حنبليتك قوية وتشددك عظيم في اقتضاء الناس ما لا يملكون فأرح نفسك من هذا العناء فأنت لاتقوم المعوج ولو كان معك اليوم فريق يعاضدونك ، ولن تنجح مادام الفاسدون اكثر سواداً من الصالحين ، والفاسدون اعرف بالدهائن وبما يبقي عليهم نعمتهم وهم عند حاجتهم احط الخلق لا يستكفون عن ارتكاب كل كبيرة .

ولما بلغ الحديث الى هذا الحد ومنه ما أنسيته تقلبت في سريري متأماً من أواخره ، فانتبعت على صوت المؤذن يقول : يا ارحم الراحمين ارحمنا .

ابراهيم باشا في الشام

من غرائب التاريخ في العصر الماضي قيام محمد علي الكبير بانشاء دولة عظيمة في مصر واسترجاع عبدالعزيز آل سعود في هذا العصر ملك آباءه في نجد وما اليها وليس معه من الرجال أكثر من بضعة أشخاص ، وكلاهما أمي . ولولا مقاومة الدول لمحمد علي لاستولى على معظم العاصر من ممالك افريقية وعلى أرض العرب في آسيا وعلى آسيا الصغرى من أرض الترك وعلى الروم ايلى وما وراءه من البلقان وكان له الكلمة المسموعة على شواطئ البحر المتوسط وغيرها من الاوقيانوسات .

كان محمد علي بما خص به من نظر بعيد يعرف ان فتح الولايات العثمانية في آسيا ، ليس من الصعوبة على ما يتصور المأخوذون بالظواهر لأنه كان يقدر مبلغ قوتها الحقيقية اذا تصادمت القوى ، وقد حققت الايام حسابه فانه لما صحت نيته على فتح الشام أرسل اليها قوة من البحر وأخرى من البر بقيادة ابنه ابراهيم باشا ففتحت على أهون سبب ولو لم تقف دول اوربا في وجهه وتصده عن التقدم لفتح القسطنطينية وجعل دولة آل عثمان أثراً بعد عين . وتجلى في هذا الفتوح التي وصل فيها ابراهيم باشا الى كوتاهية أن الجيش القليل المجهز بالجهاز اللازم خير من الجيش الكبير العدد وفيه نقص في المعدات وفوضى في القيادة ، ولذلك كان الجيش المصري المنظم يومئذ أفضل من العثماني المحتل .

والنزوة الباهرة في هذا الفتح أن ابراهيم باشا ما اكتفى بالغلبة بالسلاح بل طمع فيما وراء ذلك بالنهوض بالديار الشامية المائلة الى الانقراض وسارع وأدخل فيها في بضع سنين جميع ما ينهض بها من أسباب المدنية الحديثة على أجمل ما تنظم دولة كبرى تأصلت فيها المدنية في دولة بكر ما شهدت الاصلاح منذ قرون .

ما كان من مصلحة البريطانيين يومئذ توسع محمد علي في الملك ولذلك لم تغمد السيوف في الشام مدة حكم ابراهيم باشا تحاول اجلاء جيشه وارجاعها الى الدولة الضعيفة صاحبها القديمة فدأبت على تحريك من كانوا بالامس من انصاره مثل الدروز والنصيرية والموارنة . فقتل الدروز في المجهاد ووادي التيم مئات من جيشه . وكان ابراهيم لا يهدأ له بال يراقب العثمانيين في الشمال ويضطر الى مراقبة العدو الداخلي من الجنوب ، والانكليز والاتراك يتعاونون بالمال من يرون ابتياعه واستتباعه من الاكراد والتركمان والهوارة والنصيرية والدروز والموارنة . وما حالت هذه الهموم السياسية دون ابراهيم باشا وما يرمي اليه من انشاء القلاع والجسور والمستشفيات والشكنات والحنانات والفنادق وتجفيف المستنقعات وانشاء القنى لتصريف المياه القذرة في المدن وغيرها وترتيب المجالس الملكية والعسكرية وتأليف مجلس الشورى والمساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات يتمتع كل طائفة بحريتها وينظم الجباية والخراج ويبطل المصادرات ويقرر حق التملك ويوطد الامن وينشط الزراعة والصناعة ويعلم تربية دود الحرير ، فاستعادت اكثر القرى التي كانت على سيف البادية واقليم حوران وعجلون وحمص وحماة وغيرها عمرانها القديم . وما كان ابراهيم باشا ضنيناً بالمال ينفقه في الاصلاح ويدخر مافاض منه في الخزائن للطوارئ اي ينفق مال الشام في الشام .

قام ابراهيم باشا بكل هذا وحالة القطر السياسية غير مستقرة ، وامتد نشاطه الى جميع فروع الادارة يبني ويكثر البناء كأنه في ملكه الثابت الذي لا ينازعه فيه منازع . وكان العثمانيون من قبل قضوا في القطر ثلاثمائة سنة لم يأتوا خلالها بعمل يذكر في باب التمدين ، وفي ايامهم لم يعمر طريق ولا ثكنة ولا مدرسة مهمة ، والمدارس والجمامع التي تنسب الى بعض ولايتهم في الحواضر عمرت باخراب المدارس والجمامع الاثرية القديمة وكان معظم ما بنوه من الحصون من انقاض مصانع القداماء ، وسياستهم لم تبدل منذ احتلوا هذا القطر . تتقاضى الدولة الجبايات الكثيرة الانواع بطرق غير مشروعة

وتأخذ الشبان للجندية لتقتلهم في حروبها الكثيرة ، والامن ابداً الى الاختلال والارواح تباع ببيع السماح والشرع لاتنفذ احكامه الا على الضعفاء لان الاقوياء ومنهم الاقطاعيون لايطبقون من مواده الا ما يروقهم ، والاقطاعيون اعوان الظلمة من الحكام الرسميين وكلهم على المظالم متفقون ولذلك شق عليهم حكم ابراهيم باشا لانه ساوى بين السكان وقطع على الاعيان طرق سرقاتهم ، فهم عضد للدولة العثمانية حتى تعود الى حكم القطر يحكمونه مع عمال العثمانيين الفاسدين ويتعاونون يداً واحدة على سرقة اموال الدولة واموال الرعية .

وكيف السبيل الى عودة العثمانيين الى هذه الديار وجيش ابراهيم باشا مانقص عن اربعين الف جندي منظم بنظام اوربا وبقيادة قائد حازم يعرف من ابن توكل الكنتف يسترشد برأي والده العظيم في المسائل المهمة . فكان كالمستقل في ادارته على ماتبين من الرسائل التي صدرت من محمد علي لابنه ابراهيم وبالعكس وفيها مثال من تلك الادارة الرشيدة . فاستخدمت انكلترا للوصول الى غرضها من اجلاء المصريين عن الشام جميع مالديها من قوة على يد القائم بكبر ذلك المستر وود السياسي الخنك الذي جاء سورية باسم مستشرق يرغب في درس اللغة العربية وارسلوه الى بطريك الموارنة فاسلمه الى احد رهبانه يعلمه ، فما هي الا ايام حتى رجع الراهب الى بطريكه يقول له ان الذي فوضت اليّ تعليمه ليس طالب علم ، بل هو يرمي الى مقصد سياسي على ما يظهر فقال له البطريك : قم بالواجب الذي عهدت اليك ولا تدخل في الفضول .

ورب قائل يقول وهل كانت اعمال ابراهيم باشا في الشام كلها سديدة فالجواب انها بالقياس الى اعمال العثمانيين عظيمة جداً وقد يغلط ابراهيم كإغلاط اعظم الرجال والغلط غير مأمون على من كان في مثل حاله . فمن اخطائه انه رخص لضباطه ان يتجروا وما ادري ان كانوا هم الذين جعلوه امام امر واقع فاضطر لانفماض الطرف عنهم وكان في ذلك الضرر على الرعية . ومن خطيئاته السياسية تنفيذ ارادة والده بتجنيد الشبان وكان عليه ان يقول له ان القوم غير مستعدين للتجنيد وانه تشق الجندية عليهم والواجب اخذ البديل

النقدي ممن لا يجب الدخول فيها . وقد اتخذ اعداء ابراهيم باشا من قضية الخدمة العسكرية مادة لمجمل بعض العناصر على العصيان عليه والاشتمال من حكمه وكان في مقدمة من رفضوا الخضوع لارادته الموارنة والنصيرية والدروز وعربان جبل نابلس اما سائر الاقاليم فقد خضعت للنظام الجديد مرغمة .

كان حكم ابراهيم باشا في الديار الشامية سعيداً في الجملة ادركت الرعية الفرق بين حكم المصريين وحكم العثمانيين خصوصاً والمصريون اقرب الى الشاميين بطبائعهم ولغتهم . نعم كان حكم المصريين شديداً وبغير الشدة لا يحكم شعب فسد كيانه وانحل في معظم مشخصاته واطعت قرون استبداد مضت عليه قواه العقلية وحيويته الاقتصادية والعلمية . وكيف لقطران يسعد سعادة كاملة وقد اندمج في سكانه عشائر وقبائل ليس بينهم وبين الحضارة ادنى صلة وفيه اديان كثيرة وطرق صوفية غريبة . ولذلك رأينا من قاتلوا مع المصريين لاول الامر مغتربين عادوا فانقلبوا عليهم بتأثير الدرهم والدينار . والوطنية لم تكن تعهد يومئذ في الشام ولا في مصر ، وكانت الوطنية ما يريد صاحب القوة او الفاتح المتغلب .

وأكثر من ارتاحوا الى حكم ابراهيم السواد الاعظم من الشاميين سكان المدن والقرى وجمهرتهم من المسلمين (اهل السنة والشيعه الامامية) والمسيحيين ماعدا الموارنة . ولما صدر امر محمد علي الى ابنه ابراهيم بالجلء عن الشام ودعه اهل دمشق بدموعهم آسفين على الأيام التي اراهم فيها من عدله ما هللوا له وكبروا . وذكروا ان المظالم بعد جلاء الجيش المصري ستعود الى سابق حالتها ، وان العثمانيين وان شاركهم الانكليز في حكم القطر بالمستور وود ومن استصفوهم على صورة غير ظاهرة لغير العارفين ليس في وسعهم ان يسيروا في ادارتهم على غير طريقهم في الالهال والاستخفاف بمطالب الشاميين وفاقد الشيء لا يعطيه .

وننتقل الآن الى صفحة اخرى ذات معنى يفهم منه طرز ادارة ابراهيم باشا وهي حكايات تدل ايضاً على بعد نظره .

(١) ترامى اليه أن السيد أسعد البكري اتفق مع شريف باشا والي دمشق على بيعه مزرعته في قرية جرمانا فاستدعاها وسأله عن قصده من بيع ارضه فقال انه مضيق فاذا باعها تفضض بشمنها وتصبح في معاشه . فقال الباشا : تعرف أن شريف باشا صهري فانتقال ملكك اليه انتقله الى اختي فأضحك أن تعدل عن هذا البيع حتى لا تنكشف حالك بعد مدة عندما تسرف في الصرف ، واذا عصيت أمري وبعثت ملكك أنفيك الى السودان .

(٢) شكت اليه امرأة فلاحه أن أحد جنوده اختطف من يدها علبة لبن وشربها ، فسألها هل تعرفينه قالت نعم ، فأمر بجمع الكتيبة كلها فهدجت المرأة عسكريه ببصرها ، وقالت ها هو فقال لها : (يا اولية) أنا الآن سأبقر بطن الجندي فاذا تبين انه هو شارب لبنك كان قد نال جزاءه والا فاني قاتلك به . فتناول الباشا النمشة - من سلاح تلك الايام - وقطع الجندي نصفين فسأل اللبن .

(٣) اراد ابراهيم باشا أن يستصدر فتوى من علماء دمشق تخدم سياسة والده في نزع القطر من العثمانيين فاعترض كبير علماءها الشيخ سعيد الحلبي على صيغة الفتوى ونقضها من عدة جهات فاخفق القائد في الوصول الى غرضه وغضب وزاد في غضبه انه ما سبق للشيخ أن زار الباشا كسائر المشايخ كما هي العادة . فسأل أين يجلس الشيخ فقالوا له في الجامع الأموي وله غرفة فيه يقريء فيها تلاميذه فتحين الباشا وقت وجود الشيخ في حجرته ودخل عليه وجلس فما التفت الشيخ اليه ولا قام اجلالاً له حتى أتم الدرس وهو يمد رجله ثم حول وجهه الى الباشا وسلم عليه سلاماً عادياً ولم يغير جلسته فاستاء الباشا من هذا الاستقبال البارد ، ومن الغدارسل الى الشيخ صرة جنيتها فردها وقال للرسول : اني أشكر الباشا على عنايته وأرجو ان تقول له اني غنيٌّ ومن يمد رجله لا يمد يده . قال الباشا لحواصه لو قبل الشيخ صرة الدراهم لقتلته لاني اعرف عندئذ انه منافق ظاهره غير باطنه .

(٤) وشى واش بالسيد نسيب حمزة من الاعيان فنفاه الى عكا مطلق السراح على أمل ان يأتيه من يشفع به فيعيده الى بلده خصوصاً والوشاية ضعيفة فما تعرض انسان لهذه الشفاعة فاراد الباشا ان يجبر خطاه فاغتم زيارته ثغر عكا وسأل عن السيد الشريف وعنده انه لا بد ان يخف للسلام عليه فيبلغه العفو عنه ولما لم يجيء الشريف للزيارة سأل ابن مجلس السيد نسيب فقيل له في جامع الجزائر وله فيه غرفة فقصد الى الجامع فلم يخرج الشريف للسلام عليه فسأل الباشا ابن حجرته فقيل له هذه فقرع عليه الباب وخرج ابن حمزة فسلم عليه القائد سلام حب وعطف وقال له : أما اشتقت الى دمشق انا احب ان اراك هناك ، واصلح غلظه الناشيء عن التسرع باصدار امر النفي .

وله من ذلك قصص كثيرة لايزال اهل المدن والقرى يتناقلونها .

سألني الامير عمر طوسون (رحمه الله) اذا كان ما كتبه في (خطط الشام) من تألفي في دور ابراهيم باشا بالشام هو صحيح كله فقلت له كله صحيح ما خرجت فيه عن تدوين التاريخ الحق فقد ادركت رجالاً ادركوا عهد ابراهيم وكانوا من المدركين فقصّوا عليّ ما سمعوه ورأوه ، ثم اني قرأت كل ما وصل الى يدي مما كتب عنه المعاصرون بالعربية والافرنسية ومحض الروايات ، وهل أنا مصري حتى أجامل بما كتبت رجلاً من رجال بيتكم الملكي الكريم وأكتم الحق مراعاة للمصلحة ، فقال الأمير الحمد لله الحمد لله . بقي ان يقال هل كان من الخير ضم الشام الى مصر أم كانت الشام بعد استقرارها بيد المصريين تعود سيرتها الاولى من الاستبداد ، فأنا أرى أنها كانت تسعد بحكم محمد علي الكبير وحكم ابراهيم فقد شهدنا هذا بدأ باصلاح الديار الشامية من أول يوم رفع كابوس العثمانيين عنها ، ولو اطرد الاصلاح لأصبحت الشام أرقى من مصر لاستعدادها الطبيعي لكل ضروب المدنية ، وربما كانت تكفي غائلة سلخ لبنان وشرقي الاردن من جسمها وتنجو من غائلة الغوائل واعني تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية تفصل بين جزيرة العرب والعراق والشام وبين مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

فهمسة في اذن الربالي

ألححت حتى انتخبك المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً له في حلب واشترطت عليك بصفتي رئيسه ان تجمع اعضاء الشبهاء وتشغلهم بما ينفع العلم وينشر الثقافة ، فاعتذرت بان المال يعوزك فنزلت لك من موازنة المجمع العلمي عن عشرة آلاف ليرة سورية تنفقها في الوجوه التي يراها اعضاء حلب واجبة الصرف من طبع ونشر واقتناء كتب ، فماذا كان منك حتى الآن ؟ لم اسمع انك ألفت أو أحد مواطنيك محاضرة ، ولا ان نشرتم كتاباً ولا أن عاونتم دار الكتب بما ينميها ، ويحبب الى شباب الحلبيين الاختلاف الى قاعاتها . اخذت لقب عضو المجمع واكتفيت به ، وقانونه يقصيك من عضويته اذا لم تقم بما اوجب عليك اما قانون الوجدان فأفعل من ذلك لمن ينصف . فان كنت مزمماً ان تظل على حالتك التي درجت عليها منذ بضع سنين فما احراك ان تستقيل من هذه العضوية حتى لا ينجل من كانوا وسطاءك وزعموا انك خدمت الوطن فكنت جديراً بهذا التشریف .

ثم اني أرجوك ان تناظر ملياً فيما تبعث به الى مجلة المجمع العلمي من مقالاتك وأن تقرأها على ارباب هذه الصناعة حتى اذا أقروك على ما كتبت تبعث به للنشر ومقالاتك في الحقيقة من النوع الذي لا يمكن ان ينشر في مجلة كمجلة المجمع العلمي العربي لغموض في تراكيبيها فهي أشبه بمقالات الزهراوي الحمصي والشربتلي المصري ، وأرجو ان تعرف بعد هذا ان العلم غير السياسة

الآراء وأنباء

من أشد ما كان يؤلني منذ أدركت مبلغ جهد الامم الغربية في القضاء على الأمية أن اشهد في اقليم من أقاليمنا جهلاً مطبقاً لا تصعب مداواته اذا قامت الحكومات والمحكوم عليهم يداً واحدة لتعليم الناشئة . ورأيت بعض النابهين أسسوا في حواضرهم جمعيات قصدوا منها تعليم من تجاوزت اعمارهم سن التعليم يدرسونهم في اوقات فراغهم من الليل ما يخرجهم من الأمية فيتعلمون القراءة والكتابة والحساب وبهذا الجهد الحسن انقذت عشرات الألوف من الجهل المطبق ، فلو قد كثر عدد هذه الجمعيات في كل بلد وأنشئت مدارس ليلية ونهارية في الأحياء والقرى لحققوا عن الحكومات بعض ما يقع عليها من عبء وتعاونوا كلهم على ما ينبغي السكان من التواكل وذلك بان تأخذ الجمعيات على نفسها مراقبة مدارس الحكومة على نحو ما تراقب مدارسها نفسها فتكون الجمعيات الأهلية والحكومات النظامية كالشيء الواحد . والدول مها بذلت من مال لنشر المعارف تبقى الى جانب القصور ان لم تشاركها الرعية وتدفع قسطها من هذه الخدمة الوطنية . واذا تم تعاون الحكومات والبلديات والجمعيات وساهمت كل منها بما يخصها من هذا الواجب لا تمضي سنون قليلة حتى يصبح الاهلوت على جانب من التمدن الصحيح يفهم رجالهم ونساؤهم بعض ما لهم وعليهم .

والواجب حق الواجب أن تحب المطالعة الى كل من يفك الحروف وذلك بوضع رسائل صغيرة توزع مجاناً على من يقرؤون ، وتكون موضوعاتها الاخلاق والزراعة والصنائع الزراعية واليدوية والصحة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع ، وحكايات تربي المملكات وتلقن الشجاعة والمروءة والوطنية . وتكون كتب الاطفال غير كتب البالغين تناسب مداركهم وتوفي بما تتطلبه الحياة منهم من المعارف وتكتب بعبارات سهلة معربة لا تعقيد فيها ولا ابهام

وفيها من الصور والرسوم ما يجب النظر في صفحاتها لكل انسان ، تقدمها
الجمعيات لكل من يستفيد منها بالجحان أو بمقابل قليل .
وقد رأينا من تعلموا التعليم الأولى والابتدائي ينسون ما تعلموه بعد
سنتين ويعودون أميين لاغفالهم تعهد ما تعلموا بالمذاكرة والمطالعة . وأهم
ما تدعو اليه الجمعيات أن تعلم الفلاحين صناعات بسيطة يمكنهم معاناتها
في بعض أيام العطلة ولا سيما في موسم الشتاء وفيه يزيد التبطل أكثر
من المواسم الأخرى في جميع البلدان الزراعية فتصبح الصناعات بهذا مادة
ربح في أيدي الفلاح ، وأداة جميلة لقضاء الوقت فيما ينتج لهم فائدة ، ويدفع
عنهم بعض العوز ، ويحفظ لمجموع الأمة جانباً من ثروتها .
الأمية علة العلل في مجتمعنا رأينا تأثيراتها السيئة في مصر لما انتشر
الوباء الأخير فيها ، ولو كان القوم أكثر تعلماً لما أنفقت الدولة ما أنفقت
من الأموال ، ولا أضاعت الأمة ما أضاعت بالجهل من النساء والرجال والأطفال

المؤلفون والملوك

حدثني صديقي الاستاذ حسن توفيق العدل رحمه الله قال : يوم كنت في
برلين موفداً من وزارة معارف مصر لدرس علم التربية والتعليم سمعت
أنه ظهر في ألمانيا مؤلف جديد ما كان من المشهورين قبل أن يؤلف
تاريخ حرب الثلاثين سنة ، وما علم أحد بما شغل به سنين إلا لما أنجز
كتاباه وطبعه . وأجمع الألمان على أنه كتاب ما أُلّف في بابه مثله . قال
وبعد أيام رأينا الامبراطور غليوم الثاني في مركبته والى جانبه ذلك
المؤلف الذي بهر المانيا بتأليفه ، وهكذا أكرم العاهل العظيم المؤلف العظيم .
وبما يؤثر عن تيمورلنك من ملوك القرون الوسطى أن السعد التفتازاني

لما ألف كتاب المطول في علم البيان وعرضه عليه اعجب به وأمر أن تصنع منه نسخة نفيسة مذهبة وتعلق على باب شيواز ، دليلاً على أن تيمورلنك ومملكته يفاخران بعالم كالسعد . قام تيمور بهذا وهو على الأغلب لا يحسن العربية ولا البيان العربي ، وعلى الرغم مما كان عليه من ظلم وقسوة أكرم السعد هذا الاكرام ليقال انه يحمي العلماء ويقدر اعمالهم قدرها . وجرت عادة الخلفاء والأمراء والوزراء في الاسلام أن يكرموا المؤلفين بالعطايا يدرونها عليهم ليستدروا فيض قرائحهم فتنبعث الى خدمة العلم والأدب . ومن أرباب التواليف من جعل من هبات العطاء علة معاشه ، ومن عطاء الوزراء من كان لهم طبقات من المؤلفين يجرون عليهم الرواتب والجرديات . وكان أصحاب السلطان يعدون هذه المكرمات من واجبههم ، ويتنافسون في الاستئثار بكبار المؤلفين ، وبإيواء أكبر عدد منهم في قصورهم . والملك الذي يكثر ببابه العلماء والشعراء يعد نفسه ويعده قومه من السعداء .

يقول جيون المؤرخ الانكليزي عند كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من ذلك أن انتشر ذوق العلم ووجد ان اللذة في تحصيله في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فارس وقرطبة ومن عادة ملوك العرب في عصرنا أن يبادروا الى شكر المؤلف باللسان ان كان بمن يرخص له بمقابلة الملك ، واذا كان المؤلف بعيداً من الملك يشكره كاتبه بالنيابة ان كان المؤلف صاحب مكانة . والمؤلف الذي يفوز بشكر الملك يعد ذلك من دواعي الفخر له ولابنائه وأحفاده . أما رؤساء الجمهوريات فلا يعباون بهذه الاعترافات ولا يشكرون المؤلفين باللسان ولا بالقلم كأن الجمهوريات تقوم بغير الشعر والأدب كما قال أحد طواغيت السياسة .

أمية المسابغ

قوي الجهل في الولايات العربية على العهد العثماني والدولة ترغب في امتداد ايامه وتقوية أوصره لأنها تعتقد أنها تبقى حاكمة على العرب ما داموا جهلاء ، واذا تعلموا واستنارت عقولهم خرجوا عن حكمها . وساعد على نشر سياسة الجهالة من لا يخافون الله من ارباب المناصب الدينية الكبرى ، وما كان هؤلاء الا ارباب الوجوه الصفيقة من ورثة المناصب بأو من ابتاعوها بالدرهم .

وتولى رئاسة العلماء في مدينة دمشق استاذنا العلامة سليم البخاري فشق عليه ان يشهد شرع الاسلام بأيدي الأميين الجهلة فبدأ باخراج السقيم من بينهم والابقاء على السليم منهم . وبدا للشيخ أسعد الصاحب وكان نشر كتباً ورسائل استكتبها بالأجرة ان يقنع شيخ العلماء بانه عالم ومؤلف فتأبط نسخاً من تأليفه وشخص الى مقام الرياسة ، فصادفه أحد اقرانه وهو على مستواه من العلم فسأله عن وجهته وعن الكتب التي يحملها فأجاب انه ذاهب الى رئيس العلماء ليطلعه على بعض مصنفاته . فقال له : أنا انصح لك ان ترجع من حيث اتيت انت وما تحمله من كتبك . فاني أخشى ان يفتح لك الرئيس ، وهو يعرفك معرفة جيدة ، صفحة من تأليفك هذه ويطلب اليك ان تقرأ له ، وانت لا تستطيع ان تتلو مقطعاً واحداً دون ان ترتكب عدة غلطات . فقبل المؤلف نصيحة زميله وعاد ادراجه . ذكرت هذه القصة لما استعرضت تأليف بعض المحدثين من المؤلفين وكيف يحاول بعضهم ان ينفقوا على الامة ببضاعة مزجاة ، وينشروا سخافات وترهات ، ويساعدهم رخص الطبع والورق واعفاء الكتب من المراقبة . وما بلغ من فطنة الكثرة الكاثرة أن تفرق بين الجيد وغير الجيد مما تخرجه المطابع . وكان بعض شيوخ الأزهر في القرن الماضي لا يحسنون من التأليف

شيئا ويستجدون زملاءهم تقاريط لكتبهم قبل أن يشرعوا في تأليفها .
فتنهال عليهم أماديح أقل ما يقال فيها انها شهادات مزورة (راجع فصل
القول في تأليفنا من كتابنا اقوالنا وأفعالنا) .

ومما يسر ان التأليف التي صدرت منذ اول الحرب الأخيرة الى الآن أجود
في الجملة من التي صدرت في العشر السنين التي تقدمت هذه الحرب . وما زالت
تأليف الأذكياء تزيد على الأيام اجادة . اما التأليف السخيفة فهي كما جرت
العادة أن تكون ولا يصدر عن السخيف الا السخيف والأسخف . والتألف مع
هذا رائج والجيد كاسد ، ومن يميز بين الصنفين من التأليف مادام ذوق الجمهور
منحطاً غير سليم ومما يغتبط به ايضاً ان بعض ما نشر بعد الحرب من الكتب
كان يقصد به الوصول الى غرض علمي أو ادبي أو اقتصادي أو سياسي وخفت
الموضوعات الدينية ، وفيما ورثناه عن السلف الصالح غنى عن كتابة كتب
جديده في الشرع ، وأين اليوم من يكتب بمثل تحقيقتها وتدقيقها .

ورأينا صدور بعض المؤلفين أخذت تتسع اليوم لسباع النقد على كتبهم ،
وكانوا قبل ثلاثين أو أربعين سنة يتألمون من النقد والناقدين ، ويعدون
قبولهم تصحيح أخطائهم اقراراً بجهلهم ، فكانوا يطعنون بالنقاد ويزيفون
علمهم . ولك بذلك ان تحكم ان الذوق اخذ يرتقى بظهور هذه الطبقة المحجودة
من المؤلفين وعددها يزيد سنة عن سنة والسواد الأعظم منهم يؤثر الخراج
مؤلفات قليلة مجودة ولا يسف الى معالجة الأبحاث التي سبق للاقلام ان
تعاورتها ، والفرق ظاهر بين الكتب المؤلفة اليوم والمؤلفة قبل خمسين سنة



علم الحال

يقول علماء النفس ثلاثة تحذو المرء على العمل : الحبز والحب والطمع .
فليدع بعضهم الرغبة في المال طمعاً ، وليسهم آخرون الطموح الى المجد
فهذا مما لا يؤبه له . فليس من السعداء الحكيم ولا التقي ولا البطل ولا العالم
ولا الشريف ، وما السعيد الا من له مال وله امرأة يحبها ويتمتع بصحة جيدة .
وعندنا ان السعيد من يجد مطامعه ، ويرضى بما وصل اليه من المظاهر ،
وما حصل عليه من مال ، وأن يكون آمناً في سربه مغتبطاً بقرينته
قريب العين بأولاده .

لا تفرح لوقوع الشر حتى في بيت عدوك فانك لاتأمن سرايته الى بيتك .
تجنب الثقة في بعض المواطنين ، وعليك تضليل عقل من يحاول كشف
خبيثتك ، واستدراجك الى الحوض فيما ينفعه ويضرك .

اتق مجالسة الأشرار واعمل على الا تسمعهم الا مبهات لاينبى عليها
حكم ، وتمويهات تضلل بها عقولهم .

قد تتحل المعضلات بتناول الزمن ، وتسكن الخزازات والثارات ،
وتضعف حدة الاحقاد والسخائم .

كلما تقدم الزمن يكثر الجنس الذي لايبالي بما يحدث للولى والعدو ، فتتحل
روابط البيوت ، وتترانى علائق حسن الجوار ، وينضب معين الرحمة من
القلوب . ويوم كان الجار يتم بجاره ، والصديق بصديقه ، والرجل بذوي
قرباه كان الناس بخير أكثر من عهدنا هذا ، ما في ذلك شك . ولما كثر
قول أنا ومن بعدي الطوفان دب التخاذل وشمل الضعف . ويقل ذلك ويزيد
على قدر الاعتقاد بجوهر الأديان ، واسترسال الخلق في الكفر والاحاد .

تحجرت قلوب الناس اليوم وان دخلهم التمدن وكانوا بالامس مفظورين
على الرحمة على قلبه حضارتهم .

إذا رأيت فرداً يصاب بمصيبة وليس حواليه من يواسيه فأيقن انه مامرّ في خياله يوماً أن يؤاسي انساناً . ومن لايهمه احد لايهم له احد . وإذا شهدت رجلاً لا يعطف عليه أحد فاعرف انه هو لم يعطف على انسان . وإذا تجلّى لك أن الاجماع كاد ينعتقد على حب شخص فأيقن أنه هو تقدم ودفعت ثمن هذه المحبة ، وعاد قومه يقابلونه عليها .

للمال زكاة وللجاه زكاة وللذكاء زكاة فاذا لم يؤد صاحب هذه الصفات زكاة مارزق من تلقاء نفسه يدب المحق فيما أنعم به عليه .

مادام جارك لا يجد كفايته من القوت لاتعدنّ ما أنت فيه سعادة .
لاتأمل الحخير ممن قدمت اليهم الشر ولا تغرنك ابتسامتهم فالبعضاء لاتتمحي من قلوبهم .

الابتعاد عن الاشرار خير دواء لينسوك .
إذا وقرت الكبير والصغير وقرت طوائف الناس .
لاتسمع الى حديث لايفيدك واقلل من نقد الخلق الا اذا كانوا من يهيمون على المصالح العامة .

إذا طلبت رضا أبيك وأمك وأستاذك فقد حزت الكمال .
من قبيح العادات عادة استعارة الآنية والفرش والثوب ، ومن أقبحها استعارة الكتب المطبوعة فانها تؤخر نشر العلم وتضر بطابعيها ومؤلفيها .
لو كشفنا أخلاق طوائف الملوك لكان لعنهم أقل ما يجازون به .
كيف لا ينجل ابن اليمن ونجد والحجاز اذا شاهد اقطاراً عربية كالعراق والشام ومصر أرقى من بلاده في معظم شؤون العلم والمدنية .
ناصح الملك الغشوم يجلب لنفسه الكراهة والمقت .

قلّ في طبقة العمال من ينصح لسلطانه لانه وطن نفسه على العبودية امامه ، وليس في طبقة العبيد من يجروء على سيده .

من يكثر من تبديل الحرف ينتهي بالافلاسي ، ومن يصاحب كل يوم

صاحباً جديداً لا يبقى له صاحب حق يفزع اليه عند الشدائد .
من الاثر العجيبة ان يطالبك بعضهم بان تكون له بوق دعاية ابدأ
واذا قصرت يوماً أكثر من لومك وعتب عليك كأنما يتقاضاك ديناً اسلفك
اياه وهو لو حسب نفسه حساباً يسيراً لتبين له ان ليس له عليك اقل منة .
اضحك من شح من يطالبونك ابدأ بان تهدي اليهم وهم ما خطر لهم
مرة واحدة في العمر ان يهدوك شيئاً ، يريدون ان تجود عليهم وهم مسكون
الامساك القتال .

روى بعضهم على لسان رئيس نزلت به محنة : أين من اطعمناهم لو كانوا
كلاباً لعووا ولو كانوا قطعاً لمووا لم نسمع لاحدهم صوتاً ارتفع في الاحتجاج على
ما حل بنا . وفاته انه لا يرجي منهم ان يأتوا غير ذلك لانهم سفلة ومن يصطنع
السافل ويعده خليلاً مخلصاً يرثي لضعف عقله ووضعه المعروف في غير اهله .
شهدت جيلين متناقضين من الناس احدهما يعتقد كل شيء والثاني ينكر
كل شيء . الواحد الى الافراط والآخر الى التفريط . الأول مؤمن بكل الفروض
والواجبات والنوافل يثبت ما صح وما لم يصح والثاني ملحد الاحاد كله ،
وكفة الدين واجحة عند الاول ابدأ وكفة الدنيا سائلة عند الثاني ، لا ينأ
بال الاول والثاني الا اذا اقبل الناس على القول بقولها دون بحث ولا نظر
بالامس كان الدجالون في الدين اوفر عدداً من الدجالين في السياسة
واليوم زاد عدد الدجالين في السياسة على عدد الدجالين في الدين لان السياسة
بما هيون الحوض فيه لا تحتاج الى رأس مال من درس وتعب وليس
كذلك الدين .

إذا رأيت لقيفاً من العامة مجتمعين على أمر لا تدري ما هو أسرع خطاك
لا تدخل في غمارهم ، فقد تدعى الى الشهادة في المحكمة فتضيع وقتك بين
اهمال القاضي وتحلف الشهود والمدعين .

لا تحرك عش الزنايبير فانها توشك أن تقرصك وتؤمك جزاء تهورك وفضولك .
لا تقدم على أمر تعتقد اعتقاداً جازماً أن الخطر فيه أكثر من السلامة
فقد قالوا : « ليس المخاطر محموداً وان سلماً » .

عجب بعضهم من أن من كانوا من أنصار الدولة الماضية عادوا فتنقصوا
انصاراً للدولة الخالفة وما دروا ان السابقين ما كانوا مع الدولة القائمة
إلا أدوات تديرها على ما تشاء وسيكونون كذلك في الدولة اللاحقة فهم
طلاب عيش يتعبدون من يضمن لهم عيشهم لا يحفلون بالأخلاق ولا الوفاء
ولا معرفة الجميل هم عبيد من أطعمهم والممتنعون عن الدخول في أمر
لم يسبق لهم أن دخلوا فيه هم من الشواذ والشواذ قلة .

قالوا ان الدولة الجديدة رضيت عن بعض رجال العهد البائد وكان
الأجدر بها ان تعول على غيرهم من الفريق الذي لم ينصبغ بتلك الصبغة
القييحة فالجواب : كل دولة جديدة مضطرة الى استخدام بعض انقاض
الدولة المنقرضة لأن الماضين على ما فيهم من عوج وأمت يصلحون ان
أخلصوا الأعمال أكثر ممن سيؤتي بهم وهم لاختبرة لهم ، والمجتمع يحتاج الى خبرة
وتجربة ويبد صاحب الشأن أن ينحي كل ساعة من لم يسر على طريقته
ويتفد رغبته .

من تطال الى ارضاء الناس بحق وبلا حق يحقره حتى من نالوا
منه خيراً أكثر مما طمعت فيه نفوسهم ، والشديد في الحق يكبر
عمله حتى خصومه .

لا تألف من استهر بالكذب ولا تقبل حديثه ولو متفكهاً به ، وخير
لك ألف مرة أن تخلو من أصحاب على أن تمازج الكذابين ، فالكذاب
نار موقدة اذا تركت وشأنها تحرق المسكن والساكن .

اياك ان تغتر بتوبة من درج على أكل ما لا يجل له في شرع ولا عقل
هو كالمراة السوء يزيد فسادها كلما تقدمت في العمر .

في سير العطاء من أهل الشرق والغرب فوائد تتحلى بها النفوس ، آدم
قراءتها تستفد علماً وخلقاً وتجارب وعبرة .

كثيراً ما ألتُ ممن يقصد دور الامراض العقلية ليتفكه باحاديث المجانين
كما أتالم من عشرة من تلذه عشرة المهوسين وارباب السداجة والبلاهة .

لا تكثر من اصطحاب الحواص ولا تنقطع عن سماع احاديث العوام ،
فعند الفريقين ما تتعلم منه وتستريح الى سماعه كالجذ لا تحتمله النفوس ابدأ
فلا بد معه في الاحايين من دعابة وهزل .

بنيت المعتقدات الأخروية على التسليم فايك ان تسلم بالجهولات في هذه
الدنيا كما عليك التسليم بجهولات الآخرة فاذا كان في الاولى نجاتك فالتسليم
بالثانية هلاكك . والسلامة ابدأ في الاعتدال والتوسط .

رأينا من يكثر من الصلاة اقرب الى الغش والحديعة ممن اقتصدوا
في صلواتهم وليس الاسلام بالصلاة والصيام بل بالتجلي بالاخلاق الطاهرة والترفع
عن الدنيا .

أقبح بكذبة يختلقها كذاب على من عرف بين الناس بالصدق .
من يعد الغضب للكرامة من التوافه هو أتفه التوافه ووضع النفس
يرضى بالذل .

من يختلق من الأكاذيب على خصمه ما ليس له أصل في غير تخيلته
هو من السخفاء وإن تولى المناصب العلمية ودرّس وألف .
من ظن انه يسقط خصمه بالتقول عليه يسقط من الأنظار من حيث
لا يدري .

من لا يفرق بين موقف الجد والهزل عدّه في المغفلين .
ما أسفت لشيء أسفي على عالم احرز مئة في العلم وكانت درجته في
الأخلاق خمسة .

العلم صناعة يتقنها من جدّ والأخلاق فطرة لا تكتب الا لمن حسنت
أصوله وفروعه .

قد تورثك الصراحة غضب بعض الخلق والصراحة خير من التمويه على أي حال .
ما أخطأت فراستي في المتعلمين من أبناء الطبقات الدنيا أخرجوا من
الجهل وما عروا من خشونتهم وخستهم .

في كتب المناقب من التخريف ما لا يصدقه صبيان اليوم فقاطعها كما

تقاطع كتب الكيمياء القديمة وكتب السحر والنجوم والطلاسم والجفر والتصوف .
ما لا يصدق عقلك فانبذه وانبد أهله لا تشغل قلبك بالترهات ولا بما
وضعه ارباب الأهواء وما اختلقه أبالسة السياسة لاستتباع ارباب الغفلة والبلاهة .
ما كل ما كتب في الكتب ودون في الصحف بما وضع لنفع الناس ،
فكثير منه كانت الغاية من تدوينه تضليل العقول .

اطرح من خزانة كتبك كل ما تعتقد فيه الضرر على عقلك وعقل
أولادك فالحشرة السامة تؤذي البدن السليم .
ما اكثر الكتب التي كتبها دعاة المذاهب الدينية والسياسية ولو صح
ما قالوه لبدلت الأرض غير الأرض .

لولا ما في بعض ما روي عن لسان بعض المتصوفة من بحث الأخلاق
لقلنا ان التصوف ما كان منه الا الاشتغال بالفضول .

لا تصفح ما لا ينفكك من الكلام ولا تحفظ الا الجيد البليغ واختر
من أسفار القدماء والمحدثين ما أجمع أرباب المدارك على استحسانه .

عجباً لمن بسط الله لهم في الرزق كيف يقترون على أنفسهم ولا يدركون
أن الموت ملاقيهم وانهم لا يأتون الى العالم الا مرة .

ان أمكنك ألا تعامل صاحبك بما ل فافعل فالاشتراك معه قد يفقدك
صحبته والصحة يجب أن تترفع عما يفسدها .

لو أعطى الغني حق الله وحق السلطان وحق عياله وحق نفسه ما رأيت
من يشكو الفاقة وما وجدت الشيوعية لها مستجيباً .

بما تطول له الحسرة ان الخاصة يعجزون عن ابلاغ دعوتهم الى العامة ،
والعامة يسمعون اصواتهم للخاصة كل ساعة .

بما امتازت به هذه المدينة الحديثة ان كل فرد يحاول أن يستثمر
صاحبه انواع الاستثمار : يستثمر عقله ويستثمر ماله ويستثمر جاهه فاذا
ما وصل الى بغيته ينسى أو يتناسى ما أسدي اليه .

لولا الخوف من القضاء على المروءات والعمل على احياء غريزة اللؤم
لدعوت جبهة الى الامتناع عن اسداء المعروف .

من احسنت اليهم واساءوا اليك اكثر من اساءوا اليك وانت لم تسوءهم .
لو ظفر الفقير بالغني ما ابقى له قوت ليلة ، ولو كتب للمتخالفين في
الاديان ان ينال فريق من فريق ما ابقى القوي على ضعيف .

من كان الحير في دمه زاده الدين كلاً والفاقد في فطرته قلما يفيد من
تعالم الدين ولا بما كتبه علماء الاخلاق في كتبهم .

كان احد ساسة الغرب يقول ليست الصعوبة في حكم الطبقة الاولى ولا
في حكم الطبقة الدنيا ، الصعوبة في حكم الطبقة الوسطى . وتعليل ذلك ان اهل
الطبقة الوسطى يعرفون كيف يطالبون ويشاغبون وكيف يدخلون ويخرجون
لو فكر علماء الغرب في طرق ابطال الحرب كما فكروا في اسباب
دوامها ما وصلت الانسانية الى هذا الحال المزعج .

اذا حلت السبب في فقر الفقراء تبين لك ان اكثرهم هم علة فقرهم .

لا يقف عمل الا من ضعف صاحبه واهماله اتخاذ الاسباب .

اذا اصاب الغرور انساناً كبير عليه فقد مات ، واذا اصاب دولة فقل

انها دالت .

متى اكثر من التواضع ظنك ارباب الرقاعة وضيعاً فكن مع من
تلقى في حالة بين بين لا تتعاضم ولا تتصاغر .

قد يعتقر جنون العظمة فيمن كان اجداه على شيء منها ولا يغتفر في
الوضيع الاصل الحديث النعمة .

ربات الشرف اكثر سواداً من الفاجرات والشريفة مها حدثتها نفسها
باختنا تدرك ان شرفها مثلوم من اول خطيئة ترتكبها .

لاخير في مجتمع لا يكافح فيه الكذب كما تكافح الامراض السارية .

بأي وجه يقابل الكذاب من كذب عليه ؟

من العادة ان يسك الناس عن نقد صاحب الشأن وهو في معظم سلطانه

فاذا ماسقط اخرجوا له من مساويه الحمير والفتير . كأنهم كانوا يجمعونها

ايام عزته ليحملوها اليه صبره واحدة في محنته .
لو كان للخونة ضمير لانتحروا يوم ينكشف امرهم للهلا .
رجل الدولة الذي يسرق الالوف والوف الالوف موهماً انه في حل
بما يأخذ هو اخس من قطاع الطريق .
لو كان من دأبوا على الاضرار بالناس على شيء من العقل لأقسموا
ألا يضرروا شراً لاحد ولو في قلوبهم .
النظام صحة وهناء والقوضى مرض وتهلكة .
اذا أردت اختبار صداقة من تصادق اقصد في افراضك مالاً ينجيك
من ضائقة .

من خان سيده الاول كان حربياً أن يخون سيده الثاني .
السبب في أن العاقل في الوزراء وكبار رجال الدولة أكثر من الصالح
ذلك الغرض الأعمى في اختيارهم .

من قضاوا أيام شباههم وشطراً من كهولتهم وهم يتجرون ويسمسرون
ويبيعون ويدلسون لا يصلحون لشيء من ادارة الشؤون العامة فكيف بهم اذا
تقلدوا الوزارة .

من أبشع العادات أن يتقدم أحد الاصحاب في المطعم أو المقهى أو المركبة
أو الترام ليستأثر باداء ثمن ما أكلوا وشربوا واجرة مار كبوا فتراهم يتسابقون
ويتدافعون ويحلقون الايمان المغلظة ، كل منهم يريد أن يكون صاحب هذه
المكرمة دون رفاقه ، تشاهد ذلك في المدن والقرى كل يوم . ولو كان المبلغ
الواجب ادائه كبيراً لأحجم أكثرهم عن الدفع .

لو كان لسان الصاحب في غيبة صاحبه مثل لسانه في حضرته لتداعت دولة الرياء .
لو تفاهمت الشعوب حق التفاهم ما تيسر لقادة سياسة العالم أن يعلنوا
الحرب ويعقدوا الصلح على هواهم .
لا تغتر بصحبة الاغنياء فالغني لا صاحب له الاماله ، ينساك أو يتناساك ،
ساعة مفارقتك اياه .

ثبت أن دني الاصل يبقى وأولاده أدنياء الى اجيال طويلة .
الفقراء اذا اغتموا وحاولوا تقليد النبلاء في لباسهم وفرشهم ومسكنهم
وحديثهم كالزنجي يكتسي ازياء الموصوفات بالاناقة من النساء .
لو اخذ الانتخاب الطبيعي حكمه في قومي فبك ثلاثة ارباعهم وبقي
الصالح للبقاء لما شكونا من جهل ولا أتينا من قلة تدبير ، وكان مجموعنا
اذذاك افضل من مجموعنا الآن .
الكذب في العلماء اقبح اثرأ منه في كل الطبقات فليتدبر العالم عاقبة
كذبة يكذبها .

اقرارك بالحسن من صفات عدوك دليل على انصافك فاياك اذا غضبت
عليه ان تعريه من كل ما خص به .
اذا اثبت على أهل الفضل بما فيهم كنت قميناً الا يغمطوك حقا من ثنائهم .
لا يخلو المرء من صفة تستجاد فيه فاعرف كيف تستخرج فوائده
وتفيد من صفاته .

دامت دولة بني العباس بضعة قرون مع ظهور الضعف في كيانها منذ القرن
الاول وذهبت دولة بني أمية بسرعة عجيبة على ما كان لها من اسباب القوة .
من بدأ حياته باعتماد الخرافات لا يبلغ الشيخوخة حتى يكون مجموعة
خرافات فاسأل الله السلامة من مدانة صاحبها .
لو أنكروا كل عالم خرافة أو خرافتين ما بقي في العامة شيء يصح ان
يطلق عليه اسم تحريف .

لو عريت معظم كتبنا القديمة من بعض ما شخنت به لظننتها بما كتبه
أرقى علماء الغرب في هذا العصر .
ليس من شيمة الشريف أن يشمت بمصائب من لا يجهم فالشامة خلق الادياء .
لو قام كل بواجبه في هذه الجمهورية الصغرى لعدت في ستين سنة في عداد
الدول الكبرى .
بما جلب الولايات على الشرقي احتقاره كل شيء .

لو كان عمل العربي اكثر من ذكائه لما اضاع ملكه وانحطت حضارته .
من لم يتعارف اليك يوم عزه فان من حقك ان تتعد عنه ايام ذله .
من خفة العقل ان يتكبر من صار له مال او جاه فالعاقل في هذه
الحالات يزيد تواضعاً لاحتياجه الى الاستكثار من الانصار .
من اراد ان يعد في الحمير فليتكبر ما شاء .
بما اخرنا عن اللحاق باهل الحضارة الحديثة ان كل انسان يعفي نفسه من
الواجب عليه ويلقي على غيره كل التبعات .
لو امكن البشر حذف وجبة واحدة من طعام كل يوم لسقط معدل عمله
الى نحو الثلث .

السدة في الاصلاح

من يعد نقد الاخلاق بما لا يروق المنتقدين غيبة وتغيباً هو ولاشك من
الجاهلين بما تصالح عليه المجتمعات وتفسد . ومن حكمت عليه حنبلية بالسكوت
عن النقائص لايحوز ان يقدر بمن يجب القدر فيه فهو ارتجاعي معطل يسره
ان يرى قومه في عماية وغواية . وضالّ مضلّ لا يدرك حكمة الأديان
والشرائع من يجب الفوضى الى الخلق ويحاول ارجاعهم الى الجاهلية الاولى ،
وتترك كل واحد وما يختار يكذب ويسرق ويعتدي ويرتكب الموبقات عامة .
وبعد فماذا كانت حال الانسانية ياترى لولا خوف الضيف من القوي ،
وخشية الشقي من سلطانه ، وحذر المتلاعبين من كشف مساوئهم . لاجرم
أن من يذهب الى اقرار كل أحد على هواه يعد مشعبداً بمخرقاً .
دونا في هذه المذكرات بعض آراء في الاصلاح استدعاها المقام ،
معتقدين انا لانصل الى تزيين الحسنات الا اذا حللنا السيئات بكل ما فيها
من قبح وشناعة ، وانحينا على من يعبت بحقوق الجماعة اعتقاداً منا بان ذلك
الصل الذي دللنا عليه لو كان عمله لا يتعدى الانفس لطويناها على غيره ،

اما وسيئاته تتناول الامة فنحن لانبالي بمن يجادلنا فيما لاسبيل الى الجدل فيه ، وشأننا معه شأن الجراح يقبض بيده على المبضع يشق الجرح النعّار لا تأخذه شفقة بصاحبه أو يخرج من جسده المادة القتالة .

واي سخف اعظم من سخف من يريدنا على ان نعد الحق والباطل سواء ، ونلزّ الصالح والفاسد في قرن واحد ، ونحن نعتقد انه لن يستوي الاصلاح على ساقيه ان لم يضرب المخربون على رؤوسهم بالمعاول الثقيلة .

تأذى بعض من وجهنا اليهم كلامنا بتلاوة ما كتبنا ، وما استطاعوا ان يردوا على ما غاظهم من فضح سيئاتهم ، وتلهلوا وتهامسوا بينهم لهذه الحرية التي كشفت بها اسرار من كانوا يطمعون في ان يسكت عنهم . وحاول بعضهم ان يرد علينا فيما كتبناه في بعض الصحف الرصينة فقال له صاحبها ان مؤلف المذكرات نشر كتابه باسمه فهل انت مستعد ان تزيل باسمك النقد عليه ؟ فقال : لا

ولم يرض بعض السياسيين خاصة عن بعض ما كتب لانهم في العادة يؤثرون التمولية ويتعلقون بالكتبان ولا سيما فيما فيه تجريحهم ، وقد عري بعضهم من صفات الخير . ولقد ودّ بعض الاذكياء لو صرحنا باسماهم من عرضنا لهم ، وهذه الطريقة غير مفيدة لانا نقصد بما كتبنا العبرة والتعليم لا التشفي والتشهير . وفي طي الاسماء شيء من الحكمة ورحمنا به من سدونا الى عيوبهم سهامنا ، وحملنا اليهم ما يوجب منه لهم بعض الصلاح .

وترامى الينا وهذا ما كنا نرجوه أن أبناء التربية الحديثة من الشباب المتعلمين هللوا لما وقفوا عليه هنا من أفكار قلما عهدوا احدًا يجسر على تدوين مثلها ، وتروفوا ان رأوا حملتنا صادقة على الظالمين والمخربين . والمقصود على كل حال فائدة الناشئة ، اما من دب الهرم في أجسامهم وعقولهم فاكثروهم لا يرتاحون الا الى من يزين لهم ما أتوه ، وان كان من القبح بمكان لا ينكره عاقل .

ربما وقعت لنا هنات كان الأجدر ان يسلم منها كتابنا ، وما السبب فيها الا بعض من اهلوا الينا بمعلومات وهموا فيها ، ومن ذا الذي عصم

من الخطأ ، والاجتهاد يختلف في الحكم على من اشتركوا في معاناة المصالح العامة اختلافه في انصافهم على ما يوجب الحق ، ويكفي المؤلف وهو يفيض ، في مسائل متشعبة ، ان يحمل الى قرأته ما خبره بنفسه .

مضت اجيال ما كان ارباب المدارك يجسرون فيها ان يقولوا شيئاً في انكار الظلم ولا ان يذكروا الفاسدين باللسان ولا بالقلم لابل التصريح ولا بالتهميح ولو قيضت للامة طائفة تحسن السلوك الى طريق الاصلاح ما ظهر اليوم من يستحل الاغضاء عن السيئات ، ومن اجل هذا لانكاد نجد مؤلفاً اجري قلمه بهذه القسوة ، ومنهم من فضل التقية على مضمض مخافة الا يظفر بناصر يحميه ، والقانون قد لا يرد عنه اعداء الحرية .

ربما قال من دأبهم الاعتراض على كل شيء ، والاستهانة بكل وهل يستحق انكار ماتنكرون كل هذه الولوجة ، والعارفون في كل قرن ما قصروا في تقويم المعوج وما انجلت حملاتهم الا عن نتائج ضئيلة . الامر كما قلتم ايها السادة ومن ادعى ان كل حق يظهر اثره حين الدعوة اليه ، وقد لا تجني النتائج بقدر ما قدر لها ، واذا نفذ بعض هذا الكلام عدت الدعوة ناجحة . اما نحن فواجبنا ان نجهر بما نوقن نفعه وليس علينا ضمان النجاح ، كالطبيب لا ينقطع عن مداواة مريضه ولو كان الأمل في شفائه واحداً في المئة .



فهرس الجزء الثالث

من المذكرات

صفحة	صفحة
الحزب السوري ٧١١	الملكية ام الجمهورية ٦٥٩
اصلاح الاخلاق ٧١٣	مجالسنا النيابية ٦٦٢
جمعية المقاصد الخيرية ٧١٦	النصح الخالص ٦٦٥
من آراء شيخ المصلحين ٧١٩	اللغات الغربية في الشرق ٦٦٧
موضع عجب ٧٢٢	ضياح الفرص ٦٦٩
المدنية الحديثة ٧٢٤	تعادي الأسر ٦٧١
طبقات الناس ٧٢٦	صراحة العلماء ٦٧٢
الشيخ طاهر والسياسة ٧٢٨	الحنبلية ٦٧٤
الصغار والكبار ٧٣٢	اختلاف الشرقيين ٦٧٦
فساد الطرق ٧٣٣	الدعاية للفضائل ٦٧٧
فرنسا في شمالي افريقية ٧٣٦	المعلمة العربية ٦٧٩
اقوال معسولة ٧٣٨	الارمن وارتجالهم ٦٨٥
أهل السنة والشيعة ٧٤٠	مساجلة صديقين ٦٨٧
بيني وبين الاستاذ الخوري ٧٤٦	الزواج بالاجنبيات ٦٩٨
مدرسة الجمال ٧٥٣	المرأة العربية ٧٠٤
اصباغ النساء ٧٥٤	الشيوعية في الشرق ٧٠٤
سخافة مؤرخ ٧٥٧	فوضى المجتمع ٧٠٧
حوليات مصر ٧٥٨	بلاهة ٧٠٨

صفحة	صفحة
٨٢٣	٧٥٩
٨٢٤	٧٦١
٨٢٥	٧٦٢
٨٢٧	٧٦٤
٨٣٠	٧٦٧
٨٣١	٧٧٠
٨٣٥	٧٩٠
٨٣٦	٧٩١
٨٣٧	٧٩٣
٨٤٠	٧٩٦
٨٤٢	٧٩٧
٨٤٤	٧٩٨
٨٤٥	٨٠١
٨٤٦	٨٠٣
٨٤٧	٨٠٦
٨٤٨	٨٠٨
٨٥٠	٨٠٩
٨٥١	٨١٠
٨٥٢	٨١٤
٨٥٣	٨١٣
٨٥٦	٨١٥
٨٥٧	٨١٧
٨٥٩	٨١٨
٨٦٠	٨٢٠
	٨٢٢

صفحة	صفحة
٩٠٢	٨٦١ الكل مسؤولون
٩٠٥	٨٦٣ هلال رمضان والعبدين
٩٠٦	٨٦٤ دمشق
٩١٠	٨٧٠ اعمال الاداريين
٩١٤	٨٧١ رأي عادل
٩١٦	٨٧٢ بقايا الطرق
٩١٧	٨٧٣ الفقهاء وكسوتهم
٩١٩	٨٧٤ السواد الاعظم
٩٢١	٨٧٦ الاستعمار البريطاني
٩٢٤	٨٧٧ ذكرى العطاء
٩٢٦	٨٧٨ يسرقون ولا يدرون
٩٢٧	٨٧٩ حكمة حكيم
٩٢٩	٨٨٠ وقعة سوداء
٩٣٢	٨٨٠ اخلاق المرين
٩٣٤	٨٨١ حظ الكتاب العربي
٩٣٦	٨٨٣ الغنى في مصر
٩٣٦	٨٨٤ عداوات البيوت
٩٣٧	٨٨٤ الرشوة والتنسيق
٩٣٩	٨٨٦ سخر العادات
٩٤٠	٨٨٨ المؤلفون السارقون
٩٤٢	٨٨٩ عمى الماديات
٩٤٣	٨٩٠ نهضة الشام الاخيرة
٩٤٥	٨٩٧ الثورة المباركة
٩٤٨	٩٠٠ الدواعي الى الثورة

صفحة	صفحة
٩٦٣	٩٤٩
٩٦٩	٩٥٢
٩٧٥	٩٥٤
٩٧٦	٩٥٦
٩٧٧	٩٥٧
٩٧٩	٩٥٨
٩٨١	٩٥٩
٩٩٠	٩٦٠
	٩٦١



من تأليف الأستاذ كرد علي

مجلد	مجلد	مجلد
	٩	خطوط الشام
١	٧	الاسلام والخصارة العربية
١	٧	امراء البيان
١	١	أقوالنا وأفعالنا
١	١	القديم والحديث
١	٧	غرائب العرب
١	٣	المذكرات
٤	١	المفالات (لم يطبع)
١	١	المحاضرات « »
١	١	خرطة دمشق (تحت الطبع)
١	١	دمشق مدينة الشمر والسحر
١	١	كور الأجداد (تحت التأليف)
١		
	٩	صبرة احمد بن طولون اللوي
١		رسائل النقاء (طبعة ثالثة)
١		المستجد من فعلات الأجواد للتوخى
١		تاريخ حكماء الاسلام للبيهي
١		الأثرية لابن قتيبة
١		البصرة ليازار العزيز بالله الفاطمي (أعد للطبع)
٤		الكنائس (مخطوط)
١		تاريخ الحصار لشارل سنوبوس (الجزء الأول) ترجمة
١		الفضيلة والزينة (قصة مترجمة)
١		الحرم البرمهي (منقولة عن الفرنسية)
١		تكملة الزمان (منمذاة عن الفرنسية)

كتاب (المذكرات) في ثلاثة أجزاء تأليف الأستاذ محمد كرد علي

يباع كل جزء في سورية ولبنان بمصر لبرات سورية وفي مصر وسائر البلاد العربية بستين قرشاً مصرياً

التخارة مع السيد ياسين الطالبي بدمشق

وكلاؤنا في دمشق : المكتبة العربية لأصحابها السادة عبد اخوان

مكتبة الباهروس

« » بيروت : المكتبة الأهلية لصاحبها الأستاذ محمد جمال

مكتبة الهلال للأستاذ ابراهيم زيدان وأولاده بالقاهرة

مكتبة السادة مراكيس وأولاده في القجالة

« » القاهرة

وتطلب من المطاب الشريفة في مصر والشام وجميع البلاد العربية

